الأستاذ صالح الطائيّ

عَوَالِمُ الْحُكُومَةِ المهدويّةِ

١

عَوالِمُ
الحُكُوْمَةِ المهدويّةِ

بسم الله الرحمن الرحیم

عَوَالِمُ
الحُكُوْمَةِ المهدويّةِ

غَزْوُ الْفَضَاْءِ
وَفَتْحُ المجرّات فِي عَصْرِ الظُّهُوْرِ

الجزء الأول

صالح الطائيّ

العارف للمطبوعات

عَوَالِمُ الحُكُوْمَةِ المهدويّةِ

غَزْوُ الْفَضَاْءِ وَفَتْحُ المجرّات فِي عَصْرِ الظُّهُوْرِ

صالح الطائيّ

الطبعة الأولى: بيروت، أيلول/سبتمبر 2012
القياس: 17 × 24
تصميم الغلاف: ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟
الإخراج: مؤسسة المنتدى
عدد الصفحات: ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟
عدد النسخ: ؟؟؟؟؟؟؟؟؟ نسخة

ISBN ?????????????

شركة العارف للأعمال ش.م.م

بيروت ـ لبنان 00961 1 452077
العراق ـ النجف الأشرف 00964 7801327828
Website: www.alaref.net

© جميع حقوق النشر محفوظة للمؤلف، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي من المؤلف.

© All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any from or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by an information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

● هامّ جدّاً: إن جميع الآراء الواردة في الكتاب تعبّر عن رأي كتّابها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر...

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

[سورة البقرة / ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥]

الإهـــداء

إلـــى

مقامِكَ الأسمى سيّدي الأملَ الموعودَ

الإمامَ القائمَ المهديّ المنتظرَ

(عجّل اللهُ تعالى فرجَهُ الشريفَ)

عهداً بالانتظار

وثباتاً على المبدإ

وشوقاً إلى لقاء

ووعداً بنصرة

وإذا غيّبني التراب بعد طول انتظار

سأنهض مؤتزراً كفني

شاهراً سيفي

منادياً.. لبّيكَ.. لبّيكَ

يا إمامي

تقديم

الكتابة عن الإمام المهديّ(عجّل الله فرجه) شاقة صعبة، وشائقة ممتعة؛ ذلك أنّها تصدر من فؤاد شيّق مشتاق إلى ظهوره البهيّ؛ لذا إنّ مَن يكتب عن الإمام المهديّ يجد صعوبة في هذا النوع من الكتابة؛ فيظلّ حائراً؛ عمّ يكتب؟ أ عن حياته في طفولته وقد أشبعت بحثاً؟! أم يكتب عن الإمام وأصحابه القلائل، أم عن التقاء الإمام بعدد من الناس الذين صفت قلوبهم كالزيت واشتعلت فكانت جذوة تهفو إلى اللقاء، وحدثت لهم حوادث معه حين ضاقت بهم السبل؛ أم يكتب عن دولة الإمام فيجمح به الخيال والأمنيات. كيف يظهر وكيف يدعو الأمم والشعوب، وهل يقاتلهم؛ أي: يخرج بالسيف، وهل يخرج بالدعوة المحمّديّة التي دعا الناس بها جدّه، أم بكليهما؟ وتبقى التساؤلات تنثال في رأ س من يكتب عن هذه القضيّة.

وقد كُتبت كتب كثيرة، وسال مِداد كثير من أسلات الأقلام؛ إلى أن تحامت رفوف المكتبات وازدحمت، وأنشئت مؤسّسات في الفكر المهدويّ، وأقيمت دراسات في شرق الأرض وغربها؛ منها ما يبشر بالظهور القريب، ومنها من ينفي القضيّة برمّتها ويعدّها من الخرافات.

وهناك حين يظهر الإمام من سينكره ولا يثبت على أمره، إلاّ من أخذ الله ميثاقه في عالم الذرّ الأوّل، وإنّ هذا الإنكار سيكون بعدم الإقرار له بالإمامة، وإنّه ليس من ولد فاطمة، وتارة يكون الإنكار بالخروج لمقاتلته، وأخرى يكون بمعصيته، وهكذا تتعدّد أوجه نكران الإمام وتتكاثر.

وعوداً على بَدء نقول كثرت التآليف في الإمام المهديّ؛ وكلٌّ يدلي بدلوه،

ويخاصم بأدلّته، ويواجه بغرائزه وبعاطفته؛ ولكن يظهر من بين كلّ هذه الاحتطابات والاحترابات قلمٌ منصف وُضع بين أناملَ احتكمت إلى العقل؛ وفي الوقت نفسه كانت حنيناً وأنيناً لمنقذ الكون من الضلالة.

نعرف ذلك حين تلتقي أسلة القلم على بياض الورقة؛ فيحدث صرير هادئ يسمعه من يقرأ بإمعان، وينظر بعين فاحصة أدمنت القراءة وعالجت الكتابة؛ فأصبح ديدنها البحث عن انبلاجات الحقيقة.

وصالح الطائيّ من أولئك الذين فاضت أعينهم شوقاً للإمام المهديّ؛ وطفح قلبه ألماً لما يرى من واقع الناس على ظهر هذه البسيطة؛ فنرى كتابه هذا حين قرأناه وكأنّه يريد منّا أن نشاركه الهمّ؛ فهذه أدلّته من كتب الحديث المعتبرة التي اتفقت الأطراف جميعاً على صحّتها، وهذه الأدلّة من كتب غير المسلمين تهتف بالحقّ وتنطق بالصدق: أنّ الحقّ سيشرق على الكون.

إنّ صالح الطائيّ يريد أن يقول ببوحِهِ هذا أنّ البشريّة جميعاً تنتظر منقذها، وليس هذا فحسب بل سكّان السماوات وعمّارها ينتظرون أيضاً.

وقد أزفت الآزفة وبانت لوائحها؛ ليبدأ عهد جديد، وصورة جديدة للكون بعد انتظار دام ملايين السنين.

إنّ صالح الطائيّ قد ركب مركباً صعباً، وولج أمراً مخشوشناً حَزوناً؛ ولكنّه لم يسقط من هذا المركب، أو يدمى من هذه الخشونة والحزونة؛ إذ أمسك بأدوات بحثه، وجاء منهجه العلميّ طيّعاً سلس القياد، فلم ينفلت من بين يديه وأصابعه؛ فقد كان يدير إخراج كتابه بإتقان؛ ولم نره قد خرج عن منهجه الذي اختطه إلاّ لماماً؛ فليس هناك كتاب كامل إلاّ القرآن الكريم.

إنّ صالح الطائيّ في هذا الكتاب توكل على الله، واهتدى بهدي محمّد وآل محمّد، واقتدى بسنّتهم، ونفض شيئاً من الغبار الذي علا خزائن علومهم؛ لذا حذّر ممّا حذّروا منه؛ من ظُلَم الفتن ووعورة المسالك، ورغب فيهم وفي علومهم؛ فقد أمر بالمعروف ونهى عن المنكر؛ اعترافاً منه بحقّ الله

عليه في الدعوة إلى طاعته، والتحذير من مكره، ومجاهدة عدّوه الشيطان، وأنصار الشيطان؛ وقد حدّث بنعمة ربّه، وأنفق ممّا رزقه الله.

وآخر دعوانا أنّ هدى الله هو الهدى؛ يهدي به من يشاء، ولله جنود السماوات والأرض؛ ومن جند الله ألسنة طائفة من المؤمنين؛ إذ يقول رسول الله ﷺ: "احذروا لسان المؤمن فإنّ الله يجري الحقّ على لسانه". جعلنا الله وإيّاكم منهم، وهو ذو الفضل العظيم، والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمّد وآله الطيّبين الطاهرين، والحمد لله ربّ العالمين.

أ.م. د عبد الزهرة زبون

الجامعة المستنصريّة/ كلّيّة التربية

مقدّمـات

حيرة تأريخيّة

منذ عهد الإغريق وربّما قبلهم بزمن طويل، أو حتى مع بداية وجود الإنسان على ظهر الأرض؛ وسؤال محيّر يعيد طرح نفسه في كلّ مناسبة، وفي كلّ حضارة مفاده: هل هناك عوالمُ أخرى غيرنا، فيها مخلوقات مثلنا، تشبهنا أو تختلف عنّا؟ أم نحن وحدنا في هذا الكون اللامحدود واللامتناهي؟

هذا السؤال طرحه علماء الحضارة الإغريقيّة على أنفسهم وبحثوا عن جوابه، ولكنّهم لم يفلحوا بالوصول إليه، وطرحه الشيخ الرئيس ابن سينا في رسالة ابن يقظان من أسرار الحكمة الشرقيّة على شكل جواب أفاد به ابن يقظان سائليه: "وأمّا حرفتي فالسياحة في أقطار العوالم....حتى زويت بسياحتي الأقاليم" ويطرحه العلماء الغربيّون المتخصّصون بعلوم الفلك والفضاء على أنفسهم ويبحثون بجدّيّة عن جوابه، وربّما يكونون قد حصلوا على الجواب أو على جزء منه، ولكنّهم يخافونه؛ فيخفونه لأسباب قهريّة تخصّهم. واليوم يطرحه المهدويّون الذين يؤمنون أنّ الإمام المهديّ سوف يحكم العوالم كلّها، وليس الأرض وحدها.

وقد يكون في بحثنا هذا ما يدعو إلى التفكير جدّيّاً في جواب هذا السؤال، وفي حقيقة وجود عوالم أخرى في الكون الشاسع مسكونة بمخلوقات مكلفة عاقلة، وعن حقيقة اللقاء المرتقب معها.

أمّا التصديق بنتائج ما سنصل إليه، فأمره متروك لك وحدك، أنت من

سيقرّر إن كانت النتيجة مقنعة ومقبولة لديك ومرضيّة لك، أم إنّها أوهام مجرّدة من نسج الخيال البشريّ الجامح الذي تتراءى له أحياناً خيالات من وحي الميتافيزيقيا؟

إنّ البحث الذي بين يديك جديد في موضوعه، يحتاج إلى التمعّن والتدقيق قبل الحكم عليه، أوالتسرّع في رفضه أو قبوله، ليس لأنّه فكر يبشر بحقيقة تقول: إنّ الغد الكونيّ القادم سيكون عصراً إسلاميّاً بحتاً، وبأنّ حدود الإسلام الذي يبدو اليوم منزوياً وغير معافًى، وتبدو أوصاله مفككة وقواه مشتتة، لن تقف عند حدود الكرة الأرضيّة وإنّما ستتعدّاها وصولاً إلى العوالم الكونيّة الأخرى، لتقيم في الكون كلّه دولة العدل الإلهيّ الواحدة، حيث يصبح المسلم سيّداً للأرض وللعوالم المجهولة الأخرى، وتصبح عقيدة المسلمين سيّدة العقائد لأوّل مرّة في التاريخ، ومن دون أيّ منافس آخر.

وعليه، وكما سيتبيّن بعد إتمام قراءة البحث بعناية وتدقيق وتمحيص وحياديّة، سنجد بعض مفاهيم المسلمين عن المهدويّة فكراً وعقيدة ودولة تحتاج إلى المراجعة والتصحيح بما يتساوق والتطوّر العلميّ والحياتيّ والسلوكيّ القائم اليوم. وقد آن أوان تفسيرها وَفق منهجيّة علميّة حديثة تتساوق ومعطيات العلوم المعاصرة، والكفّ عن الطرائق التقليديّة النمطيّة الموروثة في التفكير والتفسير.

لكن كيف سنتمكن من إقناع الآخر (المسلم) بالذات بصحّة ما يرد من حقائق وهو الذي يختلف معنا بكلّ معتقداتنا المهدويّة، بل ويؤمن بأنّ العقيدة المهدويّة ذاتها ليست من العقائد الإسلاميّة الأساسيّة ولا الثانويّة، وبأنّها دخيلة على الفكر الإسلاميّ، وتبعاً إلى فهمه هذا؛ يحاول ويعمل ويجاهد لتسقيطها وتسقيط مبانيها وفرعياتها كلّها، ولاسيّما أنّ هذا الخلاف اللاعقلانيّ جعل كثيراً من المسلمين يستهجنون الحديث المجرّد عن مباني الأطروحة المهدويّة، ويذهبون إلى أكثر من ذلك؛ فيعمدون إلى تكذيب من يورد أيّ خبر عنها مهما كان بسيطاً، ومهما كانت درجة ثقته وصدقه، وهذا ما

جعل كثيراً من المسلمين لا يؤمنون إلاّ بثقافة القمع، وفلسفة الصدّ، ونظريّة الخلاف وروح الاستعلاء والعصبيّة بوصفها أدواتٍ قمعيّةً يحاربون بها من يحمل معتقد المهدويّة، ويؤمن به ويدافع عنه.

إنّ حالنا وحال المعاندين من قومنا من حيث قبول فكرة المهدويّة أو رفضها يشبه حال المؤيّدين والرافضين لفكرة عودة السيّد المسيح عليه السلام من أتباع الديانة المسيحيّة، وهذا من مصاديق حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "لتتبعُنّ سنن من قبلكم" ولكن الاختلاف الجوهريّ بيننا وبين المسيحيّين أنّهم هذبوا أخلاقهم بتحضرهم لذا تراهم لا يستهزئون بمخالفيهم، ولا يكفرونهم ولا يتهجمون عليهم؛ وإنّما يحاورونهم بالعقل والمنطق، ولذا نجد عدد من يؤمن بالعودة الثانية للسيّد المسيح بينهم أكثر من عدد الذين يؤمنون بظهور الإمام المهديّ بين المسلمين، حيث تبيّن بحسب الاستطلاع الذي أجراه معهد "بيو" لاستطلاعات الرأي، وهو أحد أهمّ مراكز الأبحاث العالميّة في عام ٢٠٠٦ أنّ ٩٧٪ من الشعب الأمريكيّ يؤمنون بالعودة الثانية للسيّد المسيح، أمّا عدد المؤمنين بظهور المهديّ بين المسلمين فلا يشكل أكثر من نسبة ٢٥٪ وهم بالعادة أتباع مذهب أهل البيت، وبعضهم النادر من أتباع المذاهب الأخرى.

ولتوضيح الصورة لأغراض المقارنة بين سلوكنا وسلوكهم نجد أنّه في عام ٢٠١١ بدأت جماعة مسيحيّة، مركزها في أتلانتا الأمريكيّة (ناشفيل وديترويت وأوماها) بنشر ملصقات ضخمة فيها صورة لثلاثة رجال مجوسيّين يركبون جمالاً ويتجهون إلى (أورشليم) القدس مع جملة (إنّه عائد) وزادوا عليها قولهم إنّ ظهور المسيح الثاني سيكون يوم ٢١/ ٥/ ٢٠١١ فلمّا لم يتحقق الموعد قدّموا التاريخ إلى ٢١/ ١٠/ ٢٠١١ فاعترض عليهم (اتحاد الأمريكيّين الملحدين) وعلّقوا ملصقات خارج "نفق لينكولن" في "نيوجيرسي" كتِب عليها: (تعلمون أنّ الميلاد أسطورة ـ احتفلوا بالعقل) (You know it's a myth) فردّ عليهم المتديّنون ومنهم أتباع (الربطة الكاثوليكيّة) بحملة إعلاميّة مضادّة عنوانها: (تعلمون أنه حقيقة ـ احتفلوا بالمسيح) وانتهى الحوار بينهم عند هذا

الحدّ ولم يتجاوزه، وأصرّ كلٌّ منهم على منهجه ومعتقده من دون أن يتطاول على من يخالفه.

أمّا نحن المسلمين فلم يفلح ديننا ولا حضارتنا بتهذيب أخلاقنا، ولذا تجد الحوار بيننا معدوماً، والتطاول والتكذيب فاشياً، ولا نجيد التحاور إلا بالسيوف والحراب.

لذا أعتقد بأنّ طرح هذا البحث في هذا الوقت بالذات ولاسيّما أنه يتحدّث عن جزئيّة تكاد تكون غريبة في مواصفاتها وخوارقها، يعدّ تحدّياً جريئاً ومجازفة خطِرة، ولكنّها بالتأكيد مجازفة دافعها الجرأة، أقدمتُ عليها لأني أؤمن بأنّ للجرأة في بعض المواطن فعلاً صاعقاً؛ كما هي صعقة الكهرباء، وعصفاً ذهنيّاً يكاد يشبه عصف الصواريخ النوويّة بل أشدّ منها تأثيراً.

إنّ مقالة الفيلسوف "كانت" التي دعا فيها إلى الجرأة في طلب المعرفة قادت الشعوب الأوربيّة والغربيّة إلى وضع الدين موضع الاتهام، ومن بعدُ دفعتهم إلى محاكمته وإدانته ممّا أدّى إلى إلغاء أثر المعرفة الدينيّة في الحياة العامّة، وحصر الفكر الدينيّ في مجموعة تقاليد ومفاهيم وقيم تقتصر على صناديق الاعتراف والتوبة بما لا يسمح للدين بأن يتدخل في الشأن المجتمعيّ لا من قريب ولا من بعيد، وهي الخطوة التي أدّت فيما بعد إلى صياغة مجموعة القوانين المدنيّة وإقرارها التي تقود المجتمع الغربيّ اليوم، وهي التي لا تجد فيها ذكراً لله، ولا تجد فيها للدين موضعاً أو أثراً، ومنها انطلقت دعوات نبذ الشرائع السماويّة، واعتماد الشرائع الوضعيّة التي جاء بها البشر بحجّة أنّ (الإله) مات وقبر!

ونحن المسلمين لا نريد أن نمرّ بمثل هذه التجربة القاسية؛ لأننا كنا وما زلنا وسنبقى نؤمن بأنّ للدين وللمعرفة الدينيّة حيّزاً كبيراً في كلّ مفردة من مفردات حياتنا وعيشنا وموتنا وما بعد موتنا، وأنّ الدين وليس السياسات الحاكمة هو الذي سوف يقودنا في النهاية؛ لنكون الأسياد الكونيّين. لذا إننا

إن أردنا أن ندعوَ إلى شيء من هذه الجرأة تحدّياً بالفكر والمنطق لرأي الدكتور "عبد الكريم سروش" الذي يرى: "أنّ الجرأة غير محمودة بصورة مطلقة، والعقل هو الذي يجب عليه أن يشخص موارد الصواب والخطأ في الجرأة"[١] فإنّ دعوتنا تعنى اللجوء إلى الجرأة العقليّة والشجاعة الفكريّة لمحاكمة بعض النصوص وامتحانها بنزاهة ويقين وعلميّة غير متحزبة، ولا متحيّزة لتسقيط النصوص والآراء الهزيلة، وتقوية النصوص والآراء الصحيحة وتمتينها، وإعادة فهمها بعمل عصرانيّ جريء وحكيم، وحينها سنجد بعضاً من المسلمين بكلّ فئاتهم ومذاهبهم يعيشون خدعة تقديس الكثير من النصوص الهزيلة التي كانت السبب في فرقتنا، وفي تضعيف بعض عقائدنا، أو إنكار وجودها، وبعضهم الآخر يرتكبون الجرائم المنكرة بعدم إيمانهم بصدق النصوص الناهضة الأخرى وحتميّتها ولا بدّيّتها.

وممّا يحتاج إلى الجرأة في الامتحان والتدقيق بعض نقول الأطروحة المهدويّة ذاتها ومنها التي أصبح الخلاف بشأنها سبباً في تغريبها عن الدين، وتغريب الدين عن النفوس والعقول، بعد أن نقل بعض المغرضين معركتها التشهيريّة القائمة على الأحقاد السياسيّة الموروثة إلى شبكة الإنترنت العالميّة، وكلّ المجالات الإعلاميّة الأخرى بما فيها الفضائيّات العميلة، وهذا طبعاً ليس لتوحيد المسلمين على منهج واحد، أو لتصحيح خطأ تأريخيّ معيّن، ولا لتقديم النصيحة لمسلم ساهٍ لاهٍ مثلاً، بل لزرع التناحر بين المسلمين!

الذي أرجوه وآمُله أن يكون موضوع هذا البحث دعوة إلى التفكير الجريء في ضمن نطاق الشريعة لاكتشاف حقيقة المسلمات التي تدعم توجهاتنا الفكريّة والعقائديّة، ولاسيّما أنّ هناك فيما يحدث في العالم اليوم من حِراك علميّ وفكريّ بعض ما يدعم هذه الأطروحات ويقوّيها.

إنّ غزو الفضاء، وإرسال المركبات المأهولة، والسياحة الفضائيّة،

---

(١) الدين العلماني، عبد الكريم سروش، ص ٦٣.

والنزول على سطح الكواكب، والتوغل إلى حدود المجرّات، وإرسال المسابير الفضائيّة التي وصلت إلى أبعاد لم تكن معروفة في الفضاء الخارجيّ المجهول، واستعمال الأقمار الصناعيّة للبثّ الفضائيّ والتجسّس، والقدرة على تصليح الأعطال التي تصيبها من الأرض دونما حاجة للصعود إليها، والمشاريع العلميّة المتطوّرة، والسباحة في الفضاء الخارجيّ، ومشاريع التواصل مع الكائنات الفضائيّة، كانت ولقبل ستين عاماً فقط من أكبر الأحلام التي تراود فكر العلماء، ولكنّها أصبحت اليوم حقيقة متاحة لأبسط البلدان ما دامت تلك البلدان تملك مقوّمات التنفيذ، فتحوّلت إلى أمر غاية في البساطة ولا يستحقّ عناء المتابعة، أو الانبهار، أو الدهشة حتى من لدن عامّة الناس، وأصبحت هذه الدول بالنتيجة تعرف بالدول الفضائيّة.

ونحن نملك في النصوص الروائيّة الموروثة (القرآنيّة والحديثيّة والإماميّة) عشرات النقول التي تثبت أنّ الإمام المهديّ المنتظر عجّل الله تعالى فرجه الشريف يملك قدرات ربّانيّة لتنفيذ ما هو أعظم من هذه الأعمال وأخطر بكثير في ضمن سلسلة تواصليّة لم تمتلكها هذه الدول ولن تمتلكها، لا الآن ولا في المستقبل، تمتدّ من الإمساك بمفاتح العلوم كلّها، إلى طيّ الأرض، إلى ركوب السحاب وقباب النور، إلى الرقي في الأسباب، وصولاً إلى عمق الأكوان المجهولة.

وسنجد الذين يختلفون معنا بشأن ما نورده من حقائق عن المهدويّة يملكون في تراثهم الفكريّ والنقليّ مجموعة ضخمة جدّاً من الروايات التي تدّعي قدرات خارقة لهذا الرجل أو ذاك من رجالهم المشهورين، سطروها في كتب ضخمة تحت مسمّيات رنانة مثل (الكرامات/ الفضائل/ المناقب) جاءت لتؤكد أنّ كلّ الذين يحملون مشاريع كبيرة يملكون عادة آليّات غير موفورة للآخرين.

فلِمَ نستغرب من فكرة أن تكون مهمّة الإمام المهديّ مرتبطة بالعوالم الخارجيّة ارتباطاً امتداديّاً، تفاعليّاً، تواصليّاً، عملياتيّاً، حاكميّاً، وليس على

سبيل المجاز والتشبيه، ممّا يعني أنّ دولته لن تكون مثل (الدول الفضائيّة) التي جلّ ما حققته إلى الآن هو بناء محطات فضائيّة مأهولة خارج الغلاف الجويّ لأرضنا، لأنّ الإمام سيعيد بناء ما موجود في الفضاء الخارجيّ المجهول من نظم حضاريّة وقيم وأديان أكّدت وجودها الروايات المتواترة، وإن بدا لنا أنّ العلم لم ينجح إلى الآن في إثبات ذلك أو نفيه؟

إنّ ما تسرّب من مراكز البحوث الغربيّة مؤخّراً أثبت أنّ هناك أنواعاً من التواصل مع المخلوقات الفضائيّة، ولا نستغرب، أو نستهجن أن (تدّعي) دولة ما القدرة على غزو الفضاء، أو (يدّعي) شخصٌ ما القدرةَ على طيّ الأرض، أو (تدّعي) مجموعة ما إمكانيّة السير على الماء وما شابه ما دامت العلوم تتطوّر بكلّ هذا الزخم التعجيليّ، فلِمَ نستغرب أن يوظف الإمام المهديّ كلَّ هذه المعطيات فضلاً عمّا وهبه الله إيّاه من إمكانيّات وعلوم؛ ليبسط سلطان الله على الأكوان كلّها؟

من جانب آخر نعرف جميعاً أنّ الناس ينظرون إلى علم "المستقبليّة" على أنّه رجم بالغيب أو محاولة للعبث بالغيب، وما هو في مستقبل الزمان، لأنّه يتكلم على مواضيع لم تقع بعدُ، وكذلك يرى بعضهم الحديث عن المهدويّة رجماً بالغيب. وقد أثبت علم المستقبليّة بجهاد رجاله مكانته بين العلوم، ونجح في فرض نفسه على الساحة الفكريّة العالميّة، وآن للمهدويّة أن تثبت مكانها بين المعتقدات، بمفاهيم متفق عليها، ولا يختلف بشأنها اثنان. كما آن لمن لا يعدّ المهدويّة من العقائد الإسلاميّة الصحيحة أن يغيّر وجهة نظره، وينظر إلى مبانيها من زاويتها الحقيقيّة وليس التحريفيّة التي صنعها أصحاب الأهواء والبدع.

إنّ الحديث عن قارّة أطلنتيس فاق كلّ تصوّر واستمرّ متواصلاً منذ العصور الفرعونيّة إلى عصرنا الحالي، يقول أنيس منصور: "لم يتوقف العلماء عن البحث عن القارّة الغارقة وقد أحصت المكتبة الأهليّة في باريس

عدد الكتب عن أطلانطس حتى سنة ١٩٤٦ بخمسة آلاف كتاب، أمّا مكتبة الكونكرس الأمريكي فنشرت بياناً للكتب التي صدرت في هذا القرن عن القارّة المفقودة حتى سنة ١٩٧٢ وقدرت عددها بألفي كتاب منها ألف كتاب ظهرت مع دخولنا في عصر الفضاء"[١].

يعني هذا أنّ الحديث عن غيبيّات أو مجهولات بهذا المستوى يتصاعد بتناسب طرديّ وتقدّم العلوم التي تبحث في هذا النطاق لحلّ الألغاز التاريخيّة العالقة، ولمّا كنّا اليوم متربّعين على قمّة هرم علوم الفضاء؛ فمن الأجدر أن نتحدّث عن علاقتنا بالفضاء أو علاقة المهدويّة المستقبليّة بالفضاء وبسكانه؛ ولاسيّما أنّ هناك من يطمح إلى استعمار الفضاء واستغلال ثرواته، حتى وإن جعلنا الموضوع من الألغاز العالقة لا أكثر، فلِمَ كلّ هذا الرعب من الحديث عن المهدويّة وحدها؟

أرجو أن يكون هذا البحث بداية الطريق نحو عولمة الفكر العلميّ الإسلاميّ بمنظور يختلف عن العولمة الاستعماريّة الاستلابيّة، بما يدعونا لرفع رؤوسنا عالياً لأننا الأسياد القادمون من عمق عقيدة الإسلام لقيادة أعماق العوالم، أكثر من كونه بحثاً تفريقيّاً كما سيراه من يؤمن بسياسة الاستعلاء الفارغ.

أستثمرُ هذه المناسبة لأدعوَ الباحثين، ولاسيّما المهتمين منهم بالشأن المهدويّ، والعلماء، ولاسيّما منهم علماء الفلك والاجتماع والفيزياء والكيمياء وكلّ فروع العلم التي لها مِساس مباشر بحياة الإنسان، لأن يعيدوا طريقة تعاملهم الفكريّ والمهدويّة، ويبدأوا في إنشاء بحوث جديدة تربط بين مباني المهدويّة والمحصلات العلميّة الحديثة؛ لكي يسهموا في التمهيد لمقدمه الشريف الذي تدلّ المشيرات إلى أنه قريب منّا، وأقرب ممّا نتوقع بكثير!

---

(١) في كتابه العائدون إلى السماء، فصل: قبل غزو مصر أغرقتها السماء وأحرقتها.

لِمَ هذا البحث؟

أمّا لِمَ هذا البحث الآن، في هذا الوقت العسير من حياة الأمّة، فهناك ثلاث حقائق مختلف عليها دفعتني لكتابته، هي على التتالي:

* حقيقة تباين الرؤى الإسلاميّة لدور الدولة المهدويّة ومدّة عمرها.
* الخلاف في حقيقة وجوب ظهور دين الإسلام على الأديان كلّها فلا يبقى دين يعبد فيه الله سواه.
* حقيقة سعة الأكوان ووجود سكان مكلّفين بأداء العبادات فيها يوجب أن يشملهم الظهور، ومدى تأثير ذلك في عمر الدولة المهدويّة.

وتبعاً إلى هذه الحقائق نجد مثلاً أنّ المسلمين بعد خمسة عشر قرناً من عمر الإسلام المديد لم ينجحوا في اكتشاف نقطة التوازن بين معصوميّة النصّ وسلطة الولاء وسطوته؛ إذ كانوا وما زالوا يرجّحون هذه العصمة التي يعترفون بها جميعاً من دون استثناء لدعم الجانب الولائيّ الفئويّ على حساب الجانب العقائديّ الإسلاميّ العامّ. وقد يكونون معذورين في ذلك بسبب تداعيات المؤثرات السياسيّة والفكريّة، واختلاف المرجعيّات، وطرائق الاستدلال بما بين أيديهم من نصوص، هذه التداعيات التي زرعت نوعاً من الريبة والشكّ فيما بينهم أشخاصاً، وبينهم وبين النصوص ذاتها، حتى إنّ قيام كلّ طرف منهم بالتشكيك بمصداقيّة النصوص ورصانتها التي يرجحها، ويعوّل عليها الجانب الآخر، ممّا جعل علاقتهم سجاليّة، صراعيّة، متوترة، وصلت في بعض مراحلها إلى العداء السافر؛ ولاسيّما بعد ولادة الثقافات الفئويّة التي ابتعد بعضها عن أصول الثقافة الإسلاميّة كثيراً، وهي التي حاولت تسخير الثقافة الربّانيّة لتقوية جزئيّتها على حساب الجزئيّات الأخرى، بل وعلى حساب الكليّة الإسلاميّة ذاتها. فتحوّل رجالها إلى حافات حادّة تجرح من يتقرّب منها وتدميه، وتحوّل فكرها إلى خنجر مزروع في جنب الإسلام الواحد ينخسه ويقلق راحته.

وهكذا بدل الإفادة من تجربة القرون التراكميّة بتوظيف نتائجها لاستعمالها سلاحاً في وجه الأعداء، وقوّة في البناء، أسّسوا لفكر جديد على أمل أن ينتج لهم أدوات جارحة وقاتلة يستعملونها في صراعهم الفئويّ الضيّق، فعاد الإسلام غريباً كما جاء غريباً؛ ليكون هذا البعد والتنافر أحد مصاديق المهدويّة التي نختلف بشأنها.

المهدويّة أطروحة وفكراً وعقيدة واحدة من التجارب الغنيّة التي تبلورت مضامينها على مدى القرون، حتى إنّ النجاح في توظيفها توظيفاً سليماً كان سيتحوّل إلى أمضى سلاح يدعم الإسلام في مرحلة الصراع الفكريّ العالميّ المعاصر، ولكن الفِرق الإسلاميّة حوّلتها إلى أداة تستعملها في صراعها البينيّ ممّا أفقدها بعض التماسك نتيجة ادّعاء بعض المفكّرين مثلاً أنّ كلّ أحاديثها موضوعة أو ضعيفة[1]، وما إلى ذلك من الأقوال والادّعاءات الغريبة.

إنّ نجاحنا في عقلنة القطبيّة ضمن الموروث النصّيّ السليم، ونجاحنا بإيجاد نقطة التوازن يسهم حتماً في جمعنا على مشتركات لها مِساس كبير بحياتنا اليوميّة الحاليّة وبمستقبلنا الموعود الذي نأمُل أن نكون فيه قادة الأكوان كلّها، بدل أن نحكم على الأمور بازدواجيّة غريبة إلى تجويزنا لبعض من نحبّهم أن يمتلكوا قدرة الإتيان بالخوارق والمعجزات التي قد تتعارض والعقل والمنطق، وتبدو مغرقة بالعبثيّة والاعتباطيّة، في ذات الوقت الذي نرفض فيه الاعتراف بأنّ للمعصومين الذين شرّفهم الله على بقيّة خلقه قدرة الإتيان بمعجزات حتى وإن كانت مثلها أو دونها، مع أنّ الله تعالى أوكل للمعصومين مهمّات توازي مهمات الأنبياء كما سنلحظ ذلك ببعض الأمثلة التي وردت في بعض الكتب، وهي التي أوردتها في سياق البحث لا لتكذيب الآخر، لأنه ليس من الإنصاف والعدل أن أنكر فضائل رموز الآخرين، وإنما

(١) ينظر مقدّمة ابن خلدون للاطلاع على رأيه في تضعيف أحاديث المهدويّة كلّها.

جئت بها لأجعلها ميزاناً معياريّاً نتعرّف به تهافتَ الأحكام التي تحدّد علاقتنا فيما بيننا، عندما نكيل بمكيالين مختلفين كلّ أمورنا العقائديّة والحياتيّة.

الذي أؤمن به أنّ هنالك مؤامرة كبيرة جدّاً حيكت على الإسلام عامّة والمهدويّة خاصّة هدفها إضعاف الوشائج بين الأمّة وقائدها المنتظر[١] لكي لا تتحد الأمّة المسلمة على قضيّة ما، وتجمع على صحّتها، لأنّ أيّ إجماع على أمر من أمور العقيدة يفضي إلى أمرين:

الأوّل: التفرّغ للبحث في حيثيّات القضيّة، والبحث عن خفاياها وشرحها للناس؛ لكي يرتفع اعتقادهعم بها، بدل أن ينشغلوا بالبحث عمّا يوهن معتقد الآخر بها فيشغلهم في مسائل ثانويّة.

الثاني: توفير فرص لقاء أخرى ستقود حتماً إلى إجماع آخر، فتصبح المشتركات أكثر ممّا يختلفون بشأنه، ويشعر كلٌّ منهم أنه أقرب إلى الآخر ممّا كان يعتقد، وهذا ما لا ترضاه السياسة المحليّة والدوليّة، والماسونيّة العالميّة، وحتى المصالح المذهبيّة والفئويّة، وقد صُنعتْ هذه المؤامرة لتسهم في تشتيت الأمّة.

وللأسف هناك بين رجال الأمّة من وجد في فكر هذه المؤامرة دواعم ومساند لأطروحته الفكريّة والعقائديّة؛ فأخذ بما جاء فيها من دون التفات إلى مضارّها على الإسلام. بل إنه حينما وجد أنّ الآخرين من غير المسلمين كانوا أكثر عقلانيّة منه عندما اتفقوا على الكليّات وأرجأوا البحث في الجزئيّات كما بيّنا قبل قليل، حاول بكلّ ما أوتي من قوّة تسفيه هذا الاتفاق والسخرية منه والطعن فيه؛ لكي لا يقلدهم المسلمون في هذا النهج، وتجد هذا الأسلوب فاشياً عند العامّة والخاصّة من هؤلاء من دون استثناء، فالدكتور طه حامد الدليميّ مؤسّس موقع القادسيّة على شبكة النت، وصاحب المؤلفات الكثيرة

---

(١) لمعلومات أكثر عن هذه المؤامرة الكبيرة يراجع الفصل الثاني من كتابنا (نظريّة فارسيّة التشيّع) طبع دار العارف، بيروت.

التي تبيح قتل الآخر ولعنه، وقائد حملة التشهير بالمسلمين الشيعة، أورد في مقدّمة كتابه (المهديّ المنتظر هذه الخرافة) نبذة عن اختلاف الرؤى الانتظاريّة بين الفكرين المسيحيّ واليهوديّ، وكيف أنّهما اتفقا على كليّة انتظار عودة السيّد المسيح مع إرجاء البحث في تفاصيل جزئيّات الخلاف الأخرى. وهو برأيي اتفاق يدلّ على حكمة هؤلاء القوم ورغبتهم في لمّ الشمل، وجمع الكلمة؛ ولاسيّما أنّهم يتوقعون أن يكون القرن الحادي والعشرون هو قرن عودة السيّد المسيح عليه السلام. لكن الظاهر أنّ اتفاقهم هذا لم يعجبه؛ فقال: "والتقت العقيدتان اليهوديّة والنصرانيّة على أصل فكرة القادم المخلص عندهم.. وتركوا تحديد شخصيّته للزمن، وقالوا: يكفينا الآن الاتفاق على أصل المبدإ فلنعمل على تهيئة الظروف لمجيئه ونترك التفاصيل إلى حينها"[١] ثمّ أضاف إلى قوله هذا مجموعة جمل يتهجم بها على هؤلاء القوم بسبب اتفاقهم لم أستسغ نقلها. وقد تبيّن لي أنّ للرجل مساندَ استند إليها في قوله وفتواه، وأنّ أمر الاتفاق على الكليّات وإرجاء الحديث في الجزئيّات مرفوض في فكر بعض المذاهب الإسلاميّة حقّاً وصدقاً، ومنهيٌّ عنه في شِرعتهم، وتجد صحّة اعتقادي في سؤال وجواب فقهيّين، مفاد السؤال: "ماذا تقولون في قاعدة "نتعاون فيما اتفقنا فيه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه؟" والسؤال وُجّه إلى رجل الدين السعوديّ "الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن الغديان" الذي أجاب عنه بقوله: "هذه القاعدة من الوضع الجديد، يعني ما هي من القواعد العلميّة، من قواعد الأولين، لأنّ ذه ممكن يستخدمها اليهود والنصارى والمسلمون، يقولون حِنّا نتفق على وجود الله، خلّونا نتفق على وجود الله، وكلّ واحد له دينه، يعني أن حنا نعترف بالأديان الباطلة وهذا ليس صحيح"[٢].

الغريب أنّ كلّ المسلمين المتشدّدين يرفضون أيّ بادرة للتقارب على غرار

---

(١) المهديّ المنتظر هذه الخرافة، طه حامد الدليمي.
(٢) مركز الإفتاء السعودي.

القول التوافقيّ (يكفينا الاتفاق على أصل المبدإ) بين المجاميع الإسلاميّة، ولذلك يرفضون فكرة الاتفاق على أصل العقيدة المهدويّة، ويرفضون تأجيل الخوض في الفرعيّات والخصوصيّات المسبّبة للخلاف، ويرفضون الاعتراف بحقّ الآخر أن يؤمن بما موجود في نقوله، لأنّهم يدركون ـ كما قلت سابقاً ـ أنّ الاتفاق قد يقود الأمّة إلى اتفاقيّات واتفاقات جديدة لا تخدم المناهج الفئويّة الاكتسابيّة النفعيّة. ومن الأمثلة البسيطة على ذلك أنّ مفتي الديار المصريّة الشيخ عليّ جمعة أصدر فتوى أجاز فيها إقامة الاحتفال بمولد الإمام المهديّ في مصر؛ وقال: "إنّنا نجيز إقامة الاحتفالات بذكرى ميلاد المهديّ دون النظر إلي المحتوى، وأضاف: إنّ هناك اختلافاً في إقامة مراسم الاحتفالات وطبيعتها وهي التي يكون بعضها علي شكل احتفالات في المساجد لكن لا ينبغي أن تشمل الأمور التي نهى الله عنها" فامتعض الآخرون منه ومن فتواه؛ ومنهم كاتب وباحث في الفرق الإسلاميّة اسمُه محمّد حمدي الذي قال معترضاً: "نحن أمام شخصيّة وهميّة ليس لدينا معلومات مؤكدة عن تاريخ ميلاده، يوم ميلاده واسم أمّه، ومدّة غيبته، ووقت عودته، وغيرها من المسائل المطروحة".

إنّ التقارب الذي ندعو إليه يرفضه للأسف أخوتنا المسلمون المتشدّدون، ليس من جهلائهم فحسب؛ بل ومن علمائهم أيضاً فالدكتور الغزاوي الفلسطيني صالح الرقب سخر قلمه المنحاز للردّ على مفتي مصر؛ لأنه في مناسبات أخرى دعا إلى تنشيط الحوار الشيعيّ السنّيّ عسى أن يثمر عن تقارب يخدم الأمّة؛ فكتب في موقعه على شبكة الانترنيت[1] مقالاً بعنوان (الردّ على تحدّي مفتي مصر فضيلة الشيخ الدكتور عليّ جمعة) جاء فيه: "لقد ذهب مفتي مصر الشيخ الدكتور عليّ جمعة إلى تحدّى منتقديه بأنّه لا فرق بين المذهبين السنّيّ والشيعيّ، وللردّ على هذا التحدّي لفضيلة المفتي أذكر ما يلي: أولاً:

(١) موقع الدكتور صالح حسين الرقب، الرابط
http://www.drsregeb.com/?action=detail&nid=31

لماذا يا صاحب الفضيلة تصدر فتاويك حول الشيعة من قلب أماكن ومواطن مشبوهة؟!! فمفتي مصر يصدر فتواه الثانية من نادي (الليونز) وهو معروف بأنه ماسوني[١] حيث جاء في الخبر(قال في ندوة عقدها بنادي 'الليونز' بالقاهرة مساء الأحد١ ـ ٣ ـ ٢٠٠٩ إنّ الأزهر فتح قلبه في عام ١٩٤٩ لوحدة المذهبين، وتمّ تأسيس مجلة رسالة الإسلام التي حلت الكثير من المشاكل بين السنّة والشيعة، أعقبتها محاولات فرديّة في الاتجاه ذاته، لكن الأمر يحتاج إلى المزيد). وسبق أن أصدر فتواه الأولى التي أجاز فيها التعبّد على المذهب الشيعيّ، كما أبدى إعجابه بتطوّر الفقه الشيعيّ. من خلال قناة العربيّة' والمعروفة بانحيازها للتوجّهات الأمريكيّة والتغريبيّة وعدائها لكلّ إسلاميّ. ثانياً: إنّ كثيرين من أبناء المسلمين هم من المخدوعين المغرّر به ـ ممّن وقعوا ضحيّة التقيّة والجهل. ولديهم غفلة عن خطر هذه الفرقة على الدين الإسلاميّ، وما في عقيدتها من كفريّات، وبدع، وضلالات، وسقائم، وشنائع. كما أنَّ الشيعة الرافضة **هم من أخطر الفرق على الأمّة، وأشدّها فتنة وتضليلاً**، خصوصاً على الذين لم يقفوا على حقيقة أمرهم، وفساد معتقدهم.. والشيعة في هذا الزمان قد أحدثوا حيلاً جديدة لاصطياد من لا علم عنده من أهل السنّة بدينهم وعقائدهم، والتأثير عليه **بما أحدثوه من دعوة التقريب بين السنة والشيعة، والدعوة إلى تناسي الخلافات بين الطائفتين**. وما هذه الدعوة إلا ستار جديد للدعوة للرفض والتشيّع، **ونشر هذه العقيدة الفاسدة** بين صفوف أهل السنّة، وإلاَّ فالشيعة لا يقبلون النزول عن شيء من عقيدتهم".

وأنا لا أريد التوسّع في الردّ على هذا الرجل المتعصّب سوى بالقول: إنّ العالم المتمدّن كلّه يعرف عن يقين أنّ أيّ حوار سواء كان بين الحضارات أم الأديان أم المذاهب لا يبغي من الآخر تغيير عقائده، أو النزول عنها، فذلك لا يمكن أن يحدث، ولا يعقل أن يطلب منه ذلك، وإنّما كلّ المطلوب منه أن

---

(١) لا أدري كيف تجيز دولة إسلاميّة فيها هذا المتشدد ومن هم على شاكلته للحركات الماسونيّة أن تتخذ مراكز ونوادي فيها!.

يفهم الآخر، ويجيز له ما يجيزه لنفسه في الحياة، فأيّ عذر هذا الذي يتعذر به الرجل!؟

هؤلاء المتطرفون يقدّمون الأعذار الواهية في الوقت نفسه الذي يهينون فيه الأطروحة المهدويّة بأطاريحَ ما أنزل الله بها من سلطان من أجل الدفاع عن دكتاتوريّة الحكام التي باتت تتهدّدها الحركات الشعبيّة التي عرفت باسم (الربيع العربيّ) كما في الدعوة (المهدويّة) التي طرحها الداعية السلفيّ الأردنّيّ المدعو (ياسين العجّلوني) وهي التي يقول فيها: إنّ ملك الأردنّ، عبدالله الثاني، سيكون الخليفة الجديد لكلّ المسلمين، وإنّ الخلافة الإسلاميّة ستعود قريباً، وستكون خلافة هاشميّة، وسيتولى الخليفة المرتقب غزو الجزيرة العربيّة وبلاد فارس أوّلاً، وبعد ذلك سيحرّر فلسطين وبيت المقدس!

ولم يكتفِ بما صرّح به وإنّما دعا الأردنّيّين إلى مناصرة (الخليفة) الإسلاميّ الجديد بقوله: "أودّ أن يكون لكم شرف العودة إلى الخلافة الهاشميّة، فإنّ رسول الله ﷺ بشّركم أيّها الهاشميّون بثلاثة خلفاء صالحين منكم يملكون آخر الزمان!".

وكذلك دعاهم إلى مناصرة ابن الخليفة الذي لم يولد بعدُ، وهو الذي سيسمّيه أبوه عند ولادته محمّدا، مدّعياً أنّ (محمّد عبدالله الثاني) هذا الوليد المنتظر؛ وهو الذي لا يعرفون إن كان الملك سيرزق به أم لا، هو المهديّ المنتظر عندهم تبعاً للحديث المكذوب (اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي) بحسب تحليلات الداعية الدعيّ الفقهيّة وقراءاته للكتب السماويّة.

وعليه أعتقد أنّ الذين حاكوا خيوط المؤامرة الكبيرة هم على درجة عالية من الذكاء الشيطانيّ، وسعة اطلاع على منهجيّة المتشدّدين؛ ولذلك أوكلوا مهمّة تنفيذها لهم، أو لمن يدّعي الإسلام، أو يدلّ ظاهره على أنّه مسلم، ومدّوهم بعناصر الإنتاج ومقوّماته؛ بَدءاً من الشهادة العليا إلى الملاكات المساعدة المتخصّصة، وإلى الموارد الماليّة الضخمة، وإلى جهود دور

الطباعة والنشر والتوزيع، وحتى الترويج الدعائيّ للمنتج المرتقب في العالم كلّه؛ وليس في البلاد الإسلاميّة وحدها.

ولهذا صرنا نرى هناك من يخرج علينا بين فينة وأخرى بإحدى الأطروحات الجديدة أو القديمة المستهلكة البالية؛ وقد ألبسها ثوباً جديداً وحلة جديدة مستهدفاً وحدة المسلمين وتقاربهم، وشاغلاً إيّاهم بأمور ثانويّة تضيع أو تضعف جهدهم لكي يتشتت ويتبعثر. وقد أخذت هذه المواجهة المصطنعة بعناية فائقة سبيلين اثنين منذ بداية نشوئها وحتى اليوم:

الأوّل: جانب الأحاديث المهدويّة وعلامات الظهور، وتزعمه المفكر العربيّ المغاربيّ ابن خلدون أحد علماء القرن الثامن الهجريّ، الذي ذهب إلى إنكار صحّة كلّ الأحاديث المهدويّة، بما فيها تلك التي أوردها البخاري ومسلم. والغريب أنّ ابن خلدون لم يأتِ بهذا الرأي بناء على نتائج علميّة توصل إليها بالبحث والتقصّي الحقيقيّين، وإنّما جاء به لأنّه تأثر ببعض المتشدّدين الذين سبقوه، وجاء به لغايات سياسيّة بحت لا علاقة لها بالدين والعقيدة، لأنّه كما يقول الدكتور عبد الجبار العبيدي: "انتشرت [المهدويّة] حتى غدت شعاراً يرفعه كلّ الثائرين والخارجين على حكوماتهم التي يرونها باطلة... ولعلّ هذا هو الذي دفع ابن خلدون إلى رفض فكرة المهديّ على أنّها مخلب للحركات الثوريّة في الإسلام، لأنّ ابن خلدون كما هو معروف من دعاة الاستقرار وإطاعة أولي الأمر من ناحية، وكان يرى في الفكرة نزعة عصبيّة تستند إلى هاشم وقريش من ناحية أخرى"[(١)].

وقد وجدتْ هذه الدعوى من يروّج لها ويدعمها على مرّ التاريخ، قبل أن يبلورها ابن خلدون بطريقته المشهورة، وهنالك مؤلفات اشتهرت بين العامّة قبل أن يطرح ابن خلدون رأيه، مثل كتاب (الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير) لأبي عبدالله الحسين بن إبراهيم الجورقاني الهمداني المتوفى سنة

(١) مركز النور، الرابط http://www.alnoor.se/article.asp?id=124274.

٥٤٣ هجريّة[١] وكتاب (العلل المتناهية في الأحاديث الواهية)[٢] لأبي الفرج بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هجريّة.

ثمّ فشت دعوة ابن خلدون فيما بعد عند الكثير من المفكرين من أتباع مدرسة الخلفاء عامّة؛ فأخذ بها المعاصرون وأوردوها في مؤلفاتهم، كما في كتاب (المهديّ المنتظر في روايات أهل السنّة والشيعة الإماميّة، دراسات حديثيّة نقديّة) للدكتور عداب محمود الحمش الذي جاء فيه قوله: "لم يبلغ عندي درجة الحسن لذاته أيّ حديث من الأحاديث المصرّحة بالمهديّ"[٣] ثمّ أردف قوله: "إنّ الأحاديث التي خرّجها أصحاب الصحاح ليس فيها تصريح بذكر المهديّ، فلو كانت هذه المسألة في دائرة الاعتقاد وكانت الأحاديث الصريحة الواردة فيها تبلغ درجة (الحسن لذاته) لرأينا جميع ما يبلغ هذه الدرجة منها في الصحيحين لقلتها، لأنّ البخاري ومسلماً يخرّجان من أحاديث هذه الدرجة القدر اللازم منها في الأبواب التي لا تتوفر فيها الأحاديث الصحيحة ويحتاج إليها في العلم والدين، وهذا يعرفه من له أدنى معرفة بنقد الحديث التطبيقيّ لأحاديث الصحيحين. ولا أدلّ على عدم بلوغ أيّ حديث منها درجة (الحسن) من تبويب الحافظ ابن حبّان أكثر من باب في صحيحه بلفظ المهديّ، ثمّ لم يخرّج حديثاً واحداً يصرّح بذلك! وسائرعلماء الحديث يقولون بأنّ (الحسن) من شرط ابن حبّان في صحيحه، بل ما أكثر الأحاديث التي لا تبلغ درجة الحسن عنده في نظر الجميع"[٤] وختم قوله برأي صرّح به بموقفه الواضح من المهدويّة وأحاديثها، جاء فيه: "الكتب التي أخرجت أحاديث ورد فيها اسم المهديّ أو لقبه لم يشترط أصحابها

---

(١) الأباطيل والمناكير، الجورقاني.
(٢) العلل المتناهيّة، ابن الجوزي.
(٣) المهديّ المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإماميّة،دراسات حديثيّة نقديّة، الدكتور عداب الحمش، ص١٢.
(٤) المصدر نفسه، الدكتور الحمش.

الصحّة في مصنفاتهم، فورودها فيها لا يعني بالضرورة أنها صحيحة عند مصنفيها ولا يعني أنها صحيحة في الأمر نفسه، ولم يرد عن واحد من هؤلاء العلماء أنه صحّح حديثاً فيه ذكر للمهديّ"[١].

الثاني: جانب العقيدة المهدويّة، وتزعّمه ابن تيميّة وتلميذه ابن قيم الجوزيّة، ويذهب ابن تيميّة إلى إنكار عقيدة المهدويّة الشيعيّة بكلّ فرعيّاتها، وينكر وجود مهديّ منتظر، ويؤمن بعموميّات عن مصلح يخرج في آخر الزمان لا يختلف كثيراً عن المصلحين الآخرين، حيث جاء عنه في كتابه المشهور (منهاج السنّة النبويّة) مجموعة أقوال منها: "ومن المعلوم أنّه [أي: المهديّ] لو كان موجوداً وقد أمره الله بالخروج فإنه يخرج "[٢].

ومثل ما كانت عليه الحالة الأولى، كان لهذه الحالة دعاة ومروّجون قبل ابن تيميّة ولكنّ ابن تيميّة حاز كابن خلدون على قصب السبق في هذا المجال فانتشر رأيه أكثر من كلّ الآراء. وأدّى هذا الرأي الغريب المتطرّف إلى نشوء مدرسة تقوم مبانيها على إنكار صحّة العقيدة المهدويّة عند بعض المسلمين، والادّعاء بأنّها من مخلفات عقائد اليهود والنصارى التي دخلت إلى الإسلام عنوة مع ما دخله من الإسرائيليّات. وهنا جاءت بعد ابن تيميّة بعض المؤلفات التي لاكت أقواله وكرّرتها وكأنها قرآن منزل، وهي كثيرة منها على سبيل المثال كتاب (العقود الياقوتيّة في جيد الأسئلة الكويتيّة) للشيخ عبد القادر بن أحمد الدمشقيّ الروميّ المعروف بابن بدران الحنبليّ المتوفى سنة **١٣٤٦** هجريّة، وممّا جاء فيه قوله: "أمّا ذكر المهديّ في كتب العقائد وإلزام الناس بالإيمان بخروجه؛ فلم نرَ أحداً قال به من العلماء المحققين لا من أصحابنا [يعني الحنابلة] ولا من غيرهم..... إننا راجعنا كثيراً من كتب عقائد أهل السنّة والجماعة من المتقدّمين والمتوسطين والمتأخرين فلم نجد أحداً منهم ذكر أنه

---

(١) الدكتور الحمش، ص٢٢١.

(٢) منهاج السنة النبويّة، أحمد عبد الحليم بن تيميّة، الجزء ١، ص٤٦.

يجب الاعتقاد بخروج المهديّ. **ومن ذكره منهم فإنّما يذكره استطراداً في الكلام على أشراط الساعة.** وهذه عيون كتب الأشاعرة والماتريديّة كـ(المواقف) وشرحها و(المقاصد) وشرحها و(شرح السنوسيّة) و(الجوهرة) وغير ذلك ممّا هو معروف ومتداول بالأيدي" والرجل يتعلل بعلل ابن خلدون نفسها؛ فهو يقول بداية أنه راجع كتب المتقدّمين والمتأخّرين فلم يجد أحداً ذكر الاعتقاد بالمهديّ، ولكنّه خالف نفسه واعترف بأنّ هناك بينهم من ذكره، ولكنّه إيغالاً بالحقد علل ذكرهم بأنّه استطراد في الكلام عن أشراط الساعة! فأيّ تلوّن هذا بربّكم!

ومنها أيضاً كتاب (تحقيقات وأنظار في القرآن والسنة) للشيخ محمّد الطاهر بن عاشور التونسيّ المتوفى سنة **١٣٧٩** هجريّة، الذي جاء فيه عن عقيدة المهدويّة قوله: "إنّه [أي: المهديّ] ليس ممّا يتعيّن على المسلمين العلم به واعتقاده". وجاء فيه عن أحاديث المهدويّة قوله: "**إنّ أحاديث المهديّ كلّها لم تستوفِ شروط الحديث الصحيح ولا شروط الحديث الحسن**.... وخلاصة القول فيها من جهة النظر أنّها مستبعدة مسترابة وأننا لو سلمنا جدلاً بارتفاعها عن رتبة الضعف فإننا لا نستثمر منها عقيدة لازمة" والرجل في جملته الأخيرة يتبع نهج صاحبيه كليّاً!

ومنها كتاب (الشيعة ـ المهديّ ـ الدروز، تأريخ ووثائق) للدكتور عبد المنعم النمر. سلسلة كتاب الحرّيّة (١٥) وضعه كاتبه المصريّ الأزهريّ بعد أن عاش ردحاً طويلاً من عمره في الكويت، وتأثر بالفكر السلفيّ؛ فنسي الوسطيّة والاعتدال، وفيه تضعيف لكلّ الأحاديث المهدويّة.

ومنها أيضاً كتاب (لا مهديّ يُنتَظر بعد الرسول محمّد خير البشر) للشيخ عبدالله بن زيد آل محمود، علامة قطر وقاضي قضاتها كما يسمّيه القرضاوي، وهو الذي يقول فيه: "إنّ **فكرة المهديّ والفتنة به** أصبحت تتكرّر في كلّ زمان ومكان... **فيظنّ الهمج السذج الذين هم أتباع كلّ ناعق ويميلون مع كلّ صائح** أنّه أملهم المنشود وبغيتهم.... **فبعد خروج الخلافة من أهل البيت** تصدّى

أقوام من المتحمّسين لهم **فعملوا عملهم في صناعة الأحاديث**، يروونها عن رسول الله ﷺ وأحكموا أسانيدها عن أكثر الموتى وأخرجوها بطرق مختلفة، **فصدّق بها بعض علماء الإسلام، وضعفة العلوم والأفهام** وصار لها الأثر السيّئ **في تضليل عقول الناس، وإفساد عقائدهم وخضوعهم للخرافات والأوهام.... والحاصل أنه يجب طرح فكرة المهديّ، وعدم اعتقاد صحّته، وهذا الجهل هو الذي أدّى بأهله إلى وضع خمسين حديثاً في المهديّ عند أهل السنّة**، وإلى وضع ألف ومئتي حديث عند الشيعة، **وإنّ هذه الأحاديث المختلفة هي التي أفسدت العقول وجعلتهم يتبعون الملاحدة والمفسدين من دعاة المهديّ. إنّهم لو رجعوا إلى التحقيق المعتبر لأحاديث المهديّ المنتظر**، وفكروا في الأحاديث التي يزعمونها صحيحة ومتواترة، وقابلوا بعضها ببعض، **لظهر لهم بطريق اليقين أنها ليست** بصحيحة **ولا صريحة ولا متواترة لا باللفظ ولا بالمعنى**. ومن يتمعّن في أقوال هذا الرجل يجده مقلداً لسابقيه تقليداً مطلقاً ولكنّه استعاض عن أقواله المكشوفة بقول أكثر جهلاً ممّا سبقه، حيث نراه في محاولته الغبيّة يطعن صراحة بجميع أتباعهم، يطعن بعلمائهم بقوله: (فصدّقهم بعض علماء الإسلام) ولا أدري كيف يصدّق العالم بأقوال من يسمّيهم (المفسدين والملاحدة) ويطعن كذلك بعامّتهم بقوله: (وضعفة العلوم والأفهام) ولا أدري كيف لا يأخذ قليل العلم وضعيف الفهم فتاواه من مشايخه ويأخذها ممّن يختلف معه!

وكتاب (المهديّ والمهدويّة) لأحمد أمين الكاتب المصريّ المعروف صاحب المنار، تناول فيه فكرة المهديّ والمهدويّة، حيث ناقش هذه الفكرة وعرّفها وتناول تطوّرها عند الفاطميّين والموحّدين والقرامطة والحشاشين وثورة البساسيري والبابيّة وغيرها، وتناول كثيراً من الأحداث المتعلقة بفكرة المهدويّة، ثمّ ضعّف جميع أحاديث المهديّ. وهو من الكتب القليلة التي ردّ عليها علماؤنا وفندوا ما جاء فيها، ومن الذين تصدّوا لها المرحوم الشيخ محمّد أمين زين الدين في كتابه (مع الدكتور أحمد أمين في المهديّ

والمهدويّة) والمرحوم الشيخ محمّد عليّ الزهيريّ في كتابه (المهديّ وأحمد أمين) ومع ذلك أعادت دار الكتب العلميّة للنشر والتوزيع طبع كتابه في عام **٢٠٠٩** تماهياً مع الرفض الفاشي لفكر الأطروحة المهدويّة.

وآخر ما قرأته من نتاج هذا الفكر الرافض مقالاً لكاتبة معروفة قالت في معرض حديثها عن الطائفة العلويّة: "وقديماً كان يطلق على العلويّين اسم النصيريّة نسبة إلى محمّد بن نصير (عاش حوالي **٨٥٠** ميلاديّة) الذي يعود إليه فضل وضع أسس هذا المذهب في بغداد بوصفها طائفة انفصلت عن الشيعة. وقد عاصر ثلاثة من أئمّة الشيعة، هم عبد الهادي [تقصد الإمام عليّ الهادي] والحسن العسكريّ، **والإمام الموهوم**"[1]. وهي تقصد هنا الإمام المهديّ المنتظر عجّل الله فرجه، حيث ترى أنه مجرّد وهم لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة!

فقد أنتج هذا التماهي اللاعقلائيّ، واللامسؤول، والبعيد عن الحرص سلسلة طويلة من المؤلفات الغريبة التي اجتهد مؤلفوها وكتابها لإلغاء هذه العقيدة الإسلاميّة الصحيحة من الفكر الإسلاميّ، وتحويلها إلى مجرّد قصّة خرافيّة مصطنعة أو دسيسة مبتدعة، ثمّ الرضوخ إلى نظريّة المؤامرة بالادّعاء بأنّها قد دسّها في الفكر الإسلاميّ اليهود والنصارى. وقد جاهد هؤلاء الكتاب لتقوية هذا الرأي وتعضيده بكلّ الوسائل المتاحة حتى وإن كان فيها طعن بمعتقداتهم، وتكذيب لسابق أقوالهم حتى إنّ بعضهم ضعّف أحاديث المهدويّة الواردة في صحيحي البخاري ومسلم اللذين يقولون عنهما: "إنّهما أصحّ كتابين بعد كتاب الله" حيث نجد للبخاريّ قولاً ادّعى فيه أنّه لم يورد في كتابه إلاّ الصحيح، وأنّه ترك الكثير من الأحاديث الصحيحة نتيجة الحرص الشديد؛ لأنها لم تلقَ قبوله وترضِ تطلعه، ولكنّ المهتمّين بشأن الأحاديث المهدويّة من أصحاب الكتب الغريبة أوردوا له رأياً يضعف فيه حديثي محمّد بن الحنفيّة عن أبيه: "المهديّ من أهل البيت يصلحه الله في ليلة" وحديث سعيد بن

---

(١) الكاتبة رندة حيدر، جريدة النهار، الأحد ٦ت٢/ ٢٠١١ العدد ٢٤٥٥٩.

المسيّب عن أمّ المؤمنين أمّ سلمة: "سمعت النبيّ ﷺ يذكر المهديّ؛ فقال: نعم هو حقّ، وهو من بني فاطمة" حيث نسب إليه قوله عن كلّ من هذين الحديثين: "في إسناده نظر"[١] ولكنّه لم يفصح عن هذا (النظر) الذي يدّعيه زوراً.

ومن هؤلاء الكتاب أيضاً الصحفيّ الباكستانيّ إحسان إلهي ظهير رئيس تحرير إحدى الصحف الدينيّة السلفيّة الباكستانيّة في كتابه (الشيعة وأهل البيت) وهو واحد من سلسلة كتب أصدرها هذا الصحفيّ تقدح كلّها بالفكر الشيعيّ عامّة؛ والمهدويّة خاصّة؛ إذ قال عن علماء الشيعة الذين أوردوا رواياتٍ وأحاديثَ عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام في المهديّ: "كما أنّهم حكوا روايات كثيرة **باطلة ونسبوها** إلى أئمّتهم"[٢] ثمّ ساق رواية من الإرشاد ومن روضة الواعظين. وظهير هذا يعارض في نهجه المتشدّد أغلب علماء مدرسة الخلفاء الذين أقرّوا بوجود المهدويّة في الفكر الإسلاميّ بما فيهم من قال إنّ مهديّهم هو غير مهديّ الرافضة الذي يسمّونه (الخرافة) وتبع من يدّعي أنّ لا مهديّ إلاّ عيسى!

وقد قلده في اتباع هذا الأسلوب المتطرّف الغريب كاتب عراقيّ يعيش في السعوديّة، وتخرّج في مدارسها الفقهيّة، هو طبيب التخديرالدكتور طه حامد الدليميّ، وله كتاب اسمُهُ (المهديّ المنتظر هذه الخرافة) ورد فيه قوله: "يتعلق الإماميّة الاثنا عشريّة بقشة مفادها أنّ أهل السنّة يعتقدون بـ(المهديّ). فعلامَ الإنكار عليهم إذا كان الجميع يشتركون في عقيدة متماثلة؟ **وهذه مغالطة واضحة لأسباب** كثيرة؛ منها:

١ ـ إنّ مهديّ أهل السنّة غير (المهديّ) الذي يعتقد به الاثنا عشريّة.

---

(١) المهديّ المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإماميّة، د. عداب محمود الحمش، الصفحات ٣٠٦ و٣٤٩.

(٢) الشيعة وأهل البيت، إحسان إلهي ظهير، ١١١.

٢ ـ لا يعتقد أهل السنّة أنّ الإيمان بهذا (المهديّ) ركن من أركان الإسلام، أو أصل من أصول الدين لا يصحّ الإيمان إلا به. **ولم يكفروا أحداً على أساسه**، ولم يبنوا عليه أيّ حكم من الأحكام الشرعيّة، أو يعطلوه. **بل هو عندهم من فرعيّات الاعتقاد** التي لا يضرّ فيها الاختلاف، وإنكاره لا يقدح في الإيمان.

٣ ـ إنّ أهل السنة غير مجمعين على هذه العقيدة. فمنهم من يثبتها بناء على صحة الأحاديث التي وردت بشأنها. ومنهم من ينكره لاعتقاده بضعف أحاديثها.

٤ ـ من اعتقد بمجيء (المهديّ) من أهل السنّة، فإنّما اعتقد به طبقاً إلى روايات صحّت عنده. وليس طبقاً إلى النظر العقليّ.

٥ ـ القول بأنّ شخصاً ما يملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً، إذا كان المقصود بالأرض كلّ الأرض ـ ولا سيّما كما يتصوّر عامّة الشيعة أنّ ذلك سيحدث بلمسة ساحر. وأنّ الأمور كلّها ستتغيّر وتصفو تماماً، ما إن يجيء، وينشدون في ذلك قولهم: (اطلع يا المهديّ وصفيها) ـ هذا القول من أسخف الأقوال المخالفة للمنقول، والمباينة للمعقول؛ فإنّ رسول الله نفسه لم يتمكن من القيام بهذا الدور الخياليّ! ولا أحد من الأنبياء عليهم السلام. ولا الصحابة الكرام. ولا عليّ بن أبي طالب الذي هو أفضل من (المهديّ) المزعوم! بل كان مغلوباً على أمره لم يتمكن من بسط العدل المطلوب في عاصمة خلافته؛ ؛ فضلاً عن غيرها. ما معنى أن يعطى هذا الدور العظيم، والفضل الكبير لشخص ما، ولا يعطى لرسول الله الذي هو أفضل العالمين، وخاتم الأنبياء والمرسلين أجمعين؟

٦ ـ ثمّ إنّه يستحيل عقلاً على شخص واحد أن يملأ الأرض عدلاً بعد أن تمتلئ جوراً! ولاسيّما بعد أن كثر سكان الأرض فصاروا بالمليارات. وعندهم من الإمكانيّات الهائلة، والأسلحة الفتاكة المدمّرة، والقدرة على الفتك والمقاومة. اللهمّ إلاّ على افتراض أن تفنى البشريّة فلا يبقى منها سوى قرية

صغيرة واحدة يحكمها هذا (المهديّ). وعند ذلك يمكن لشيخ قبيلة بإمكانيّات بسيطة أن يبسط العدل المطلوب في تلك القرية، فلا حاجة لوجود سوبرمانات أو طرزانات بشريّة.

إنّ البشر لا يمكن أن تتغيّر طبيعتهم بالطفرة فيحدث الإصلاح بهذه السرعة السحريّة. بل ذلك مخالف لسنّة الله في خلقه القائمة على التدرّج والترقي شيئاً فشيئاً. فالانتقال من غاية الظلم والفساد إلى غاية العدل والرحمة ـ وفي جيل واحد ـ مستحيل. وإلاّ لحدث ذلك لموسى مع بني إسرائيل، ولم يحتاجوا لأن يتيهوا في الأرض أربعين سنة! وليس من مقصود الله جلّ وعلا أن يختفي الظلم تماماً من الأرض بل ذلك شيء أرجأه إلى الحياة الأخرى التي يقول فيها: ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾ (غافر: ١٧) حين يتجلى عدل الله كما هو. **ثمّ ما معنى أن يختفي الظلم من الأرض بضع سنوات معدودات وقد مرّ عليها آلاف السنين وهي ترزح تحت وطأته؟ هل يستحقّ هذا كلّ هذا الاهتمام والوعود والبشارات؟! وما الذي تستفيده منه آلاف الأجيال التي ماتت وهي تعاني من الظلم والاضطهاد؟!**"[1].

وأرجو لحاظ أنّ المؤلف وضع اسم المهديّ بين قوسين في النصّين المذكورين آنفاً، وفي كلّ المواضع الأخرى التي ورد فيها الاسم المقدّس في كتابه للتنكير والتصغير وعدم الاعتراف، وليس للتخصيص والتوضيح. ثمّ إني أعتقد ـ والله أعلم ـ أنّه استقى اسم مؤلفه من كتاب للقسّ الإيطالي (لويجي كاتشيولي) عنوانه (خرافة المسيح)؛ يتناول موضوع إيمان النصارى بحقيقة السيّد المسيح ولاسيّما أنّ كتاب الدليمي جاء بالأسلوب التهكميّ نفسه الذي سار عليه القس. وأرى أنّ هذا لا يدخل في باب التناصّ قطُّ؛ وإنّما يدخل في باب الاقتباس التدليسيّ أو السرقة الأدبيّة. وسوف نتوسّع في بحث أقواله في مكان آخر من البحث لأهمّيّتها.

---

(١) المهديّ المنتظر هذه الخرافة، د. طه الدليمي، الصفحات ١٤ و٢٥.

وهناك كاتب آخر اسمه "ربيع بن هادي بن عمير المدخلي" له كتاب(المهديّ بين أهل السنّة والروافض) يقول فيه: "إنّها والله **لخرافات** قائمة على **خرافات ودجل** يعيش عليه ملايين البشر باسم الإسلام، وباسم أهل البيت، وباسم المهديّ **الذي لم يوجد!**"

وكاتب آخر اسمه "ناصر عبد الرحمن أمين" له كتاب (إسراء مع الإمام الثاني عشر) تناول فيه كتاب الكافي للكليني بالدرس والتمحيص لإثبات بطلان الأحاديث المهدويّة التي أوردها الكليني في مؤلفه للعمل بذلك على إبطال العقيدة المهدويّة وتوهين أحاديثها.

عقليّاً وعلميّاً وأدبيّاً يفترض بهذه المؤلفات التي يعود بعضها إلى شخصيّات يحمل بعضهم درجات علميّة رفيعة، ويتبوّأ آخرون مناصب إداريّة عالية أن تكون بمستوى المسؤوليّة الأخلاقيّة، وأن تتخلى عن أسلوب المهاترات أوّلاً، والشتم القاذع والتحريف الممجوج ثانياً، والكذب المفضوح والتدليس البائس ثالثاً، وأن ترقى إلى مستوى الدرجات العلميّة التي يحملونها، وأن تتحوّل من كتابات ساذجة سطحيّة تقليديّة جامدة على ما جاء به الأوائل الذين وضعوا نظريّاتهم الدينيّة بوحي من المؤثرات السياسيّة إلى مصافّ كتابات الدراسات والبحوث الأكاديميّة العلميّة الرصينة، هذا إذا ما كانت الغاية من كتابتها نيل رضا الله تعالى، ولمّ شمل الأمّة، والحفاظ على عقائد الإسلام، والحرص على المسلمين، وتقديم النصح لهم كما ادّعى مؤلفوها في مقدّماتهم الرنّانة لها.

والمفروض بل من الإنصاف أن يسأل هؤلاء الكتاب أنفسهم هذا السؤال البسيط: إذا ما كنت أجيز لنفسي أخذ آراء ابن خلدون، وابن تيميّة، وأبي حنيفة، والشافعيّ، ومالك، وأحمد بن حنبل، والأشعريّ، والأوزاعيّ، وأبي يعلى؛ وكلّ أئمّة الفقه والحديث المشهورين، وأتعبّد بما جاءوا به، وأقدّسه، وأبني عليه استنتاجاتي النقليّة والعقليّة كافة، أليس من الإنصاف والعدل وحرّيّة الرأي أن أجيز لمن يأخذ عقيدته عن النبيّ الأكرم وعليّ بن أبي طالب

والحسن والحسين والتسعة المعصومين من ذرّيّة الحسين (صلوات الله عليهم أجمعين) أن يتعبّد بنصوصهم، ويبني استنتاجاته على ما أخذه عنهم؛ وهو الشيء الذي أجزته لنفسي، أم أنّ ما هو حلال عليَّ حرام على غيري؟

أليس من العدل والإنصاف أن أجيز لغيري ما أجيزه لنفسي؟ أم أن أنهى عن خلق وآتي بمثله؛ جائز عقلاً وسلوكاً وشرعاً في عقيدتي؟ وأيّ عقيدة تلك التي تؤمن بهذا التمايز الجائر غير العقلانيّ؟

أليس من روح الإسلام أن نعترف بفكر المسلم الآخر، ونتجنّب الإساءة إليه، أم نكتفي بترديد ما قاله ابن تيميّة عن علماء الشيعة المشهود لهم بالأعلميّة والإنصاف والعدل، والمعروف عنهم إلمامهم بعلوم القرآن والحديث والفلك واللغة والمنطق والاستدلال والكثير من العلوم الأخرى: "فإنّ الرافضة في الأصل **ليسوا أهل علم** وخبرة بطريق النظر والمناظرة ومعرفة الأدلة وما يدخل فيها من المنع والمعارضة، كما أنهم **من أجهل الناس** بالمنقولات والأحاديث والآثار"[1].

ممّا سبق يتبيّن أنّ أشدّ المعارضين والمعترضين على أحاديث المهدويّة هم من السلفيّين الوهابيّين من أتباع أحمد بن حنبل، فهؤلاء يدّعون أنّ جميع أحاديث المهديّ مرسلة أو ضعيفة في الوقت الذي يقيمون وينشئون فيه أسس فتواهم كلّها العباديّة والمعاملاتيّة، على (القياس) والأحاديث التي ثبت أنها (مرسلة) أو (ضعيفة)؛ فالأصول الخمسة التي يعتمدها الإمام أحمد بن حنبل إمام المذهب الحنبليّ ومؤسّسه في فتواه، وباعتراف المتخصّصين منهم، هي كما يقولون:

١ ـ الفتوى بموجب النصوص الشرعيّة.

٢ ـ **الأخذ بفتوى الصحابيّ**، إن لم يجد من يخالفه.

٣ ـ إذا وجد من يخالفه، **أخذ بأقرب الفتاوى للكتاب والسنّة.**

---

(١) منهاج السنة، ابن تيميّة، الجزء ١، ص٥٨.

٤ ـ إذا لم يجد لهم فتوى، **أخذ بالحديث المرسل والضعيف.**

٥ ـ إذا لم يجد شيئاً ممّا تقدّم، **انتقل إلى القياس**[١].

من هنا، ومن هذه الحافات الجارحة الصعبة، والإنكار القاسي، تأتي المجازفة التي تخلقها الجرأة للكتابة في أمر عظيم على مستوى الواقع، ومستوى العلوم المتداولة، ومستوى الصراع الدائر بين المسلمين وحقيقته. وهي على كلّ حال مجازفة من سنخ تلك المجازفات التي مارسها آباؤنا من قبلُ عند تصدّيهم لكلّ الأفكار الهدّامة التي حاولت أن تتسلل إلى عمق الإسلام الواحد لتوهن قدرته على التصدّي في معركة حاسمة مفروضة عليه يعيش اليوم أكبر تداعياتها، ويجابه أكبر مخاطرها، ولا يملك فيها سوى خيار التصدّي إذا ما أراد البقاء والديمومة.

أمّا آليّة البحث فسوف نحاول بها الإجابة عن بعض الأسئلة لاستنتاج صحّة العقيدة المهدويّة في الفكرين الإسلاميّ الجمعيّ والشيعيّ الخاصّ، وطول عمر دولة الإمام المهديّ، وظهور دين الإسلام على أديان الأرض وغزو الأكوان الأخرى، وهذه الأسئلة؛ هي:

هل هناك من يعتقد بفكرة كونيّة الحكومة المهدويّة ويؤمن بها؟

ما مراحل تطوّر هذه الفكرة؟

ما أسس الاستدلال على امتداد الحكومة المهدويّة إلى الأكوان الخارجيّة؟

ما الحاجة إلى هذا الامتداد الكونيّ؟

هل في الأكون الخارجيّة سكان، وهل هم مكلفون عباديّاً؟

ما علاقة الامتداد الكونيّ بعمر الدولة المهدويّة؟

---

(١) ينظر: أهمّ كتب الأحكام المطبوعة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، إعداد محمّد بْنِ عَليٍّ البيشِيْ، قاضي تحقيق بهيئة التحقيق والادعاء والعضو بالجمعيّة الفقهيّة السعوديّة بالرياض عن بدائع الفوائد لابن القيم الجوزيّة (٤/ ٨٣٥) طبعة مكتبة نزار الباز.

وأمّا هدفي من وضع هذا الكتاب فهو طلب الرحمة من الله تعالى بالانتصار للمهدويّة ورجالها المنتظرين، وأملي أن يكون هذا العمل يوم الدين في ميزان حسناتي.

خطة البحث

قسمت البحث إلى جزئين، يتكوّن كلٌّ منها من فصول عدّة. حاولت بالجزء الأوّل إثبات صحّة نظريّتي في الكونيّة بمحاولة إثبات صحّة النظريّات والفرضيّات المطروحة وصولاً إلى الجانب الإعجازيّ في حياة الإمام المهديّ المنتظر، وعلاقة ذلك بالكونيّة. أمّا الجزء الثاني فخصّصته للحديث عن الأكوان وسكانها وأديانهم، ودور عبادتهم وأنبيائهم. وقد تناولت في القسم الأخير من الكتاب علاقة نظريّة كونيّة الحكومة المهدويّة بعمر دولة الاستخلاف الإلهيّ الأخير لأثبت أنّ العلاقة بينهما طرديّة، حيث يمتدّ عمر الدولة المهدويّة مع امتداد الأكوان وسعتها، ولأصل بذلك إلى نتيجة مفادها أنّنا قد نكون الآن في عصر الظهور، وقد يكون ظهور الإمام المهديّ المنتظر أقرب إلينا ممّا نعتقد بكثير.

وآخر ما أريد التنويه عنه أنّه لابدّ من أن تكون هناك مجاميع كبيرة ومن المستويات كافة ترفض الخوض في مثل هذه المواضيع الحسّاسة بحجّة أنّ علماء الماضي تغاضوا عنها لعدم جدّيّتها، وأضع بين أيدي هؤلاء الفضلاء رؤية العالِم الروحيّ والمتخصّص بعلوم الماكروبيوتيك (ميتشيو كوتشي) الذي يقول: "كعالم في هذا المجال، يجب أن أكون متنبّهاً لدروس الماضي. كما وسبق أن تمّ التغاضي في الماضي عن بعض الأمور العلميّة المهمّة، لأنّها ببساطة لم تنل قبول بعض العلماء الذين لا يتداولون إلا بالنظرة الحديثة للأمور العلميّة"[1] فليس شرطاً أن يكون ما لم ينل قبول الأقدمين مخطوءاً أو غير حقيقيّ بنظر المعاصرين.

---

(١) زيارات من العالم الخارجي، موقع بيت الصياد
http://www.baytalsayyad.com/Article-2-263.html

الباب الأوّل

رؤًى واستدلالات
ومصاديق وإعجاز

الفصل الأوّل

مراحل تطوّر الرؤى الكونيّة في فكر العلماء

مقدّمة

البحث الذي بين أيديكم عبارة عن مجموعة استنتاجات واستدلالات واستقراءات مستخلصة من عدد كبير من الآيات القرآنيّة، والأحاديث النبويّة الشريفة، وأحاديث أهل البيت الكرام (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، وبعض معطيات العلوم الحديثة. أمّا موضوعه فجديد ومبتكر، لم يسبق ـ بحسب علمي ـ أن بُحِثَ من قبلُ أو نُوقشَ بعمق بمعناه الحقيقيّ وليس المجازيّ، ولاسيّما أنّ البحوث السابقة والحاليّة التي ناقشت المهامّ الموكولة إلى الدولة المهدويّة كان حِراكها الفكريّ ولا يزال محصوراً في محورين اثنين لم يتعدّهما ألبتة؛ وهما:

* **إسلاميّة الأطروحة**: على أساس أنّ الفكرة في أصلها الإسلاميّ لا الأمميّ كانت إسلاميّة المنشأ.

* **عالميّة الأطروحة**: على أساس أنّ العالم الأرضيّ كلّه مقصود بها وسوف يتعامل مع محاورها العملياتيّة والفكريّة.

أمّا كونيّتها؛ أي: امتداد أثرها وتأثيرها وسلطتها وأحكامها وقوانينها وأعرافها وفلسفتها إلى الأكوان الأخرى خارج العالم الأرضيّ المعروف، وأبعد من الكرة الأرضيّة، فلم تلتفت الدراسات إليه من قبلُ، ومن هنا جاء اعتقادي ليس بحقيقة هذه الكونيّة فحسب؛ وإنّما بوجوب البحث في هذه الحقيقة؛ لأنّها محاولة تستحقّ الاهتمام والمتابعة الجدّيّين من لدن الباحثين والمتخصّصين في الشأن الإسلاميّ عامّة والشأن المهدويّ بالذات لما تتكشف عنه نتائج المتابعة من علاقة بعمر الدولة المهدويّة من جهة، وبفرحة وسرور

أن يكون الفكر الإسلاميّ هو الفكر المرشح لقيادة الكون في المستقبل القريب من جهة أخرى، بعد أن يئس المسلمون وقنعوا بحياة التبعيّة للآخر.

والذي شجّعني على السير في هذا الدرب الشاقّ أني وبالبحث في فكر الأطروحة المهدويّة ونقولها في المدرستين الإسلاميّتين تأكدتْ، ورسخت لديّ قناعة؛ مفادها: أنّ نضوج الثقافة المهدويّة وما رافقه من فهم للمهامّ المهدويّة وحدودها قد مرّ بمرحلتين اثنتين وبقي محصوراً في أجوائها، ولم يفارقها للانتقال إلى المرحة النهائيّة منذ عصر الحكم العربي للعالم الإسلاميّ في سنة ٤١ هجريّة وإلى الآن، وهما:

١ ـ **المرحلة الشيعيّة/ الإسلاميّة**: التي كان الشيعة فيها يحلمون بأنّ الغائب المنتظر (عج) سوف يأتي لإنقاذهم من الظلم والجور الذي يتعرّضون له باستمرار من لدن الحكام الدنيويّين وأتباعهم من أبناء الأمّة المسلمة، ثمّ امتدت هذه المرحلة وتوسعت آفاقها ولاسيّما في عصور الاحتلالات الأجنبيّة للعالم الإسلاميّ؛ لتصبح إسلاميّة شاملة يحلم ويأمل بها المسلمون بأجمعهم كلٌّ بحسب معتقده ـ إلا من خالف منهم ـ أنه (عج) سوف يأتي لإنقاذ المسلمين كلهم وتخليصهم من ظلم المستعمر الأجنبيّ. أي: إنّ الشيعة أوّلاً ثمّ المسلمين عامّة حازوا نتائج فعال المنتظر ودولته المرتقبة إلى الجانب الإسلاميّ من دون بقيّة العالم، وعليه انحصرت الدراسات والبحوث في محوريهما فقط، وما زالت إلى الآن محصورة في هذين المحورين تقريباً.

٢ ـ **المرحلة العالميّة**: ثمّ بعد التطوّر العلميّ الذي حصل في العالم، وانفتاح الأمم على بعضها، وتطوّر الدراسات والبحوث المهدويّة، واستعمال أساليب التحليل العلميّ الممنهج للنصوص والآثار الموجودة، وترجمة الكتب العقائديّة للأمم الأخرى ونشرها، والاطلاع على آراء الديانات والحضارات والمجانيع البشريّة الأخرى الخاصّة بأخبار آخر الزمان، أو المنتظر الأمميّ الذي تؤمن كلّ أمّة من جانبها بقدومه لنصرتها على أعدائها، وجد الباحثون

أنّ الأطروحة تبدو أوسع كثيراً ممّا كانوا يتصوّرون، وإنّها لا يمكن أن تُحَدّ بالآفاق الضيّقة لحدود دولة، أو دول معيّنة، وحتى دول الإسلام كلّها، لأنّها لو صحّ التعبير سوف تأتي لإنقاذ الكائن البشريّ المظلوم في كلّ مكان في هذا العالم مهما كانت ديانته ومعتقده وجنسه، وإقامة دولة العدل في العوالم الأرضيّة المعروفة كلّها. وعليه فمن غير المعقول أن تكون مختصّة بالعالم الإسلاميّ وحده وموقوفة عليه. وساعدت على ظهور هذا التصوّر عند الأطراف المعنيّة مجموعة معطيات منها في الأقلّ إدراكهم أنّ الحروب التي سوف تخوضها المهدويّة بوجه الأمم والشعوب الأخرى ـ كما في رواياتنا ورواياتهم ـ تؤكد بما لا يقبل الشكّ على عالميّتها وشمولها للعالم كلّه. بل تؤكد أنّ الطرف الآخر نفسه (غير المسلم) يؤمن بعالميّتها أكثر ممّا يؤمن به بعض المسلمين، وأنّه بدأ يعمل منذ سنين طويلة على بناء دفاعاته المتينة التي يأمُل أن تقف بوجه المهدويّة، في الوقت نفسه الذي يدعم فيه ترسانته العسكريّة بالأسلحة فائقة التطوّر، وينشئ مراكز الدراسات والبحوث التي تهتمّ بأخبارها، ويتابع تصوّراتنا عنها ويستقيها، وما عند المسلمين وغيرهم من أخبارها، ثمّ يحرّك جيوشه في هذا الجزء من العالم أو ذاك؛ لكي يدعم خططه التي يضعها لما يعرف بمعركة (هرمجدون) التي يقول إنّها ستكون المعركة الحاسمة مع الإسلام الذي يقوده المهديّ عند الظهور، حتى إنّ الرئيس الأمريكي الأسبق "رونالد ريغان" قال في عام ١٩٨٠: "إنّنا قد نكون الجيل الذي سيشهد هرمجدون"[١] وكرّر مثل هذه الأقوال في أكثر من مناسبة.

وهرمجدون هي المعركة التي يعتقد اليهود والنصارى أنّها ستكون آخر معارك التاريخ الحاسمة، وأنّها المعركة التي سوف توصل الإنسان إلى نهاية التاريخ التي تبشر بها أطروحات العولمة، وهي المعركة التي تقول عنها

(١) المفاجأة، محمّد عيسى داوّد، ص٥٤٢.

الكاتبة الأمريكيّة (جريس هاسل): "إنّنا نؤمن كمسيحيّين أنّ تأريخ الإنسانيّة سوف ينتهي بمعركة تدعى هرمجدون، وأنّ هذه المعركة سوف تتوّج بعودة المسيح الذي سيحكم بعودته على جميع الأحياء والأموات"[1].

هذه المعركة نسمّيها نحن المسلمين (المعركة الكبرى)؛ وهي معركة وردت بشأنها مجموعة كبيرة من الأحاديث النبويّة، لكن ليس بالضرورة أن تكون رواياتنا قد قصدت المعركة نفسها التي يتحدّث الآخر غير المسلم عنها، ولاسيّما أنّ في فرق المسلمين من ينكر حقيقة هذه المعركة مع وجود رواياتها الكثيرة في مصادره وكتبه، وقد أخرج بعض رواياتها الإمام أحمد في مسنده، وأبو داوّد في مسنده، والحاكم الحسكاني في مستدركه وغيرهم، منها على سبيل المثال الحديث الذي صحّحه الألبانيّ في الجامع الصغير، وهو الذي جاء فيه: قال رسول الله ﷺ: "فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى بأرض يقال لها الغوطة فيها مدينة يقال لها دمشق". فيما يبدو أنّه إشارة إلى هذه الحرب التي ستكون عظيمة بكلّ المقاييس. علماً أنّ هنالك بين المسلمين ـ كما قلنا ـ خلافاً كبيراً على حقيقة هذه المعركة حتى إنّ بعضهم يعدّها من خرافات اليهود (الإسرائيليّات) التي دُسّت في عقيدة المسلمين. وهذا ما لا نريد الخوض فيه.

٣ ـ المرحلة الكونيّة: وهي المرحلة الثالثة والأكثر أهمّيّة من سواها، وهي التي سوف نتناولها بالحديث في بحثنا الموسّع هذا إن شاء الله تعالى.

---

(١) عمر أمة الإسلام، أمين محمّد جمال الدين، ص٣٧.

تطوّر رؤى المرحلة
الكونيّة وموجبات البحث

كونيّة الأطروحة المهدويّة التي أرى أنها المرحلة النهائيّة، أو المرحلة الثالثة من مراحل النضج الفكريّ الإنسانيّ للمهدويّة، وهي التي لم يلتفت إليها الباحثون بجدّيّة إلى الآن؛ ما هي إلاّ استقراءات ونتائج دراسة مازالت في طور التكوين والنشوء، كان الدافع لولادتها اكتشاف خفايا الأبعاد الحقيقيّة للأطروحة المهدويّة بالاطلاع الاستقرائيّ التحليليّ على مجموعة كبيرة من النصوص الموثقة التي ثبت بها أنّ الأطروحة بكلّ مبتنياتها الفكريّة والحركيّة، وبكلّ نتائجها المادّيّة والمعنويّة تبدو واقعاً أوسع كثيراً من هذا العالم المحصور بكرويّة الأرض؛ لأنّها تشكل في الحقيقة نشأة جديدة للأكوان والعوالم كلّها، هي الصفحة الثانية لأسفار التكوين الأولى ولآياتها، وهي غير تلك النشأة المعروفة والممتدّة منذ هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض وحتى اليوم، بل غير تلك النشأة التي ابتدأت منذ أن خلق الله أوّل مخلوقاته من قبل أن يخلق آدم، لأنّ الموازين التي تربّت ونشأت عليها المخلوقات كلّها؛ ومنها البشر في أثناء هذا التاريخ الطويل الذي يمتدّ إلى ملايين السنين سوف تتعرّض إلى انقلاب كلّيّ، وتغيير جذريّ في كلّ العوالم المعمورة لتحلّ محلها موازين بنائيّة إسلاميّة جديدة تختلف عن الموازين الموروثة كلّيّاً، وتخالفها من حيث النتيجة والمضمون والغاية والهدف.

ولكنّ الباحثين الذين أعتقد بأنهم أدركوا بحدسهم، وبما بين أيديهم من الأخبار والبحوث بعضاً من إشارات هذه الحقيقة وليس كلّها، لم يصرّحوا بها

جهاراً أمام الناس، ولم يصرّحوا بها حتى في مجالسهم الخاصّة؛ لأنّهم كانوا وما يزالون بين الشكّ واليقين من أمرها، اومتهيّبين من ذكرها. وتأكيداً لهذا التصوّر وجدت لأحد الباحثين قولاً في ضمن حديث له عن المهدويّة جاء فيه: "ولن أشطّ، وأرجو أن لا أكون كذلك إن قلت إنّها [أي: المهدويّة] مسألة تتعلق بكلّ الموجودات في البسيطة أو **الكون كلّه**"[1] أي: إنّه يعتقد بكونيّة الأطروحة ويشكّ بها؛ ولكنّه يخاف أن يكون شكّه نوعاً من الشطط، ولذلك كان متردّداً في حديثه عن هذا الاكتشاف إلى أبعد حدود التردّد المعروفة.

أمّا غيره ممّن أشار إلى الكونيّة بهذا المعنى نفسه؛ فقد جاءت إشاراتهم في سياق بحوثهم وأحاديثهم عن عالميّة الأطروحة لا عن حقيقة الكونيّة، إذ لم ترد في هذه البحوث إشارات إلى الكونيّة بمعناها الحقيقيّ لا المجازيّ، لأنّهم في حديثهم عن الكونيّة كانوا يقصدون الكون الأرضي المحصور بالكرة الأرضيّة وحدها، بالضبط كما يستعمل البعض اسم الحرب الكونيّة لإطلاقه على الحربين العالميتين الأولى والثانيّة اللتين لا علاقة حقيقيّة لهما بالكون الآخر.

من هذه الإشارات ما جاء في دراسة نشرها مركز الدراسات التخصّصيّة في الإمام المهديّ للكاتب محمّد محسن العيد تحت عنوان (المهديّ المنتظر ـ ع ـ كونيّة العدالة وعدالة التكوين) ومنها أيضاً استعمال كُتّاب آخرين لمصطلح الكونيّة ليرمزوا به إلى العالميّة مثل البحث المسمّى بـ (الإمام المهديّ ناموس **الوعي الكونيّ**) والبحث الآخر المسمّى (الإمام المهديّ **ضرورة كونيّة**)؛ فالبحوث التي استعملت ما يوحي وكأنّه وصول إلى مصطلح الكونيّة على كثرتها، إنّما استعملته في الإشارة إلى عالميّة الأطروحة، وشمولها للكرة الأرضيّة كلّها، لا لكونيّتها الفلكيّة الحقيقيّة.

---

(١) موقع مركز الدراسات التخصصيّة في الإمام المهديّ التابع لمكتب السيد السيستاني.

هنالك أيضاً من ذهب إلى القول إنّ الكونيّة سوف تتحقق بالتجربة المهدويّة التي ستوكل لها مهمّة إقامة مجتمع مدنيّ يدير الحقّ بصفة كونيّة عادلة؛ لأنّها تقلب الصراع الكونيّ، أي: إنّ الحكم المهدويّ وبإرادة الله سبحانه سوف يعطف اتجاه القوانين الكونيّة المعمول بها على الأرض حاليّاً، أو التي كان معمولاً بها في العصور السابقة، ومنها حقيقة الرسالات السماويّة، فيأتي كما في الأحاديث المتواترة بإسلام جديد وقرآن جديد، لا بمعنى الجدّة؛ أي: الحداثة الفلسفيّة المعاصرة[1] وإنّما بإعادة الإسلام

(١) كلمة حداثة (Modernity) تعني: العصرنة أو التحديث، أو التجديد، وتطلق على أيّ عمليّة تتضمّن تحديث ما هو قديم وتجديده. لغويّاً الحداثة مصدر من الفعل (حَدَثَ) وتعني نقيض القديم. والحداثة: أوّل الأمر وابتداؤه، وهي: الشباب وأول العمر. وهي تختلف عن الحداثة (modernism) التي تعني اصطلاحاً: الاتجاه الفلسفيّ والفكريّ الجديد الذي يشكل ثورة على كلّ موروثات المجتمع. أو كما عرفها الدكتور حمدي عبيد: "الحداثة (modernism) مذهب فكريّ يسعى إلى نبذ القديم الثابت من العقائد والشرائع القيم ورفض السائد والمألوف وكلّ ما هو معروف، فهم يقررون أنّ الحداثة تمتاز بالثورة على التقاليد الشكليّة واللغويّة، والاقتحام والنفور من كلّ ما هو متواصل) أو كما عرفها (العلميّ الإدريسي رشيد): الحداثة تعني الإيمان بقدرة الإنسان بفضل عقله أن يوجه مسار التاريخ وتغيير بناء المجتمع بغية تحقيق الديمقراطيّة وصيانة الحقوق والحريات.
في اللغة الإنكليزيّة هناك ثلاثة مصطلحات متقاربة ومشتقة من أصل واحد ولكنها ترمز إلى معان مختلفة هي:
الحداثة (modernism): ويقصد بها المذهب الفكري المعروف.
المعاصرة (modernity): وتعني إحداث التجديد والتغيير في المفاهيم السائدة المتراكمة الموروثة نتيجة وجود تغيير اجتماعي أو فكري أحدثه اختلاف الزمن.
التحديث (modernization): أي عمليّة التجديد والتبديل والتطوير.
والمصطلحات جميعها تترجم عادة إلى (حداثة) على الرغم من اختلافها شكلا ومضموناً وفلسفة وممارسة. وإذا أمكن الجمع بين مصطلحي modernity وmodernization ليعنيا المعاصرة أو التجديد، فإنّ مصطلح modernism وهو المصطلح المعول عليه اليوم في النص على معنى الحداثة يختلف عنهما تماماً؛ لأنّ الاتجاه الفكريّ السليم يتفق مع التحديث والمعاصرة والتجديد ولكنه لا يتفق مع الحداثة بمفهومها السائد كمذهب أدبي أو نظريه فكريّة تدعو إلى التمرد على الواقع في جوانبه السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والدينيّة.
في حين يعني المصطلح الثاني (modernity) (المعاصرة): أي التجديد بوجه عام دون الارتباط بنظريّة ترتبط بمفاهيم وفلسفات متداخلة متشابكة كما هو مصطلح (modernism). =

والقرآن إلى أصوله المحمّديّة الأولى بعد أن أبعده التغيير والتحريف والتصحيف عنها، ومن هنا جاءت كونيّتها بنظر هؤلاء.

وقصر بعضهم الآخر كونيّة الحكومة المهدويّة على الحوار الكونيّ، أي الحوار العالميّ الدائر في شأنها، وهو الذي هو جزء ممّا أطلق عليه مصطلح (حوار الحضارات).

وبعضهم الآخر يرى أنّ الكونيّة تأتي من قناعة أنّ المهديّ (عج) يمثل العدالة الكونيّة على الأرض.

ويرى آخرون أنّ كونيّة المهدويّة تأتي من كونها سنّة من سنن الله في الكون بمعنى أنّهم استعملوا الجزء للدلالة على الكلّ.

والكونيّة في نظر باحثين آخرين تقتصر على جنبة علاقة بعض علامات الظهور بالأكوان الأخرى، أو علاقة بعض الظواهر الكونيّة بالأطروحة المهدويّة؛ إذ قسّموا علامات الظهور إلى ثلاثة أقسام، منها قسم يعرف بعلامات (التحوّل الكونيّ)؛ أي: التحوّل في النظام الشمسيّ، ويقصدون به العلامات الكونيّة مثل كسوف الشمس في أول الشهر العربيّ وخسوف القمر

=ولذا يقول محمّد محفوظ في كتابه (الإسلام، الغرب، وحوار المستقبل): "يبدو أن مصطلح الحداثة وكأنه نص مفتوح على كل مضامين التقدم المعاصر، بحيث أنك لا تفرق بشكل صارم بين مضمون مصطلح الحداثة وبين مضامين مفاهيم التحديث والتقدم والعصريّة أو الجديد. ويمتد التداخل ليشمل المعايير والقيم وأنماط السلوك واللباس وطراز السكن أي كل مناحي الحياة في آخر المطاف"

وغالباً ما يرسم الباحثون في ميدان العلوم الإنسانيّة حدودا فاصلة بين مفهومي الحداثة والتحديث. وعلى الرغم من هذا الترسيم العلميّ يلحظ التداخل الكبير بين المفهومين في أي كلام عن الحداثة فغالباً ما يجري استخدام مفهوم (تحديث) للدلالة على الحداثة ويستخدم مفهوم (حداثة) للإشارة إلى ظاهرة التحديث.فالحداثة: موقف عقلي تجاه مسألة المعرفة وإزاء المناهج التي يستخدمها العقل في التوصل إلى معرفة ملموسة. أما التحديث: فهو عمليّة اكتشاف التقنيّة والمخترعات الحديثة لتوظيفها في الحياة الاجتماعيّة.

ينظر: بحثنا الموسوم (الإشكاليّة بين الحداثة والدين) المنشور في مجلة (حداثة) المصريّة في عددها صفر.

في آخره، وطلوع الشمس من المغرب بما يخالف حقائق علوم الفلك المعروفة، والدخان الذي يظهر في السماء، والنار العظيمة التي تظهر في المشرق، وركود الشمس في مكانها من الظهر إلى المغرب، ومجيء الكوكب المذنب الذي يحيط ذنبه بسماء الأرض حتى كأنّ نهاياته تلتقي مع رأسه وهي ظاهرة غير مسبوقة، والريح التي تلقي الناس في البحر، وكثرة المطر؛ ومع ذلك لا تنبت الأرض شيئاً، ودابّة الأرض التي تخرج وتكلمهم، وغزو الكائنات الفضائيّة ومنها أقوام يأجوج ومأجوج للأرض، وكثرة الزلازل، وتقارب الزمان[1] وغيرها من العلامات الكونيّة المشابهة الأخرى، أي: إنّ الباحثين حصروا رؤيتهم لكونيّة المهدويّة بالأحداث الكونيّة التي سوف تقع قبل الظهوروأثناءه وبعده، وهي التي ستغيّر النظام الكونيّ.

باحثون في الكونيّة

ومن بين الكمّ الكبير من النصوص والروايات والتفسيرات والآراء كانت هناك مجموعة آراء تناولت مسألة العوالم الكونيّة، وعلاقة الإمام المهديّ بالأكوان وسكانها بشيء من التفصيل الإيحائيّ، ولكنّها وقفت عند حدّ معيّن ولم تتجاوزه، وهي الأطروحات التي سأتناولها بالبحث بحسب عمقها الشموليّ من الأقرب إلى الأبعد، وسأعطي لأطروحتين منها مِساحة أوسع من باقي الأطاريح لأنهما كانتا على تماسّ كبير مع كونيّة المهدويّة، واقصد بهما أطروحتي الشهيد آيّة الله العظمى السيّد محمّد محمّد صادق الصدر قدس سره، والسيّد الجليل المرحوم هبة الدين الشهرستاني قدّس سرّه، وهذه الأطاريح الخمسة هي على التتالي:

---

(١) ينظر صحيح البخاري حديث ٧١٢٠، ص١٢٥٨ وصحيح مسلم حديث ٢٩١٠، ص١٢١٦ كتاب الفتن وكتب أخرى.

أطروحة عالم سبيط النيليّ

تحدّث عالم سبيط النيلي تغمّده الله برحمته الواسعة عن الكونيّة على أنّها طور عرفانيّ تصل المخلوقات المختلفة فيه إلى أعلى حالات الصفاء بما يسمح لها أن تستغني عن كلّ المتعارفات الحياتيّة المادّيّة المتداولة مثل الحاجة إلى نور الشمس والأكل والشرب والأوكسجين وباقي المتعلقات الحياتيّة الضروريّة. ويعتقد النيلي أنّ البشر على الأرض مرشحون للوصول إلى هذه المرحلة العرفانيّة المتطوّرة في زمن الدولة المهدويّة. أي: إنّ سكان الأرض سوف يعيشون في زمن الدولة المهدويّة مثل هذه الحالة العرفانيّة تماماً كما يعيشها أولئك السكان المقيمون في الأكوان، لكن من دون أن يختلطا أو يخضعا إلى حكم واحد وسلطة واحدة.

ولم ينتبه المرحوم النيلي إلى أنّ وصول البشريّة إلى هذه الدرجة من العرفانيّة يعدّ بحدّ ذاته مؤشراً على يقينيّة الكونيّة المقصودة، لأنّ تمكن البشر من الوصول إلى هذه المرحلة السامية التي لا يمكن أن يثق بها العلم يعني أنّ الفوارق بينهم وبين المخلوقات السامية الأخرى بما فيها الملائكة قد تلاشت كليّاً بما يسمح لهم بالتواصل مع هذه المخلوقات بغضّ النظر عن نوعيّة التواصل وصيغته.

يستفاد من أطروحات المرحوم النيلي أنّ هناك في الأكوان سكاناً على درجة رفيعة من التطوّر والعرفانيّة؛ وهذه ناحية مهمّة تخدمنا في بحثنا. اللافت للنظر أنّ هناك من العلماء المعاصرين من يتحدّث عن العرفانيّة التي تحدّث عنها المرحوم النيلي فالدكتور جواد بشارة يتحدّث عن وجود اتصالات بين مخلوقات سماويّة، أو فضائيّة، ناريّة، أو ضوئيّة، أو نورانيّة، أو إنسانيّة، مع كائنات بشريّة على الأرض على مدى العصور. وأنّ أحد تلك الكواكب التي أرسلت إلينا طواقمها العلميّة، يبعد عنّا سنة ضوئيّة واحدة، وقد زارنا ذلك الفريق العلميّ الفضائيّ، واحتاج إلى أقلّ من شهرين للوصول إلينا في حين

نحتاج نحن بوسائلنا التقنيّة الحاليّة إلى (٩٠٠٠٠) تسعين ألف سنة لبلوغ كوكبهم. وهو متقدّم علينا حضاريّاً بأكثر من ١٢٥ ألف سنة، وتسير مركباته الفضائيّة بسرعة تفوق سرعة الضوء بسبع مرّات، ولديه القدرة التقنيّة على إلغاء الجاذبيّة، وتطويع المادّة المضادّة مصدراً للطاقة[١].

هناك علماء آخرون يعتقدون أنّ قوانين الأكوان لا تتشابه؛ فلكلّ كون قوانينه الخاصّة التي تتساوق ونظامه، وسكانه وَفق هذه القوانين؛ من الممكن أن يقوموا بأعمال تبدو لنا إعجازيّة، أو مستحيلة بما فيها السير بسرعة تبلغ أضعاف سرعة الضوء، وعلماء آخرون يرَوْن أنّ هناك أكواناً متوازية، وأنّهم نجحوا في معرفة سرّ الانتقال الخارق للعادة عبر هذه الأكوان، وهو ما سنتوسّع في بحثه لاحقاً.

أطروحة الشيخ عليّ الكوراني

تحدّث الشيخ الكوراني من جهته في كتابه المشهور (عصر الظهور) عن انفتاح الإمام المهديّ على **الأرضين السبع** بعد أن أورد بعض الروايات التي تشير إلى **أنّ المهديّ (عج) يستعمل الوسائل المتنوّعة، والأسباب الخاصّة في الصعود والتنقل بين كواكب السماوات وعوالمها**، لكن الشيخ يعتقد أنّها ليس بقصد التبليغ والهداية بوصفها مرحلة من مراحل بعثته وظهوره، وإنّما بمعنى أنّ الحياة على الأرض وحدها سوف تدخل في عصره (عج) مرحلة جديدة تختلف عن كلّ ما سبقها من المراحل من حيث الانفتاح على الآخرة، فقال: "الذي يرجّح في نظري أنّ الانفتاح على عوالم السماء الذي تتحدّث عنه الروايات أنّه يتمّ في عصر الإمام المهديّ (عج) يكون مقدّمة لانفتاح أكبر على الآخرة والجنّة. وأنّ الروايات التي تتحدّث عن (الرجعة) وعودة عدد من

(١) المستقبل السحيق: رحلة نحو عوالم أخرى، الدكتورجواد بشارة، الرابط
http://www.iraker.dk/index.php?option=com_content&task=view&id=11450&Itemid=99

الأنبياء والأئمّة عليهم السلام إلى الأرض، وأنّهم يحكمون بعد المهديّ تقصد هذه المرحلة"[١].

وهذا يعني أنّ الشيخ الكوراني لم يتحدّث، أو يبحث في كونيّة الأطروحة من جانبها الامتداديّ ألتغييريّ الفعليّ في الأكوان، وإنّما حصر الكونيّة بمفهوم الانفتاح التطوّريّ الذي سوف تعيشه البشريّة المقيمة على الأرض بنوع من التواصليّة التي من نتائجها رجعة الأئمّة عليهم السلام والأولياء والصالحين إلى الحياة وإسهامهم في الجهد المهدويّ، أو إتمام ما بدأوا به من قبلُ. أي: إنّ الكونيّة سوف تتحقق عن طريق التقدّم العلميّ، والانفتاح الروحيّ الذي تحدثه رجعة بعض (المخلَصين)؛ وهو ما رمز إليه الشيخ بـ (الانفتاح الأكبر على الآخرة) الذي سيحقق بحسب اعتقاده كونيّة الأطروحة على الأرض.

وأرى أنّ لهذا الرأي علاقة بحديث الشيخ المرحوم مرتضى مطهري عن (الرؤية الكونيّة)[٢] التي قال: إنها تعني (معرفة الكون) أي: الفلسفة المبنيّة على لون خاصّ من الاعتقاد والنظر والتقييم للوجود، وليس التدخل في الشؤون الكونيّة تدخلاً فعليّاً وتعامليّاً.

ولو توسّع الشيخ الكوراني في مبحثه قليلاً، ولاسيّما أنه يعرف ويؤمن أنّ هناك انفتاحاً على عوالم السماء تتحدّث عنه الروايات، كما أشار إلى ذلك في بداية قوله المذكور آنفاً؛ لوجد الكونيّة شاخصة أمامه جليّاً، ولكنه تجاوز هذا الأمر، ربّما لأنّ بحثه المعنيّ لم يكن مجالها، أو لأنّ يقينه بشأنها لم يكن قد تكامل بعدُ، ولاسيّما أنّه قال: (الذي يرجح في نظري) وهو العالم الذي لم يكن ليدلي برأي إلاّ عن يقين ثابت. لكن على العموم أجد رأي الشيخ الكوراني متقدّماً بخطوات على رأي المرحوم النيلي رغم التقارب من حيث النتائج بينهما.؛ فضلاً عنهما هناك رأي الشهيد الصدر الثاني قدس سره.

---

(١) عصر الظهور، الشيخ علي الكوراني ط١١، ص٢٦٦ ـ ٢٦٨.
(٢) الرؤيّة الكونيّة التوحيديّة، الشهيد مرتضى مطهري، ص٨ و٩.

أطروحة السيّد الشهيد محمّد محمّد صادق الصدر رحمه الله تعالى

ونظراً إلى أهمّيّة رأي آية الله العظمى السيّد الشهيد محمّد محمّد صادق الصدر (قدس سره الشريف) لابدّ من التوسّع في مراجعة بحوثه وآرائه السديدة وتمحيصها بشأن الكونيّة، وكيفيّة تعامله معها.

فبالرغم من انعدام مؤشر واضح، وموقف معلن عن اعتقاد الشهيد الصدر بكونيّة المهدويّة كما نراها أو نعتقدها نحن، إلاّ أنّ ما ورد في أقواله وبحوثه من إشارات ودلالات تلميحيّة مرّة، وتصريحيّة أخرى يؤكد رسوخ اعتقاده بها. ولتوضيح هذا الاعتقاد سار الإمام الشهيد محمّد الصدر (قدس) نحو حقيقة كونيّة الحكومة المهدويّة بخطًى متئدة متدرجة، وكأنه أراد أن يساير مستوى التفكير الجمعيّ للمجتمعات كلّها، مثقفها وجاهلها، متعلمها وأمّيّها، عالمها ومتعلمها، لكي يصل بهم جميعاً إلى هذا الاعتقاد، ولذا نراه ينتقل من مرحلة التلميح إلى مرحلة التصريح، ثمّ يعود إلى التلميح وكأنه لا يريد التحدّث بصراحة أكبر عن يقينه بحقيقة الكونيّة، ويريد أن يبقى في حدود ما تستسيغ الأذن البشريّة سماعه والعقول إدراكه، أي: معتقد (العالميّة) وحده، أي: البعثة المحصورة في العالم الأرضيّ، وهو الاعتقاد الفاشي بين الناس.

الآيات والمراحل

للسير مع رؤى الشهيد الصدر يوجب علينا النظر أن ننعم في ثلاث آيات مترابطات، متساوقات متسانخات متآخيات بمجموعها تقود البشريّة قوداً تدريجيّاً إلى الإيمان بحقيقة الكونيّة بثلاثة مواقف قرآنيّة مصيريّة؛ وهي:

١ ـ سبب خلقة الجن والإنس ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

٢ ـ وجوب إيمان المخلوقات كلّها قبل موتها بالعقيدة ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾.

٣ ـ حتميّة ظهور الدين الإسلاميّ قبل يوم الدين على الأديان كلّها ﴿هُوَ

ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

حيث يضعنا الشهيد الصدر أمام ثلاث مراحل تقف بنسق تدريجيّ، ثمّ تتصاعد وتيرة الأحداث منها، وهي سببيّة/ وجوبيّة/ حتميّة، وسنسير مع هذه المراحل في تدرّجها للوصول إلى المطلوب إثباته.

٤ ـ الحديث عن مرحلة السببيّة: ضمن النسق التدرّجيّ يبتدئ الشهيد الصدر (قدس سره) الحديث عن (السببيّة) في الفصل الأوّل من الكتاب الثالث من موسوعته عن (ارتباط الظهور بالتخطيط الإلهيّ العامّ) بقوله: "وحاصل الفكرة التي فصلناها في التاريخ السابق بحدود الفهم العامّ عن أننا انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ نفهم أنّ الغرض الإلهيّ الأسمى من إيجاد الخليقة وإمدادها بالإدراك والاختيار هو الوصول بها إلى الكمال، وهو تمحيص العبادة الحقيقيّة لله تعالى"[1].

ولمّا كانت الآية قد جاءت للتعميم لا للتخصيص، أي: جاءت لتقول للمخلوقات كلّها إنّ الله سبحانه وتعالى إنما خلق خلقه السابقين، وسيخلق خلقه اللاحقين كلهم؛ سواء كانوا إنساً أم جنّاً، أم أيّ صنف آخر ليعبدوه، فلا بأس من متابعة هذا التعميم إلى يوم الظهور المقدّس، ثمّ إلى يوم الدين. صحيح أنّ المفسّرين والمؤوّلين اختلفوا في تفسير الآية الشريفة كلٌّ على هواه ومؤثرات رؤاه، ولكن ذلك لا يمنع أن نستخلص من اختلافاتهم وتباين رؤاهم محصلة تنفعنا في بحثنا، وتوصلنا إلى سبب تأكيد الشهيد الصدر على هذه الآية. ولاستخلاص نتائج آراء المفسرين بشأنها لابدّ من التطرّق إلى أقوالهم.

قال ابن كثير: "أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم. عن ابن عباس: "إلا ليعبدون" أي إلاّ ليقرّوا بعبادتي طوعاً أو كرهاً. وقال

(١) موسوعة الإمام المهديّ، الشهيد الصدر، جزء ٣، ص٣٣.

ابن جريج: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: "إلاّ ليعبدون" أي إلاّ للعبادة"[١].

وقال صاحبا تفسير الجلالين: "وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون، ولا ينافي ذلك عدم عبادة الكافرين لأنّ الغاية لا يلزم وجودها"[٢].

وقال الطبري: "اختلف أهل التأويل فقال بعضهم: معنى ذلك: وما خلقت السعداء من الجنّ والإنس إلا لعبادتي والأشقياء منهم لمعصيتي. وعن سفيان قال: من خلق للعبادة. وقال آخرون: وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليذعنوا لي بالعبوديّة، عن ابن عباس: إلا ليقرّوا بالعبوديّة طوعاً وكرهاً، وأولى القولين في ذلك بالصواب القول الذي ذكرنا عن ابن عباس، وهو: ما خلقت الجنّ والإنس إلا لعبادتنا، والتذلل لأمرنا"[٣].

وقال القرطبي: "قيل: إنّ هذا خاصّ **فيمن سبق** في علم الله أنه يعبده، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص. والمعنى: وما خلقت أهل السعادة من الجنّ والإنس إلا ليوحدون. وفي قراءة عبدالله: "وما خلقت الجنّ والإنس من المؤمنين إلا ليعبدون" وقال عليّ (رض): أي وما خلقت الجنّ والإنس إلا لآمرهم بالعبادة. وقيل: "إلا ليعبدون" أي إلا ليقرّوا لي بالعبادة طوعاً أو كرهاً. مجاهد: إلا ليعرفوني. وعن الكلبي: إلا ليوحدون، وقال عكرمة: إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد. وقيل: **المعنى إلا لأستعبدهم**. فمعنى "ليعبدون" ليذلوا ويخضعوا ويعبدون"[٤].

وفي تفسير سورة الذاريات في تفسير الميزان أورد السيّد الطباطبائي أقوالاً تختلف وتتفق وما سبق من أقوال، منها قوله: "وقوله: (إلا ليعبدون) استثناء من النفي لا ريب في ظهوره في أنّ للخلقة غرضاً **وأنّ الغرض العبادة**

---

(١) تفسير ابن كثير، تفسير سورة الذاريات، الآيات ٥١ ـ ٥٦.
(٢) تفسير الجلالين، تفسير سورة الذاريات.
(٣) تفسير الطبري، تفسير سورة الذاريات.
(٤) تفسير القرطبي، سورة الذاريات.

بمعنى كونهم عابدين لله لا كونه معبوداً، فقد قال: ليعبدون ولم يقل: لأعبَد أو لأكون معبوداً لهم. على أن الغرض كيفما كان أمر يستكمل به صاحب الغرض ويرتفع به حاجته والله سبحانه لا نقص فيه ولا حاجة له حتى يستكمل به ويرتفع به حاجته، ومن جهة أخرى الفعل الذي لا ينتهي إلى غرض لفاعله لغو سفهيّ ويستنتج منه أنّ له سبحانه في فعله غرضا هو ذاته لا غرض خارج منه، وأنّ لفعله غرضاً يعود إلى نفس الفعل وهو كمال للفعل لا لفاعله، فالعبادة غرض لخلقة الإنسان وكمال عائد إليه هي وما يتبعها من الآثار كالرحمة والمغفرة وغير ذلك، ولو كان للعبادة غرض كالمعرفة الحاصلة بها والخلوص لله كان هو الغرض الأقصى والعبادة غرضاً متوسطاً"[١].

من مجموع أقوال المفسّرين في المدرستين الفقهيّتين الإسلاميّتين؛ من الممكن أن نستخلص بضعة مفاهيم لنستدلّ بها على علاقة الآية المباركة بعصر الظهور وعلاقتها بالحكم الموحد الذي يجب أن يقود العوالم الكونيّة كلها:

الأوّل: وهو الموقف الذي تبنّاه المفسّرون في مدرسة الخلفاء، ويتلخص برأيين أو محورين اثنين؛ حصر سبب الخلق فيهما من دون سواهما؛ وهما:

* رأي سببيّ: أي (وما خلقت الجنّ والإنس) إلا ليقرّوا أو ليذعنوا بعبادتي طوعاً أو كرهاً / إلا ليعرفون / إلا لعبادتي.
* رأي تخصيصيّ: أي خصوص الآية وعمومها، وخصوص المقصودين بالخطاب وعمومهم، فالخطاب موجّه للمؤمنين من المخلوقات وليس للكافرين/ أو الخطاب موجّه للأمم السابقة قبل الإسلام، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص!

الثاني: موقف مدرسة أهل البيت الذي اختلف مع ما جاء في أقوال أتباع مدرسة الخلفاء في مواطن، واتفق معها في مواطن أخرى. فمن ناحية الرأي

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، السيد الطباطبائي، تفسير سورة الذاريات.

السببيّ؛ قال السيد الطباطبائي في الميزان: إنّ للخلقة غرضاً، وإنّ الغرض عبادة... فالعبادة غرض لخلقة الإنسان وكمال عائد إليه.

ومن ناحية التخصيص: قال: وأمّا حمل العبادة على العبادة التكوينيّة فيضعفه أنها شأن عامّة المخلوقات، لا موجب لتخصيصه بالجنّ والإنس/ فحقيقة العبادة، نصب العبد نفسه في مقام الذلة والعبوديّة/ فحقيقة العبادة هي الغرض الأقصى من الخلقة/ والعبادة هي غرض الفعل أي كمال عائد إليه لا إلى الفاعل على ما تقدّم/ فحقيقة العبادة هي الغرض الأقصى من الخلقة؛ وهي أن ينقطع العبد عن نفسه وعن كلّ شيء ويذكر ربّه.

رأي الشهيد الصدر: أمّا الموقف الذي تبناه الشهيد الصدر ففيه أكثر من تأكيد لعلاقة هذه الآية المباركة بآخر الزمان؛ لأنه ربط مضمونها بالمهدويّة مباشرة، وهو الربط الذي جاء ليشير من جانب إلى أمر مهمّ جدّاً له علاقة بالعبادة، ومن جانب آخر إلى وجوب إيمان المخلوقات كلها قبل يوم القيامة بالله سبحانه، وحتميّة إظهار دين الإسلام على الأديان كلها. فمع اعتقادنا أنّ الإنسان يولد وهو يؤمن بالله بالفطرة، إلا أنّ الفطرة لا تكفي وحدها لتنظيم سبل العبادة الحقة ما لم يكن هناك رسل وأنبياء يلطفون الفطرة وشحذها وترتيب مداركها لتتساوق ونوع العبادة المطلوبة. هذه العلاقة تمتدّ إلى خارج دنيا الإنسان حتماً، وتذهب حيث ما وجد دين، ووجدت عبادة، ولمّا كنا سنثبت بالبحث أنّ هناك في السماوات مخلوقاتٍ مكلفةً بالعبادة؛ فإنها ستكون بلا شكّ مشمولة بالتغيير المرتقب. وهو ما سيتضح في حديثنا عن المرحلتين الأخريين؛ الوجوبيّة والحتميّة.

٥ ـ الحديث عن المرحلة الوجوبيّة: المرحلة الأخرى من مراحل الإعداد هي مرحلة وجوب الإيمان تبعاً إلى الآية الشريفة ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[1].

(١) سورة النساء، الآية ١٥٩.

إذ ربط المفسّرون هذه الآية بالآيات التي سبقتها ابتداء من قوله تعالى ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[١] إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[٢].

ربطوها بتلك الآيات ليقولوا بهذا الربط أنها **تتحدّث حصراً عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى والصابئة والمجوس دون غيرهم**، كما قالوا عن الآية الأولى. لكن مع يقيننا بوجود أهل كتاب في الأمم الكونيّة ليس من أهل الكتاب الأرضيّين ـ وهم الذين سوف نثبت وجودهم فيما بعدُ ـ فمن المفروض بمديات الآية حتى لو أخذ بهذه التفسيرات على أنّها حقائق نهائيّة أن تمتدّ إليهم أيضاً ليس في عصر البعثة المحمّديّة فحسب؛ بل وفي عصر الظهور المهدويّ كذلك لتتحقق حتميّة (ليظهره على الدين كله) ولو كان المفسّرون الأوائل يعرفون بوجود المخلوقات الفضائيّة المكلفة لكانوا قد أشاروا إليهم بالتأكيد. أي: إنّ جهلهم بوجود تلك المخلوقات هو الذي حال بينهم وبين الحديث عن شموليّة الآية المباركة. علماً أنّ هذا الجهل جاء نتيجة القصور عن فهم ما ألقاه إليهم النبيّ ﷺ من حديث متكرّر عن سكان السماوات وأهلها بما في ذلك حديثه عن بعثته إلى أقوام يأجوج ومأجوج التي سنتكلم عليها لاحقاً.

وقبل إيراد ما قاله المفسّرون من أتباع مدرسة الخلفاء عنها، أورد رأي السيّد الطباطبائي لأغراض المقارنة، قال الطباطبائي: "الآيات تذكر سؤال أهل الكتاب رسول الله ﷺ تنزيل كتاب من السماء عليهم حيث لم يقنعوا بنزول القرآن بوحي الروح الأمين نجوماً، ونجيب عن مسألتهم. أهل الكتاب هم اليهود والنصارى على ما هو المعهود في عرف القرآن في أمثال هذه الموارد وعليه فالسائل هو الطائفتان جميعاً دون اليهود فحسب. ولعدّ الطائفتين

---

(١) سورة النساء، الآية ١٥٣.
(٢) سورة النساء، الآية ١٥٩.

جميعاً ذا أصل واحد يخصّ اليهود بالذكر فيما يخصّهم من الجزاء، وبالجملة السائل هم أهل الكتاب جميعاً ووجه الكلام معهم لاشتراكهم في الخصيصة القوميّة.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ "إن" نافية والمبتدأ محذوف يدلّ عليه الكلام في سياق النفي، والتقدير: وإن أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن، والضمير في قوله "به" وقوله "يكون" **راجع إلى عيسى**، وأمّا الضمير في قوله "قبل موته" **ففيه خلاف**. فقد قال بعضهم: إنّ الضمير راجع إلى المقدّر من المبتدإ وهو أحد، والمعنى: وكلّ واحد من أهل الكتاب يؤمن قبل موته بعيسى أي يظهر له قبيل الموت عند الاحتضار أنّ عيسى كان رسول الله وعبده حقا وإن كان هذا الإيمان منه إيماناً لا ينتفع به، ويكون عيسى شهيداً عليهم جميعاً يوم القيامة سواء آمنوا به إيمانا ينتفع به أو إيماناً لا ينتفع به كمن آمن به عند موته.

ويؤيّده أنّ إرجاع ضمير "قبل موته" إلى عيسى يعود إلى ما ورد في بعض الأخبار أنّ عيسى حيّ لم يمت، وأنه ينزل في آخر الزمان فيؤمن به أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وقد قال آخرون: إنّ الضمير راجع إلى عيسى عليه السلام والمراد به إيمانهم به عند نزوله في آخر الزمان من السماء.

والذي ينبغي التدبّر والإمعان فيه هو أنّ وقوع قوله "ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً" ظاهر في أنّ عيسى شهيد على جميعهم يوم القيامة كما أنّ جميعهم يؤمنون به قبل الموت، وقد حكى سبحانه قول عيسى في خصوص هذه الشهادة على وجه خاصّ، فقال عنه: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فقصر عليه السلام شهادته في أيّام حياته فيهم قبل توفيه، وهذه الآية أعني قوله: "وإن من أهل الكتاب" إلخ تدلّ على شهادته على جميع من يؤمن به فلو كان المؤمن به هو الجميع كان لازمه أن لا يتوفى إلا بعد الجميع، وهذا ينتج المعنى الثاني، وهو كونه عليه السلام حيّاً بعدُ، ويعود إليهم ثانياً حتى يؤمنوا به.

نهاية الأمر أن يقال: إنّ من لا يدرك منهم رجوعه إليهم ثانياً يؤمن به عند موته، ومن أدرك ذلك آمن به إيماناً اضطراراً أو اختياراً"[١].

وإذا ما كان السيد الطباطبائي قد ألمح إلى شموليّة هذه الآية وامتداديتها الزمانيّة المتواصلة إلى يوم الدين مروراً بعصر الظهور فإنّ المفسّرين في مدرسة الخلفاء لم يقفوا عند جانبها المعلن فقط وإنما ورد في أقوالهم إشارات مستفيضة إلى المعنى الخفيّ الدالّ على وجوبيّة الإيمان في الآية بما يتساوق وأقوال مدرسة أهل البيت، وتجد هناك إشارات كثيرة تدلّ على علاقة الوجوبيّة بعصر الظهور رغم أنّ عموميّة حديثهم غطت على الجانب الحقيقيّ لمعنى الآيات، كما في: قول القرطبي في تفسيره: "قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة: **المعنى ليؤمنن بالمسيح "قبل موته" أي الكتابي، فالهاء الأولى عائدة على عيسى، والثانية على الكتابيّ وذلك أنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام إذا عاين الملك.** وقيل: **إنّ الهاءين جميعاً لعيسى عليه السلام**، والمعنى **ليؤمنن به من كان حيّاً حين نزوله يوم القيامة.** وروى يزيد بن زريع عن رجل عن الحسن قال: قبل موت عيسى، والله إنّه لحيّ عند الله الآن ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون. وقيل: "ليؤمنن به" **أي بمحمّد عليه السلام وإن لم يجر له ذكر لأنّ هذه الأقاصيص أنزلت عليه والمقصود الإيمان به،** والإيمان بعيسى يتضمّن الإيمان بمحمّد عليه الصلاة والسلام أيضاً؛ إذ لا يجوز أن يفرق بينهم. **وقيل: "ليؤمنن به" أي بالله تعالى قبل أن يموت ولا ينفعه الإيمان عند المعاينة.** والتأويلان الأوّلان أظهر. "[٢].

وقول ابن كثير من الأقوال المميّزة ولذا سأورده كاملاً رغم طوله بسبب علاقته بموضوع البحث، ولأنّه سيكفينا مؤونة الاستطراد عند ذكر أقوال الطبري، لأنه ذكرها بمجملها: "قال ابن جرير: **اختلف أهل التأويل في معنى**

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، تفسير سورة النساء.
(٢) تفسير القرطبي، تفسير سورة النساء.

ذلك فقال بعضهم: **يعني قبل موت عيسى** يوجه ذلك إلى أنّ جميعهم يصدقون به **إذا نزل لقتل الدجّال فتصير الملل كلها واحدة وهي ملة الإسلام الحنيفيّة**، ذكر من قال ذلك: ابن عباس وابن مالك: ذلك عند نزول عيسى وقبل موت عيسى ابن مريم عليه السلام لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا آمن به. وقال الضحاك عن ابن عباس: **يعني اليهود خاصة**. وقال الحسن البصري: **يعني النجاشي وأصحابه**. وقال ابن جرير: عن الحسن قال: قبل موت عيسى والله إنه لحي الآن عند الله ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون وقال ابن أبي حاتم: عن جويرية بن بشير قال: سمعت رجلاً؛ قال للحسن: يا أبا سعيد قول الله عز وجل "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته" قال: قبل موت عيسى إن الله رفع إليه عيسى وهو باعثه قبل يوم القيامة مقاماً يؤمن به البرّ والفاجر. وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد **وهذا القول هو الحق وبه الثقة وعليه التكلان** .

قال ابن جرير: وقال آخرون **يعني بذلك وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت الكتابي**. عن ابن عباس قال: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى، عن مجاهد: **كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى قبل موته قبل موت صاحب الكتاب**. ابن عباس: لا يموت اليهودي حتى يشهد أن عيسى عبدالله ورسوله، عن ابن عباس قال: **هي في قراءة أُبي قبل موتهم** ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى، وكذا صح عن مجاهد وعكرمة ومحمّد بن سيرين وبه يقول الضحاك وجويبر. وقال عبد الرزاق عن إسرائيل عن فرات القزاز عن الحسن قال: "**لا يموت أحد منهم حتى يؤمن**" بعيسى قبل أن يموت.

قال ابن جرير: "**وقال آخرون معنى ذلك وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمّد** صلى الله عليه وآله وسلم **قبل موت الكتابي**" ذكر من قال ذلك، قال عكرمة: لا يموت النصراني ولا اليهودي حتى يؤمن بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم قال ابن جرير: "**وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول** وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب **بعد نزول عيسى** عليه السلام إلا آمن به قبل موت

عيسى عليه السلام وإنه باقٍ حيّ، وإنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلت عليه الأحاديث المتواترة فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف **فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم ولهذا قال: "وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته" أي قبل موت عيسى** الذي زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً أي بأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض"[١].

ومع أن آراء المؤولين والمفسرين اختلفت كثيراً في تفسير هذه الآية الشريفة إلا أنّ ما يمكن استخلاصه من نتائج التفسير أن هناك مرحلة من مراحل عمر الأكوان تستوجب الإيمان الكلي واجتماع المخلوقات على دين واحد تجتمع فيه خلاصة كل الأديان منذ بدء الخليقة، سواء أكانت هذه المرحلة في العصور السالفة أم القادمة، وأنّ الغلبة للرأي القائل بضرورة وقوعها في العصر القادم وفي عصر الظهور تحديداً، لأن الإيمان الجمعي هو الذي يقود إلى وجوبيّة الظهور الكلي المقصود بالآية المباركة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[٢] ولأن هذا الاجماع لم يتحقق من قبل في تاريخ الكون كله.

وأمّا آية ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ فهي الأخرى؛ اختلف المفسرون في معناها بعد أن ربطوها بما قبلها من آيات ابتداء من قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير، تفسير سورة النساء.
(٢) سورة التوبة، الآية ٣٣.
(٣) سورة التوبة، الآيات من ٢٩ ـ ٣٥.

رأي مدرسة أهل البيت عليهم السلام لخصه السيد الطباطبائي في تفسير الميزان بقوله: "أهل الكتاب هم اليهود والنصارى على ما يستفاد من آيات كثيرة من القرآن الكريم وكذا المجوس حيث عدّوا في الآية مع سائر أرباب النحل السماويّة في قبال الذين أشركوا، والصابئون كما تقدم طائفة من المجوس صبوا إلى دين اليهود فاتخذوا طريقاً بين الطريقين. والسياق يدلّ على أنّ لفظة "من" في قوله: "من الذين أوتوا الكتاب" **بيانيّة لا تبعيضيّة** فإن كلا من اليهود والنصارى والمجوس أمة واحدة كالمسلمين في إسلامهم وإن تشعبوا شعباً مختلفة وتفرقوا فرقاً متشتتة اختلط بعضهم ببعض ولو كان المراد قتال البعض وإثبات الجزية على الجميع أو على ذلك البعض بعينه لاحتاج المقام في إفادة ذلك إلى بيان غير هذا البيان يحصل به الغرض. وحيث كان قوله: "من الذين أوتوا الكتاب" بياناً لما قبله من قوله: "الذين لا يؤمنون" فالأوصاف المذكورة أوصاف عامة لجميعهم. والمراد بالرسول في قوله: "ما حرم الله ورسوله" أما رسول أنفسهم الذي قالوا بنبوته. ويكون حينئذ توصيفهم بعدم تحريمهم ما حرم الله ورسوله بغرض تأنيبهم والطعن فيهم ولبعث المؤمنين وتهييجهم على قتالهم. وربّما أيد هذا الاحتمال أن لو كان المراد بقوله: "ورسوله" رسول كلّ أمة بالنسبة إليها كموسى بالنسبة إلى اليهود وعيسى بالنسبة إلى النصارى كان من حق الكلام أن يقال: "ولا يحرمون ما حرم الله ورسله" على ما هو دأب القرآن في نظائره للدلالة على كثرة الرسل"[1].

وقال القرطبي: "هو الذي أرسل رسوله، يريد محمّداً صلى الله عليه وآله بالهدى أي بالفرقان ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون أي بالحجّة والبراهين. وقد أظهره على شرائع الدين حتى لا يخفى عليه شيء منها. وقيل: "ليظهره" **أي ليظهر الدين دين الإسلام** على كلّ دين. قال أبو هريرة

(١) الميزان في تفسير القرآن، تفسير الآيات من سورة التوبة.

والضحاك: **هذا عند نزول عيسى** عليه السلام. وقال السدي: **ذاك عند خروج المهديّ لا يبقى أحد إلا دخل في الإسلام أو أدى الجزية.** وقيل: أراد "**ليظهره على الدين كله**" **في جزيرة العرب، وقد فعل**"[1].

وقال ابن كثير: "ليظهره على الدين كله" **أي على سائر الأديان** كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها". وقال الإمام أحمد: عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود: صلى هذا الحيّ من محارب الصبح فلما صلوا قال شاب منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنه **ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها** وإن عمالها في النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة". وقال الإمام أحمد: عن تميم الداري(رض) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين** يعز عزيزاً ويذل ذليلاً عزّاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذلّ الله به الكفر. وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربّه حدثنا الوليد بن مسلم حدثني ابن جابر سمعت سليم بن عامر قال: سمعت المقداد بن الأسود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام يعزّ عزيزاً ويذلّ ذليلاً إمّا يعزّهم الله فيجعلهم من أهلها وإما يذلهم فيدينون لها" وفي المسند أيضاً عن عدي بن حاتم سمعه يقول: دخلت على رسول الله ﷺ فقال: "يا عدي أسلم تسلم" فقلت إني من أهل دين قال: "أنا أعلم بدينك منك" فقلت أنت أعلم بديني مني؟ قال: "نعم ألست من الركوسيّة وأنت تأكل مرباع قومك؟" قلت بلى! قال: "فإن هذا لا يحل لك في دينك" قال فلم يعد أن قالها فتواضعت لها قال: "أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوّة له وقد رمتهم العرب أتعرف الحيرة؟" قلت لم أرها وقد سمعت بها قال:

---

(١) تفسير القرطبي للآيات من سورة التوبة.

"فوالذي نفسي بيده ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ولتفتحنّ كنوز كسرى بن هرمز" قلت كسرى بن هرمز؟ قال "نعم كسرى بن هرمز، وليبذلنّ المال حتى لا يقبله أحد" قال عدي: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد؛ ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكوننّ الثالثة لأنّ رسول الله ﷺ قد قالها. وقال مسلم: عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى" فقلت يا رسول الله إن كنت لأظنّ حين أنزل الله عزّ وجلّ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ الآية، أن ذلك تام، قال: "إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل ثم يبعث الله ريحا طيبة فيتوفى كلّ من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم"[١].

وقال الطبري: "**وقد اختلف أهل التأويل في معنى قوله**: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ فقال بعضهم: **ذلك عند خروج عيسى حين تصير الملل كلها واحدة.**

وقال آخرون: معنى ذلك: **ليعلمه شرائع الدين كلها فيطلعه عليها**. ذكر من قال ذلك: عن عليّ، عن ابن عباس قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ قال: ليظهر الله نبيّه على أمر الدين كله، فيعطيه إياه كله، ولا يخفى عليه منه شيء"[٢].

وفي الجلالين: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمّداً ﷺ ﴿بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ يعليه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ جميع الأديان المخالفة له ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ ذلك"[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير للآيات من سورة التوبة.
(٢) تفسير الطبري للآيات من سورة التوبة.
(٣) تفسير الجلالين للآيات من سورة التوبة.

٦ ـ الحديث عن المرحلة الحتميّة: ومع أن الشهيد الصدر لم يقصد ظاهراً هذا المعنى حرفيّاً عند استشهاده بآية ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ فترك التلميح وربط هذا التصور بموضوع الكونيّة وربطه بالعبادة الحقيقيّة وهدفها وشرائطها إلا أننا مع ذلك نراه يقول: "ومعه نستطيع أن نفهم بكلّ وضوح، مدى ارتباط يوم الظهور الموعود بالتخطيط العام للبشريّة، فإنه في الحقيقة هو اليوم الذي يتحقق فيه السبب الرئيسي لإيجاد العبادة الكاملة لله تعالى... إذاً فيوم الظهور، ليس يوماً طارئاً ولا عرضاً عارضاً، ولا ظاهرة مؤقتة، وإنما هو النتيجة الطبيعيّة المقصودة لله عزّ وجلّ من خلقه"[١].

فقوله (هو اليوم الذي يتحقق فيه السبب الرئيسي لإيجاد العبادة الكاملة لله تعالى) يرتبط جذريّاً بموضوع (وليظهره على الدين كله) لأنّ إيجاد العبادة الكاملة لا يتحقق إلا بظهور الإسلام على جميع الأديان سواء كانت في الأرض أم في الكون، وهو الموضوع الذي سنتحدث عنه بتوسع لاحقاً، لأنه يعدّ من أهمّ أسس الحديث عن كونيّة الحكومة المهدويّة.

وفي حديثه عن نظام الدولة المهدويّة قال الشهيد الصدر: "ولكننا نستطيع طبقاً للأدلة الجزم بأنّ نظام المهديّ عليه السلام مباين ومغاير تماماً مع أيّ نظام سابق عليه"[٢] ومن الأدلة التي ساقها لإثبات هذا الرأي، قوله: "إنّ التخطيط الإلهيّ قائم على اكتساح التمحيص الدقيق للأفراد والمبادئ، وبذلك ينكشف بشكل حسّيّ مبرهن ومدعم بالتجارب الكثيرة والمريرة، عن فشل كلّ دعوة تدّعي لنفسها حلّ مشاكل العالم وتذليل مصاعبه"[٣].

وهو وإن كان يبدو مهتمّاً بمسألة الأرض وحدها إلا أنّ ما في كلامه من مفردات تنطبق كليّاً على الكونيّة، فنظام المهديّ مغاير لكلّ الأنظمة التي قامت وستقوم في الأرض؛ لأنّ تلك الأنظمة حتى لو خرج سلطانها من حدود

---

(١) الموسوعة، الإمام الصدر، ص٣٥.
(٢) الموسوعة، الجزء ٣، ص٨٧.
(٣) المصدر نفسه، الموسوعة، ص٨٩.

الأرض إلى الكواكب القريبة كالقمر مثلاً الذي يأمُلون بناء محطات فضائيّة مأهولة عليه، لن يتمكن من تحقيق السيطرة الكليّة على العالم وحلّ مشاكله العباديّة.

وقال الشهيد الصدر في الفصل الخامس، في حديثه عن التخطيط الإلهيّ لما بعد الظهور: "إنّ البشريّة بعد اجتماع شرائط الظهور طبقاً للتخطيط السابق، تكون **مستحقة لدرجة جديدة من الكمال**... وبتطبيق هذا العدل تكون البشريّة قد بلغت درجة أعلى من الكمال تستحقّ بعدها درجة أخرى أعلى وهو عمق هذا العدل وترسخه إلى ان تصل إلى استحقاق صفة "العصمة" حيث يوجد المجتمع المعصوم"[١].

ويستشفّ من هذا الطرح أنّ هناك مراحل تصاعديّة تتنامى فيها درجات البشر رفعة إلى أن تصل إلى درجة (المجتمع المعصوم) ونلحظ هنا أمرين في غاية الدقة والأهمّيّة.

الأول: أنّ البشر حتى من دون هذه العصمة تمكنوا من غزو الفضاء والتواصل مع بعض مخلوقاته ـ كما سيتبيّن في البحث لاحقاً ـ وأقاموا نوعاً من الترابط غير المنظور مع الأكوان. وهم إذا ما تمكنوا من هذا العمل الجبّار مع محدوديّة قدراتهم فإنهم مع القدرات الدرجيّة التصاعديّة التي سوف يحصلون عليها بما فيها المعصوميّة؛ من الممكن أن يختلطوا بالمخلوقات الفضائيّة ويتجانسوا معها.

ثانيا: إنّ موضوع التدرّج التصاعديّ في نموّ القدرات تحدّث عنه المرحوم عالم سبيط النيلي، وأسهب في الحديث عن درجة العرفانيّة السامية التي سيصل إليها مجتمع الظهور، وهي التي ستتيح له التواصل نوعاً ما مع تلك المخلوقات. ويعني هذا أن (المجتمع العرفاني) بحسب رأي النيلي أو (المجتمع المعصوم) بحسب رأي الشهيد الصدر، مجتمع من الممكن أن

---

(١) المصدر نفسه، الموسوعة، الإمام الصدر، ص٩٣.

يجترئ المعجزات، ومع هذه المعجزات لن يكون صعباً عليه التحليق في الفضاء والتواصل مع سكانها، ونقل أطروحته الدينيّة إليها.

وقال الشهيد الصدر في (الأسس العامّة لتخطيط ما بعد الظهور): "وأمّا تخطيط ما بعد الظهور فيحتوي على نقاط ضعف في التعرّف عليه: أولاً: بعدنا الزمانيّ عنه، بحيث لا يمكن مشاهدته بالوجدان، ولا أن يصل منه شاهد عيان. ثانياً: إننا نقتصر في الغالب في التعرّف عليه القواعد العامّة، وهي لا تعطي إلا العموميّات، ولا يمكنها الوصول إلى التفاصيل. ثالثاً: إننا نجهل القوانين الجديدة والنظم التي ستكون معلنة في ذلك العصر"[١].

لقد شاء الشهيد الصدر ترك الباب مفتوحاً على مصراعيه لتقبل الاحتمالات كافة، وعدم التحدد بما جاء به من فرضيّات عن عصر الظهور، ولاسيّما أنه أشار إلى القوانين الجديدة والنظم التي ستكون معلنة في ذلك العصر المبارك، وهو هنا لا يستبعد أن تكون هناك تواصليّة مع كلّ الأكوان تستوجبها القوانين والنظم الجديدة.

وفي حديثه عن الظواهر الطبيعيّة والسماويّة قبل الظهور، قال الشهيد الصدر عن خبر كسوف الشمس في وسط الشهر العربيّ وخسوف القمر في آخره، بعد أن أورد أحاديث عن المدرستين الفقهيّتين كما في حديث الإمام الباقر عليه السلام: "آيتان تكونان قبل القائم لم تكونا منذ هبط آدم عليه السلام إلى الأرض. تنكسف الشمس في النصف من شهر رمضان والقمر في آخر الشهر" وحديث السيوطي في العرف الوردي، عن الدارقطني في سننه عن محمّد بن عليّ الباقر قال: "إنّ لمهديّنا آيتين لم تكونا منذ خلق الله السموات والأرض: ينكسف القمر لأول ليلة من رمضان، وتنكسف الشمس في النصف منه، ولم يكونا منذ خلق الله السموات والأرض" في حديثه عن هذه الآية قال الشهيد الصدر: "وأمّا الخسوف فلم يحدث إلى حدّ الآن، لكن في الإمكان تصوّر حدوثه فيما

(١) المصدر نفسه، الموسوعة، جزء ٣، ص١٠٠.

إذا انتقل بعض أفراد الإنسان إلى كوكب آخر من المجموعة الشمسيّة كالمريخ أو الزهرة"[١] وهنا نجده يتحدّث صراحة عن الكونيّة ولكن بمحدوديّة تستوجبها مداراة مشاعر المتلقين.

إضافة هذا الحديث إلى مضمون الحديث الذي أخرجه الشيخ الصدوق بسنده إلى ميمون عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: "خمس قبل قيام القائم: اليماني والسفياني والمنادي ينادي من السماء أنّ فلان بن فلان هو الإمام باسمه وينادي إبليس لعنه الله من الأرض كما نادى برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آية العقبة، وخسف بالبيداء وقتل النفس الزكيّة[٢] يوحي أن هناك نقلة في علاقة سكان أهل الأرض بأهل السماء تحدث قبل الظهور، أو أن المنتظرين السماويّين العرفانيّين الذين تحدث عنهم النيلي وتحدثت عنهم الروايات هم الذين تولوا مهمة التبليغ بخروجه، وليس وسائل الإعلام والفضائيات كما يدّعي بعض الباحثين؛ لأنّ استخدام الفضائيات متاح لقوى الخير وقوى الشرّ؛ فلِمَ لا تستخدم قوى الشرّ الآليّة نفسها لتعلن رأيها، بدل أن يكون الأمر وقفاً على قوى الخير وحدها؟

صحيح أنّ هناك روايات تقول إنّ الصوت السماويّ لجبرائيل عليه السلام والأرضيّ لإبليس لعنه الله، كما في رواية النعماني عن أبي المعلى بن خنيس عن أبي عبدالله عليه السلام: "صوت جبرائيل من السماء وصوت إبليس من الأرض، فاتبعوا الصوت الأول وإياكم والأخير أن تفتنوا به[٣] ولكن ذلك قد يكون تمويهاً؛ لأنهم ما كانوا سيفهمون الحقيقة كما هي مع ضعف مداركهم عن علوم الفضاء. تؤيد ذلك واحدة من أطاريح الشهيد الصدر عند مناقشته لموضوع الصيحة جاء فيه: "أن نفهم من (جبرائيل) المنادي بالحق و(إبليس)

---

(١) المصدر نفسه، الموسوعة، ص١١٩.

(٢) ينظر: كمال الدين وإتمام النعمة، باب ما روي في علامات خروج القائم، حديث رقم ١ ص٥٨٨ وحديث رقم ٤ ص٥٨٩.

(٣) المصدر نفسه، كمال الدين، باب ما روي من علامات، حديث رقم ١٣، ص٥٩١.

المنادي بالباطل، أن نفهم منهما ـ ولو بنحو الرمز أو المجاز ـ **التعبير عن أنصار الحق وأنصار الباطل**"[١] وقوله في مكان آخر: "ومعه يكون من السهل بل من الطبيعيّ أن نتصوّر أنّ (جبهة) الإمام المهديّ عليه السلام تنادي باسمه بطريق هذه الوسائل الحديثة"[٢].

وفي مبحث مقدار سعة ملك الحجّة المنتظر، وشموله لكلّ العالم، وصل الشهيد الصدر إلى مرحلة متقدّمة من مراحل البحث الذي أراد أن يصل به إلى التلميح إلى الكونيّة، فابتدأ حديثه بذكر الروايات التي تتناول يقينيّة ظهور الإسلام على الأديان كلها؛ ولكن في حدود الأرض وحدها، كما في حديث عباية بن ربعي: قال أمير المؤمنين عليّ كرّم الله وجهه، في الآية ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ والآية ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾: "والذي نفسي بيده، لا تبقى قريّة إلا ونودي فيها بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمّداً رسول الله، بكرة وعشيّاً"

وكما في حديث الشيخ الصدوق في كمال الدين بسنده عن النبيّ صلى الله عليه وآله في كلام منقول عن الله تعالى يقول فيه: "لأظهرنّ بهم ديني ولأعلينّ بهم كلمتي ولأطهرنّ الأرض بآخرهم [يعني الأئمة المعصومين عليهم السلام] من أعدائي ولأملكنهم مشارق الأرض ومغاربها.... حتى يُعلن دعوتي ويجمع الخلق على توحيدي"

وحديث الصدوق عن محمّد بن مسلم الثقفي قال: سمعت أبا جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام يقول: "القائم منّا... يبلغ سلطانه المشرق والمغرب، ويظهر الله عز وجل به دينه، على الدين كلّه ولو كره المشركون، ولا يبقى في الأرض خراب إلا عمر"[٣].

---

(١) المصدر، الموسوعة، الشعيد الصدر، ص١٣٢.
(٢) المصدر، الموسوعة، الشهيد الصدر، ص١٣٣.
(٣) الأحاديث الثلاثة من المصدر نفسه، الموسوعة، ص٣١٨.

حيث تبدو جملة الأحاديث وكأنها تتحدّث عن عالم الأرض وحده تساوقاً مع الفهم العام للأمة. ولكن السيّد الشهيد لا يقف عند هذه المرحلة بل ينتقل إلى مرحلة أكثر قربا من الكونيّة عند إيراده أحاديث أخرى لا يقف مضمونها عند الأرض وحدها، وإنما يمتدّ إلى الأكوان، حيث أورد حديثاً اخرجه الشيخ المفيد في الإرشاد قال: "ولم يبق أهل دين حتى يظهروا الإسلام، ويعترفوا بالإيمان. أما سمعت قوله سبحانه: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾".

وأخرج عن المجلسي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام: "كأني بأصحاب القائم وقد أحاطوا بما بين الخافقين، ليس من شيء إلا وهو مطيع لهم"[1].

حيث يستشفّ من هذه الأحاديث أنها لا تتكلم على الأرض وحدها بل عن (السموات والأرضين) وعن كلّ (أهل دين) وعن (ما بين الخافقين) وسيتبيّن بالبحث أنّ هناك في السماوات حملة أديان وأهل أديان.

وكما أشرتُ في مقدّمة حديثي عن الشهيد الصدر وعن منهجه في التلميح والتصريح نراه يقف عادة عند نقطة محددة تخصّ كونيّة الدولة المهدويّة، ولا يتجاوزها، ثمّ يعود إلى الحديث عن عالميتها، ربّما لأنّ فهم العالميّة بمقتضاه الشموليّ الذي لم يتحقق من قبلُ لأيّ قوّة عرفت في التاريخ، يبدو عصيّ الفهم على بعض العقول، فكيف لو تحدّث عن شموليّتها الكونيّة وغزو المجرّات؟

وعليه تجده يسهب في الحديث عن العالميّة ويتمنع في الحديث عن الكونيّة، لا لكي يقف عند هذه الحدود، وإنما لكي يمهد الأجواء للحديث عن الكونيّة بعد أن يستوعب عصي الفهم والمعاند صدق العالميّة وإمكانيّة تحققها، فتراه يتحدث عن جانب واحد من آيّة: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ وهم (الإنس) ويقول: "ثمّ يتضح بجلاء أنّ عمل الإمام

(١) المصدر نفسه، الموسوعة، ص٣١٩.

المهديّ عليه السلام وقيادته وأهدافه في البشريّة هي الأهداف التي أرادها الله تعالى **لخليقته من حين وجودها**، وهي نتيجة جهود الأنبياء والأولياء والصالحين جميعاً، وهي تطبيق العدل الكامل والعبادة المحضة في ربوع المجتمع الإنساني (الإنس) كلّهم، على ما نطقت به الآية الكريمة... ولا يمكن أن يكون هذا الهدف ضيّقاً أو مقتصراً على قوم دون قوم أو مجتمع دون مجتمع أو دولة دون دولة، فإن نسبة البشريّة إلى الخالق الحكيم وإلى الأهداف التي توخاها في خليقته، نسبة واحدة متساوية، إذن فالهدف يجب أن يكون عامّاً شاملاً.... إذن من الطبيعيّ أن نفهم من الآية الكريمة نفسها أنّ دولة الإمام المهديّ عليه السلام ستكون شاملة للإنس كلهم وللمجتمع البشريّ كله"[١].

وأسأل هنا: لِمَ تحدّث الشهيد الصدر عن قسم واحد من القسمين اللذين تكلمت عليهما الآية (الجنّ والإنس)؛ فذكر الإنس وأغفل دور الجنّ رغم أنّ استخدام القرآن لكلمة الجنّ لا يعني اقتصار معناها عليهم وحدهم؟

الواقع أنّ السيّد الشهيد لم يغفل هذا الجانب بل أجلّ الخوض فيه كما سيتضح لنا لأسباب مقصودة لها علاقة برأينا أنه ما كان يريد التصريح علنا بكونيّة الحكومة المهدويّة وكونيّة أمر الله تعالى.

ولذا نجد له بعد هذا التوضيح رأياً يعترف فيه بالكونيّة تلميحاً؛ فيقول: "إنّ النصوص التي سمعناها في الملحوظة الأولى، صريحة في عالميّة الدولة العالميّة، مضافاً إلى اقتضاء التخطيط الإلهيّ العامّ لذلك، فتكون قرينة على أنّ المراد من التشبيه هو مجرد السعة، والشمول، دون تحديد"[٢].

حيث يستشفّ من قوله: (فتكون قرينة على أنّ المراد من التشبيه هو مجرد السعة، والشمول، دون تحديد) أنّ قرينة العالميّة من الممكن أن تكون قرينة الكونيّة بدلالة (دون تحديد) ودون تحديد تعني الإطلاق، والإطلاق أوسع من الأرض بالتأكيد.

---

(١) المصدر نفسه، الموسوعة، الشهيد الصدر، ص٣٢١.
(٢) المصدر نفسه، الموسوعة، ص٣٢٢.

ونجد له رأياً صريحاً في الفصل حيث نجده مهتمّاً بحديث لرسول الله ﷺ يتضمّن كلاماً عن الله عزّ وجلّ يقول في آخره: "ولأنصرنّه بجندي، ولأمدنّه بملائكتي، حتى يعلن دعوتي **ويجمع الخلق على توحيدي**، ثمّ لأديمنّ ملكه، ولأداولنّ الأيام بين أوليائي إلى يوم القيامة"[1] ولكن دون أن يشير إلى المقصود بقوله: (يجمع الخلق على توحيدي) وفيما إذا ما كان المقصود بالخلق هم البشر فقط أم كلّ المخلوقات الأخرى المكلفة بالعبادة بما فيهم الجنّ الذين خاطبتهم الآية المشرفة. لكن تكراره لآية (وما خلقت الجن والإنس..) في أكثر من موضع ومكان يوحي أنّه يشير إلى الخلق كلّهم بما فيهم المخلوقات الفضائيّة.

في الفصل الأوّل من الباب الثالث في حديثه عن (مجيء المهديّ عليه السلام بأمر جديد وكتاب جديد) كان هناك أكثر من تلميح للمقصود بالجدّة التي أوردت خبرها مجموعة من الأحاديث، منها ما أخرجه النعماني بسنده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام: "لكأنّي أنظر إليه بين الركن والمقام يبايع الناس على كتاب جديد على العرب شديد".

وما أخرجه بسنده عن أبي حمزة الثمالي، قال سمعت أبا جعفر محمّد بن عليّ عليه السلام يقول "لو قد خرج قائم آل محمّد... إلى أن قال: يقوم بأمر جديد وسنة جديدة وقضاء جديد على العرب شديد).

فمجموعة الأحاديث التي تتناول الجدّة التي سيقرّها الإمام المهديّ، بالتلميح، حصرت آراء العلماء في أجواء التلميح ذاته فلم يغادروه، ولذلك ادّعوا أنّ ما سيصيب الدين من تحريف وإبطال للسنن وتعطيل للحدود والاستعاضة عن قوانين الله بالقوانين الوضعيّة المحليّة والعالميّة هو الذي سيظهر قوانين الإسلام الأصيلة التي يعيد الإمام المهديّ العمل بها وكأنها جديدة للعالم الذي سيكون حينها قد نسيها بسبب التقادم.

---

(١) المصدر، الموسوعة، ص٤٣٦.

الشهيد الصدر تطرّق إلى أمور خارجة عن هذه المتعارفات الفقهيّة فقال بداية: "وهذه الأخبار بحسب أعدادها كافية للإثبات التأريخيّ، وهي تعطي عدة عناوين: الأمر الجديد/ والسنة الجديدة/ والقضاء والسلطان الجديد/ والدعاء الجديد. وليس فيها ما يدعو إلى دين جديد كما هو مشهور على بعض الألسن" وبهذه الفرضيّات حاول التعمق أكثر بالتأكيد بأنّ هناك أحكاماً إسلاميّة لم تعلن للناس أصلاً وإنما بقيت معرفتها خاصّة بالله ورسوله والقادة الإسلاميّين... وما أعلن بين الناس لكي يكون مدار عملهم وفقههم لحقبة معيّنة "ومنها أحكام بقيت مستورة عن الناس ومؤجل إعلانها إلى زمن ظهور المهديّ عليه السلام وتطبيق العدل الكامل"[1].

ومع أن مجمل الآراء التي قيلت بشأن علاقة (الجدّة) بتغيّر الأحكام الذي يعني فيما يعنيه أنّ كلّ المسلمين إلا من عصم ربّي سيكونون بعيدين عن فقه الإسلام وقوانينه بما يظهرهم وكأنهم من المرتدّين أو المطبّقين لشرائع لا تمتّ إلى شريعة الإسلام بصلة، لأنّهم إمّا أن الأحكام بقيت مستورة عنهم ولم تصل إليهم ليعملوا بها ويطبقونها، أو أنهم لم يطلعوا على قوانين الإسلام فعملوا ورضخوا للقوانين السائدة في عصرهم، وهم في الحالتين لم يعملوا بشرائع الإسلام، وتبدو محصلة هذا العمل سواء كان مقصوداً أم غير مقصود وكأنّ المسلمين في زمن الانتظار ليسوا مسلمين حقيقيّين ولا يعرفون من قوانين الإسلام وسننه إلا شيئاً يسيراً.

هذا التصور، إذا ما أخذناه بعموميّته من الممكن أن يوظفه أعداء التشيّع للطعن بالفكر الشيعيّ الذي يبدو منه؛ وكأنه يؤمن بالقطيعة مع العقيدة، ويبدو وكأنه يكفر كلّ المسلمين، ويبدو وكأنه يشكك بمقدرة النبيّ على إيصال سنن الإسلام كافة للمسلمين، لهذا السبب ولسبب آخر أكثر منه أهمّيّة تحدّث الشهيد الصدر عن هذه المعضلة من حيث أهمّيّتها الفقهيّة، وحاول بالحديث

(١) المصدر نفسه، الموسوعة، الشهيد الصدر، ص٤٤٤.

عنها التلميح إلى كونيّة المهدويّة فقال: "إننا نجد بالوجدان أنّ عدداً مهمّاً من الأحكام لم يكن في الإمكان أن يصدر في صدر الإسلام وزمن القادة الإسلاميّين الأوائل **لعدم معرفة المجتمع بموضوعها بالمرّة وعدم مناسبتها مع المستوى الفكريّ والثقافيّ له**... كحكم ركوب الطائرة واستعمال القنابل الجرثوميّة وحكم زرع القلب وغير ذلك. ومعه فالضرورة مقتضية لتأجيل بيان الأحكام وإعلانها إلى ما بعد معرفة المجتمع بموضوعها، وهذا لا يكون مع البعد عن مصدر التشريع بطبيعة الحال، وإنما تعلن عند اتصال البشريّة مرّة ثانية بهذا المصدر متمثلاً بالإمام المهديّ"[١] أي: المقصود أنّ تكامليّة الإسلام استوجبت أن تكون فيه الحلول للمشكلات المستقبليّة كافة التي سترافق التطوّر الحضاريّ العالميّ، وهي التي لم تكن من فائدة للحديث عنها في عصر البعثة المشرفة؛ لأنّها لم تكن موجودة بالأساس.

وفي السياق نفسه تحدّث الشهيد الصدر عن النقص والقصور في الأحكام الإسلاميّة في أثناء عصر الانفصال عن عصر التشريع، من جهات عدّة جاء في الجهة الخامسة منها قوله: "تعمّق الفهم الكونيّ من الناحية العلميّة، كالطبّ والفيزياء والكيمياء والفلك"[٢] وهي أمور قد لا تلامس فقه العبادات إلا يسيراً ولكنها ترتبط بفقه ظهور الإسلام على الأديان كلها ارتباطاً لا شكّ فيه نستجلي به علاقة ظهور الدين بالكونيّة وحكم الأكوان والمجرّات، ولكن الشهيد الصدر رحمه الله أبقى كلامه حمّال وجوه في الإشارات التي تحتمل الوجهين العالميّ والكونيّ بما يبدو أن لا تفاضل بينهما في الدرجة والمقدار.

ونجد هناك إشارات أخرى للشهيد الصدر في منتهى الأهمّيّة والوضوح تبدو مقصورة على الكونيّة وحدها، وتجد خلاصتها في قوله: "سيشارك المجتمع المعصوم في البناء الكونيّ بصورة فعالة وايجابيّة لأنّ عصمة المجتمع

---

(١) المصدر، الموسوعة، الشهيد الصدر، ص٤٤٥.
(٢) المصدر، الموسوعة، ص٤٤٧.

البشريّ سوف تجعله في أعلى درجات الانسجام مع الكون الذي يسير تكوينيّاً وفق أحكام الله الممثلة في السنن والقوانين الكونيّة" حيث تبرز أمامك مصطلحات غريبة على الأسماع منها: المجتمع المعصوم/البناء الكونيّ/ الانسجام مع الكون/ السير تكوينيّاً وفق السنن/ القوانين الكونيّة. مجموع هذه المصطلحات يتعلق بشأن واحد هو الكونيّة دون سواها، ولاسيّما تصوّر مسير الكون تكوينيّاً وفق السنن الإلهيّة الكونيّة. ولكن الشهيد الصدر رحمه الله لم يتوسّع في تبيان نوع المشاركة التي سيمارسها البشر في البناء الكونيّ الفضائيّ متمثلة في السنن والقوانين الكونيّة، وهو في حديثه عن عصمة المجتمع البشريّ المهدويّ التي سوف تمكنه من غزو الفضاء والتواصل مع سكانه للإسهام في بناء عقائدهم أورد دليلاً أكيداً على الكونيّة بمفهومها الأوسع، ويبدو حسب السيد الشهيد أنّ هذا الغزو سوف يكون فكريّاً؛ فضلاً عنه حربيّاً؛ لأنّ الانسجام الذي تحدّث عنه السيّد الشهيد يدلّ على أنّ مرحلة الحرب بين الأكوان كانت قد انتهت سواء على يد الإمام المهديّ عليه السلام أو بسبب ظهوره وتغييره للسياسات الدنيويّة التي كانت تتحكم بهذا الصراع وانتصاره على الأشرار من بينهم، وحلّ بدلا عن الحرب الانسجام.

ولو كان الشهيد الصدر(رضوان الله عليه) قد توسّع قليلاً في هذا الجانب وتحدّث عن كيفيّة مشاركة المجتمع المعصوم في البناء الكونيّ، أي البناء العقائديّ في الأكوان الأخرى لأكد بما لا يقبل الشكّ على امتداد السلطة المهدويّة إلى الأكوان والمجرّات الأخرى، لأنّ هذه المشاركة لا يمكن أن تتحقق إلاّ بعد أن يقوم الإمام المهديّ عليه السلام ببناء أسسها بعد فتحه لتلك الأكوان وأسلمتها بالكامل. ولو قيّض للشهيد الصدر الثاني أن يشير إلى هذه الحقيقة صراحة ومن دون تمويه منذ ذلك التاريخ لكان قد أسهم في وضع قوانينها ومبانيها، ومدّ العلماء الغربيّين بنظريّات علميّة يمكن البناء عليها لاستنتاج نظريّات كونيّة جديدة، فقد كان قريباً جدّاً من حقيقتها ويقينيّتها؛ لأنه كان يقف على حافاتها الأماميّة ويتلامس معها ويقلب فيها النظر والفكر، بل

أجزم أنه كان يعرف حقيقتها ويؤمن بيقينيّتها؛ ولكنه لم يرغب في الحديث عنها والتعمّق في مباحثها في حينه لأسباب تبدو منطقيّة جدّاً حينما ندرك أنّ العالم عندما تحدّث الشهيد الصدر بهذا الأسلوب لم يكن قد اكتشف بعد الكثير من المعلومات عن المخلوقات الفضائيّة والعلوم الفلكيّة، وأرى لو أنّ الله سبحانه مدّ في عمر الشهيد الصدر الشريف سنيناً أخرى، لكان قد أعلن عن مرحلة الكونيّة الفضائيّة صراحة، بما لا يقبل الشكّ.

أطروحة السيّد هبة الدين الشهرستانيّ

العالم العلم السيّد الشهرستاني[1] كان متبحراً بعلوم الهيئة وملمّاً بعلوم الفلك، وبفضل هذه العلوم كان من أكثر الباحثين قرباً من حقيقة كونيّة المهدويّة، يبدو ذلك واضحاً بتوسّعه في الحديث عن علاقة سكان الأرض بسكان الكواكب الأخرى في زمن الدولة المهدويّة، ولكنه ـ مع ذلك ـ لم يشر بوضوح إلى امتداد السلطة المهدويّة إلى هذه الأكوان حيث قال في شرحه لمعنى (الرقي في الأسباب) الوارد في الروايات: "فأحتملُ أن يكون إشارة إلى تكميل الأسباب السماويّة الناقصة في عصرنا ومن مثل المناطيد والطيارات وبقيّة المراكب الهوائيّة التي ترقى بالإنسان وتصعد به بمعونة البخار أو الأجنحة أو غيرها إلى السماء فلربّما تتكامل هذه الأسباب والمراكب إلى عصر المهديّ القائم الموعود بحيث تنزح بالركاب من كرتنا إلى باقي الكرات السامية... فلا يستبعد حصول ما نظنه مستحيلاً؛ فلربّما يأتي يوم تتهيّأ لك آلة تعرج بك من كرتنا الهوائيّة؛ فتجول في بيداء الفضاء بعد تكميل المقدّمات والمبادئ وإزالة جملة الموانع العائقة في طريقك فتستعدّ حين ذاك للمهاجرة إلى الكرات السامية والمعاشرة مع أهاليها وساكنيها كما

(١) هو العلامة السيد محمّد علي هبة الدين يرجع نسبه إلى محمّد بن الحسن السابسي إلى الإمام زين العابدين، المولود بسامراء سنة ١٨٨٦ والمتوفى سنة ١٩٦٧ عالم من أعلام الفقه والأدب والفلك، كان علما في مواقفه وأدبه وثقافته وتخرج على يده أعلام في جوامع النجف الأشرف، تولى عدة مناصب منها وزارة المعارف سنة ١٩٢١.

يحدّثنا به القرآن الكريم ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾[١] ولذا يمكن أن ترتقي العلوم عند سكنة هاتيك الكرات فينزلون إلينا بأسبابهم، ونتعلم منهم الصعود إليهم والسفر إلى كراتهم"[٢].

حيث يبدو السيد الشهرستاني بقوله هذا واثقاً يعرف ما سيؤول إليه الأمر في زمن الظهور ولاسيّما التواصل بين سكان العوالم وسكان الأرض.

وجاء عنه في مكان آخر من البحث توضيح لهذا التزاور في قوله: "ربّما يأتي يوم يتزاور أهل أرضنا وكرتنا مع أولئك الأحياء الذين يعيشون في الكرات الكونيّة الأخرى نتيجة للتقدّم العلميّ الذي ساد العالم وطبّق الآفاق والذي ننتظر ازدياده وتناميه في كلّ يوم وفي كلّ ساعة وحينذاك تنفتح أبواب الذهاب والإياب والسفرات المنظمة بين الأرض وسائر العوالم الأخرى وتسهل الإقامة في الكرات لسهولة تهيئة الأسباب واللوازم المناسبة للكرة التي نريد الإقامة فيها... وربّما ترتبط الكرات مع بعضهنّ أكثر ممّا قلنا ويكون الأمر الإلهيّ شاملاً لها على السواء، ينهجون كلهم شرعاً واحداً ولا يختلفون في شيء أبداً"[٣].

فانظر إلى لطيف قوله [ويكون الأمر الإلهيّ شاملاً] وقوله الآخر [ينهجون كلّهم شرعاً واحداً] فكأنه يشير إلى ما نحن بصدد إثباته اليوم رغم أنه لم يتحدث عن السبب الذي يجعل الأمر الإلهيّ شاملا أو عن السبب الذي سيؤدي إلى توحيد شرائعهم بشريعة واحدة، هي شريعة الإسلام حتماً لأنه من غير المعقول أن يتحقق ذلك كله تلقائيّاً من دون سبب أومسبب، في وقت يؤمن فيه المعتقد الإسلاميّ بالأسباب ومسبباتها إيماناً ثابتاً، ولأنّ الله سبحانه ختم الرسالات السماويّة برسالة سيدنا النبيّ الأكرم ﷺ فمن غير المعقول أن

(١) سورة الحجر، الآية ١٤.
(٢) الهيئة والإسلام، هبة الدين الشهرستاني، ص١٢٢ ـ ١٢٣.
(٣) المصدر نفسه، الهيئة والإسلام، ص٢٢٤.

يرسل نبيّاً جديداً ليتولى هذه المهمة الصعبة. بل انظر لقوله الرائع (وربّما ترتبط الكرات مع بعضهنّ) والارتباط يدل حتماً على وجود رابط وثيق ومؤثر، والرابط هو الحكم المهدويّ بالتأكيد.

فإذا كان حدوث كلّ هذه التبدلات تلقائيّاً من المستحيلات، وإرسال نبيّ جديد للقيام بهذه المهمّة أيضاً من المستحيلات التي لا يقبل العقل تصديقها؛ لأنّ نبيّنا ﷺ خاتم الرسل والأنبياء، إذن يجب أن يكون هنالك من يتولى هذا التغيير المنتظر. ولا شك أنه المهديّ الذي سيحكم الأكوان كلها، لأنه آخر مصلح مدخر للبشريّة وللأكوان.

وأستغربُ كثيراً أن يقف هذا العالم الجليل أيضاً عند حافات نظريّة الكونيّة المهدويّة ويكتفي بمغازلة حقيقتها عن بعيد،من دون أن يحاول الخوض في غمار هذه الحقيقة التي صار قريباً جدّاً منها، ف؛ فضلاً عن امتلاكه كلّ المؤهلات والإمكانيّات المطلوبة لم يتحدّث مثلا عن الوسيلة أو الواسطة التي سيصبح الأمر الإلهيّ بموجبها شاملاً والشرع الكونيّ واحداً وهو يعرف قبل غيره أنّ القضيّة مشروطة، لا يتحقق الأمر إلا بوجود المُحَقِق ولا يُنجز إلا بوجود المُنْجِز!!

إن ما جاء به المرحوم السيّد الشهرستاني يتلخص بمعنى أنّ فكرة الرقي في الأسباب هي حمل المسافرين إلى الكواكب السيّارة... "وقد يكون ارتقاء المهديّ في الأسباب إشارة إلى دخول العالم في طور جديد من العمران والمدنيّة"[1] ونجد هنا أنّ رأي المرحوم عالم سبيط النيلي يتقارب جدّاً مع رأي السيد الشهرستاني في الكونيّة، فهما يشتركان بقناعة دخول العالم في طور جديد من المدنيّة، وربّما يكون النيلي قد استقى نظريّة (الطور المهدويّ) ممّا جاء به المرحوم السيد الشهرستاني، ثمّ بنى عليها رؤاه؛ لأنّ عصر السيد الشهرستاني يسبق عصر النيلي.

---

(١) المصدر نفسه، الهيئة والإسلام، ص١٢٣.

يؤيّد السيد الشهرستاني استنتاجاته بحديث جاء في نهاية رأيه المذكور آنفاً أورده عن الإمام عليّ عليه السلام في صفة القائم من آل محمّد صلى الله عليه وآله يقول: "فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع وأراكم ما كنتم تأملون"[1] وهو التكامل الذي تحدث عنه المرحوم النيلي أيضاً. ولكن، وللأسف الشديد، لم يتحدّث أيٌّ منهما عن حقيقة هذا التبدل التكامليّ، وإلاّ لكانوا قد توصلوا إلى حقيقة كونيّة الحكومة المهدويّة منذ زمن بعيد.

وعجيب كيف أنّ ثلاثة من عمالقة العلم هم بحسب التسلسل الزمانيّ؛ السيّد الشهرستانيّ، والسيّد الشهيد محمّد الصدر، والمرحوم عالم سبيط النيلي؛ كانوا يتعاملون وموضوع الكونيّة بكلّ هذا الوضوح؛ ولكنهم لم يعلنوا أبعاده الحقيقيّة أمام الملأ، واكتفوا بالمعلومات المقتضبة التي أدلوا بها، وهذا ما حتمته عليهم منزلتهم الدينيّة؛ لأنّ لعلماء الدين والباحثين الدينيّين أساليب فيها الكثير من التحرّي والحرص في طرح المواضيع المثيرة التي تقبل أكثر من وجه، على خلاف رجال العلوم البحت والتطبيقيّة الذين يدلون برأيهم بعد تثبتهم من صحته ولا يضيرهم أن يأتي بعدهم عالم آخر؛ ليفنده برأي جديد، فهؤلاء يؤمنون بأنّ النظريّات العلميّة قابلة للنقض في أيّ وقت. وعليه نجد علماء الفلك وغيرهم يطرحون آراءهم من دون تهيّب كما يتبيّن من القولين أدناه.

وهنا أريد الإشارة إلى الأهمّيّة القصوى التي يمثلها رأي السيّد الشهرستاني بإيراد رأيين لأحد الأساتذة المتخصصين المعاصرين المقيمين في فرنسا؛ وهو الدكتور جواد بشارة الذي يقول في الرأي الأول: "استناداً إلى معطيات علميّة راسخة وجادّة ونصوص تاريخيّة قديمة جدّاً، توفرت معلومات تراكمت عبر عقود طويلة من البحث والتدقيق تقول: سيكون بوسع الإنسان على الأرض خلال بضعة عشرات من العقود الخروج إلى الفضاء الخارجيّ،

(١) الهيئة والإسلام، الشهرستاني، ص ١٢٤.

وسيتمكن من تطوير وسائل نقل جويّة فضائيّة تعمل بمحرّكات دفع تقنيّة عالية وثوريّة توفر سرعات تفوق التخيّل، وقد تقرب من سرعة الضوء، ستتيح للبشر السفر بين الكواكب والنجوم في رحلات مأهولة برواد فضاء وعلماء من كافة الاختصاصات، والبحث بواسطة رحلات استكشافيّة داخل مجموعتنا الشمسيّة وخارجها"[١].

ويقول في الرأي الثاني: سيأتي زمن ليس ببعيد جدّاً، وربّما بعد بضعة عقود، ليثبت للعالم البشريّ وجود الكائنات الفضائيّة الذكيّة والحضارات المتقدّمة جدّاً علينا وهي التي ستباشر الاتصال بنا على نحو مباشر بعد أن تطوّر قليلاً أكثر ممّا نحن عليه اليوم، وستنضمّ الأرض إلى كونفدراليّة فضائيّة كونيّة تنظم العلاقات بين الحضارات الكونيّة المتجاورة رغم المسافات الهائلة التي تفصل بينها. هل يقهر البشر "المستحيل" بفضل العلم؟[٢].

أطروحة السيّد فاروق الموسويّ

وآخر الآراء التي وجدتها جديرة بالاهتمام كان رأي السيّد فاروق الموسويّ مؤلف كتاب (الحتميّات من علائم الظهور) في قوله: "لعلّ في السماء عوالم أكثر رقيّاً من عالمنا تنتظر ساعة الظهور لتقوم بما يترتب عليها القيام"[٣].

وهذا الرأي واحد من أخصّ الآراء التي أوردها الموسويّ في كتابه تحت عنوان (أمور مهمّة جديرة بالاهتمام) ولكنه توقف عند هذه الحدود أيضاً، ولم يتوسّع بالحديث عنها في مطاوي البحث. ثمّ إنّه أورد في أوّل قوله كلمة (لعلّ) الاحتماليّة بما يدلّ على أنه يحتمل وجود هؤلاء الأقوام، ولا يوقن بحقيقة

---

(١) المستقبل السحيق: رحلة نحو عوالم أخرى، الدكتورجواد بشارة، الرابط
http://www.iraker.dk/index.php?option=com_content&task=view&id=11450&Itemid=99

(٢) الأجسام المحلقة مجهولة الهويّة، حقيقة أم خيال؟،الدكتور جواد بشارة، موقع (الناس)
http://al-nnas.com/ARTICLE/JBashra/25kn4.htm

(٣) الحتميات من علائم الظهور،فاروق الموسوي، ص٤٢.

وجودهم، أو أنّه بين الشكّ واليقين من وجودهم. لكنّه على الإجمال يشير إلى حقائق مهمّة جدّاً لا يمكن المرور عليها من دون اهتمام، تتحدّث كلّها عن الكونيّة بأسلوب غامض، ومنها:

الأولى: حديثه عن عوالم السماء، وهي التي أكثر رقيّاً من عالمنا الأرضيّ. ورأيه هذا يتساوق ورأي السيد الشهرستاني ورأي المرحوم عالم سبيط النيلي.

الثانية: حديثه عن انتظار أهل السماء لمقدم الإمام المنتظر. وهو رأي من أخصّ الآراء بعلاقة ظهور الإمام المهديّ بظهور الدين استقيناه من روايات سوف تمرّ عليكم في مطاوي البحث.

الثالثة: حديثه عن مشاركة هذه الأقوام في ضمن واجباتها بالجهد المهدويّ. وهو مثل سابقه مأخوذ ممّا ورد في الروايات، التي سيمرّ علينا قسم منها في أثناء البحث. وهو أيضاً من أخصّ الآراء، ففيه اعتراف بانضواء تلك الأكوان وسكانها تحت راية حكومة الإمام المهديّ عجّل الله فرجه.

وممّا لا يمكن إغفاله أنّ هناك في أقوال السيد الشهرستاني، والسيد الشهيد الصدر، والمرحوم عالم سبيط النيلي؛ وفي أقوال أخرى لمجموعة من العلماء والمتخصّصين بالشأن المهدويّ ما يؤكد أنّ ثلة خيّرة من علمائنا لم يكونوا قريبين من كونيّة المهدويّة فحسب، بل كانوا على يقين من وجودها وحتميّتها، فثمّة إشارات واضحة في أطروحاتهم تؤكد هذه الحقيقة وهذا الفهم، ولكنهم، كما يبدو ظاهراً أجلوا الخوض في فرعياتها ربّما لأنّ الناس كانوا غير مؤهلين لتقبل مثل هذه الأطروحات يومذاك، أو لأنّ الوضع العامّ لم يكن مهيّاً لتقبل مثل هذه الآراء، أو لأنّ الضغوط السياسيّة لم تسمح بتداول مثل هذا الحديث،ولذلك أشاروا إليها من بعيد، وأشعلوا فتيل قنديلها منتظرين منه أن يتحوّل إلى شمس بنورها الساطع الوهاج تجلي الحجب عن كونيّة المهدويّة بتلاقح مضامينها الفكريّة مع تطوّر العلوم وغزو الفضاء المستقبليّ، وتوفر الأسباب لخلق فضاءات رحبة تمهّد الطريق للباحثين، لكي

يلقى طرحها وتداولها القبول والاستحسان، لأنها ستكون حينها قريبة من تفكير الناس اليوميّ ومعايشتهم الحقيقيّة للتطوّر الفضائيّ بما لا يدعو إلى الدهشة أو الاستغراب.

ومن الصدف أنني لم أكن أملك قبل زمن ليس بالبعيد تصوّراً واضحاً عن كونيّة المهدويّة بالمعنى الذي أتحدّث عنه اليوم، ولذا قلت في كتابي الموسوم (الحركات المهدويّة المدّعية لماذا الآن) المنشور عام **٢٠٠٨** في سياق حديثي عن انتشار فكرة المنقذ المنتظر عند الأمم: "إنّ أطروحة المنقذ تسيّدت الخارطة الجيوسياسيّة للكون المعمور عبر التاريخ"[١] وكنت أقصد بذلك طبعاً الجزء المعمور من الكرة الأرضيّة لا أكثر، أو هكذا كنت أظنّ. وذلك أنّي كنت متأثراً بمصطلح الكونيّة بمعناه الضيّق الذي يعني العولمة فمصطلح (العولمة) (globalization) الذي نُقل إلى العربيّة بمعنى (كونيّة) إنما يقصد به في اللغة الإنكليزيّة ما يتصل بالكرة الأرضيّة ولا يتعدّى حدودها؛ لأنّ (glob) ترمز إلى الكرة الأرضيّة وحدها ولا علاقة للتسمية بالأكوان الفضائيّة الأخرى.

ما يمكن استخلاصه من الآراء المذكورة آنفاً مجتمعة:

* إنّ التصوّر السائد الآن بين الناس من أصحابنا عن حكم الإمام المهديّ (عج) للكون هو استعارة مجازيّة وليس حقيقيّة.

* إنّ ورود كلمة (كون) في هذا النصّ أو ذاك يدلّ على حقيقة تعني خلاصتها: إنّ كلّ المؤثرات الكونيّة التي ستقع قبل الظهور وبعده بما فيها انقلاب الموازين الكونيّة، وتحقق السنن الكونيّة إنما هي مقدّمات ومرافقات لمرحلتي الظهور والتكامل (مرحلة النشوء/ ومرحلة الصيرورة والتكامل) سنها الله لدعم الدولة المهدويّة التي سوف تقوم داخل حدود الأرض المعروفة أوّلا، وتُخضع كلّ الأجناس البشريّة

(١) الحركات المهدويّة المدعيّة، لماذا الآن؟، صالح الطائي.

المعروفة التي تعيش في كلّ أجزائها إلى حكومتها، ثمّ تنطلق لنشر العدل في الكون كلّه.

* إنّ بعض علمائنا ومثقفينا أدركوا حقيقة الكونيّة بمعناها الأشمل ولكنهم لم يتوسعوا بالحديث عنها، أو أبقوا أمرها سرّا في قلوبهم ولم يظهروه.

من هنا جاء اعتقادي بل يقيني بأنه لم يسبق لأحد من الباحثين أن أشار إلى حقيقة خروج السيطرة والسلطة والحكومة المهدويّة من الأرض وامتدادها إلى آفاق بعيدة في الأكوان المجهولة الأخرى امتداداً فعليّاً. كما لم يسبق لأحد أن تقصى أمرها تقصّياً منفرداً ومتخصّصاً، وتوسّع في مباحثها بدل الشكل الضمنيّ الذي جاء في سياق بحوث أخرى، رغم أنّ آياتها ودلالاتها كانت وما زالت شاخصة أمام أبصارنا وغير خافية على أحد.

أمّا ما ولّد عندي هذا الاعتقاد فهو أني وجدت ببحثي المتواصل فيما يخصّ المهدويّة وفكرها مجموعة من النقول الصحيحة التي تشير صراحة إلى علاقة المهدويّة الصميميّة وليس المجازيّة بالعوالم الخارجيّة الأخرى بما لا يدع مجالا للشك في صدق هذه الكونيّة، ولاسيّما أنّ هناك مجموعة من علمائنا كانوا قد أشاروا في مباحثهم إلى أنّ تواصلاً من نوع خاصّ سوف يحدث بين سكان الدولة المهدويّة البشريّين مع سكان الكواكب والأجرام السماويّة من المخلوقات الأخرى التي لا نعرف كنهها، ولكن بسبب قلة هذه النقول ووجودها مبعثرة في بطون الكتب وعدم وجود تفسيرات منطقيّة لها في بعض الأحيان، أو بسبب تأويلها في مقاصد أخرى بعيدة عن معنى الكونيّة التفاعليّة، وتحرج المعاصرين في مخالفة آراء العلماء الأفاضل الماضين الذين جاءوا بهذه الآراء، بات أمر تقصيها ومتابعتها والحديث عنها صعباً نوعاً ما، خصوصاً أنه أمر قد يرْفضه المتلقون؛ سواء كانوا من العلماء والمختصين بالشأن المهدويّ أم من العامة المتعلقين بالمهدويّة، أو من المخالفين الذين طالما ادّعوا أننا نضخم شأن المهدويّة كثيراً لشدّة غرابته.

وآخر ما أريد قوله بهذا الصدد أني ـ بحدود علمي ـ أجد مادّة البحث ما زالت بكراً لم يسبق للباحثين والمتخصصين بالشأن المهدويّ الخوض في عمق غمارها، ولكنها تبدو اليوم أقرب إلى الحقيقة منها إلى الخيال، وإلى التصديق منها إلى التكذيب، وإلى القبول منها إلى الرفض، ولاسيّما بعد أن تطوّرت العلوم، ونجح الإنسان في غزو الفضاء والاقتراب من الكواكب التي لا ترى بالعين المجردة أو حتى بالمراقب المتطوّرة، وتصويرها والحصول على معلومات عنها بحيث تكاثرت في الآن الأخير مثل هذه الأخبار.

وسوف تمرّ عليكم في فصول الكتاب مجموعة من الروايات والأحاديث التي تنقل لنا أخبار وجود المياه في الفضاء، وإمكانيّة وجود الحياة فيه، ولذا أجد أنّ معلوماتنا التي جمعنا حصيلتها ممّا جاء عن النبيّ ﷺ وأهل البيت عليهم السلام قد تسهم عند مقارنتها مع المعلومات الجديدة في حث العلماء الغربيّين للنظر في مفاهيمها، ومن بعدُ البحث في أصولها ممّا يعطيهم تصوّراً رائعاً عن العلوم الإسلاميّة المستقاة من آيات القرآن وأحاديث النبيّ الأكرم ﷺ وأهل بيته الكرام عليهم السلام ولاسيّما أنهم على يقين أنّ أغلب علومهم الحاضرة هي من نتاج العقل المسلم الذي أبدعها وقدّمها لهم على طبق من ذهب.

وهذا جزء من مجموع ما آمُله وأرجوه من وراء كتابة هذا البحث الذي يقوم على استنطاق مجموعة من النصوص المقدّسة، ومقاربة ما جاء فيها ببعض المعطيات العلميّة التي أفرزها علم الفضاء الحالي، ثمّ مقايسة الجهد الحشديّ لانبثاق الأطروحة والظهور المنتظر مع النتائج التي يعطيها تحشيد بعض هذا الجهد في الميدان العمليّاتيّ الدنيويّ لمعرفة الفارق بين الجهدين والنتيجتين، وحينئذٍ معرفة حقيقة الدوافع التي تقف خلف أقوال من يدّعون أنّ الدولة المهدويّة سوف تنهار بعد زمن يسير من تاريخ نشأتها حتى إنّ البشريّة آنذاك يتنكرون لكلّ القيم بما فيها الإيمان بالله! وهو القول الذي يتداوله جمع من المسلمين قديماً وحديثاً ربّما لأنّهم عجزوا إلى الآن عن تسقيط العقيدة

المهدويّة وحذفها من منظومة العقائد الإسلاميّة، فرأوا أنّ تحديد عمرها بسنين معدودات قد يزرع اليأس في نفوس عشاقها، ويعزيهم هم أصحاب هذا الادّعاء بخيبتهم الكبيرة.

الفصل الثاني

الاستدلال على حقيقة امتداد سيطرة الحكومة المهدويّة إلى العوالم الأخرى

الاستدلال عن طريق المصاديق

الاستدلال على يقينيّة كونيّة الحكوميّة المهدويّة وامتداد سيطرتها إلى كلّ العوالم الأخرى خارج مجرّتنا يمكن إثباته عن طريق مجموعة من المصاديق العقليّة والنقليّة المترابطة، التي تبيّن بما لا يقبل الشكّ حقيقة المهدويّة التي يتصارع المسلمون اليوم حول مبانيها اليقينيّة الكليّة التي هي أبسط كثيراً من موضوع الكونيّة، هذا الموضوع الذي يبدو شائكاً وغير قابل للتصديق من أوّل وهلة، وهو الذي قد يعدّه بعضهم ترفاً فكريّاً أو تطرّفاً وغلوّاً شيعيّاً خالصاً. ولاسيّما أنّ هنالك من يعدّ الكثير من مصاديق القضيّة المهدويّة المؤكدة والمسندة قرآنيّاً وحديثيّاً من الغلوّ الشيعيّ، ويستهجن حتى قولنا، الذي استقيناه من قول رسول الله ﷺ بأنّ الإمام المهديّ سوف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، حيث يعترض الدكتور "طه حامد الدليمي" على هذا الموضوع المتواتر والمسلم به، وهو الذي وردت رواياته الصحيحة في نقول المدرستين، ولم يختلف فيه المسلمون الأوائل، بقوله: "القول بأنّ شخصاً ما يملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً، إذا كان المقصود بالأرض كلّ الأرض ـ **ولاسيّما كما يتصوّر عامّة الشيعة** أنّ ذلك سيحدث بلمسة ساحر، وأنّ الأمور كلّها ستتغيّر وتصفو تماماً بمجرد مجيئه وينشدون في ذلك قولهم: (اطلع يا المهديّ وصفيها) ـ هذا القول **من أسخف الأقوال المخالفة للمنقول**، والمباينة للمعقول، **فإنّ رسول الله ﷺ نفسه لم يتمكن من القيام بهذا الدور الخياليّ، ولا أحد من الأنبياء عليهم السلام، ولا الصحابة الكرام، ولا عليّ بن أبي طالب** الذي هو أفضل من (**المهديّ**) **المزعوم!** بل كان [أي:

الإمام عليّ عليه السلام] مغلوباً على أمره لم يتمكن من بسط العدل المطلوب في عاصمة خلافته؛ فضلاً عن غيرها. ما معنى أن يعطى هذا الدور الكبير لشخص ما ولا يعطى لرسول الله صلى الله عليه وآله"[١].

ونحن لا نريد هنا التعليق على هذا الرأي الساذج؛ لأنّه يدلّ صراحة على جهل قائله بالسنن الإلهيّة التي أدار ويدير الخالق المتعال بها الكون وصولا إلى المهدويّة سواء من حيث تدرج مهامّ الأنبياء أو تدرّج أهمّيّة الرسالات السماويّة الذي هو ليس خافياً على أحد من العقلاء والمنصفين. وإلاّ فإنّ الله سبحانه غير عاجز عن هداية الناس أجمعين من دون حاجة حتى إلى إرسال الرسل إليهم، فلِمَ لمْ يهدِهم أجمعين بدل أن يرسل إليهم رسلاً يبلغونهم رسالاته؟ والله غير عاجز أن ينصر نبيّه الأكرم على قريش المشركة وأهل الكتاب وأهل الأرض أجمعين دونما حاجة إلى الحروب والهجرة والعذاب، فلِمَ لمْ ينصره دون حاجة إلى سفك دم وحروب ودمار؟ والجواب أن الله سبحانه أراد للكون أن يسير وَفق منطق رائع، منطق السنن وصولاً إلى مرحلة الامتحان الأخير، ليتبيّن الذين عبدوا الله من الذين لم يعبدوه مصداقاً لقوله سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢].

وقبل إتمام السرد سأورد بعض الأخبار والروايات التي تبيّن سذاجة ادّعاء الدكتور الدليمي ومخالفته للحقائق العقائديّة والتاريخيّة؛ لكي نعرف مقدار تحامل أعداء المهدويّة عليها وعلى المؤمنين بها وتعمّدهم الدسّ حتى ولو بالتحريف، وهذه الروايات ليس من تراث مدرسة أهل البيت، عسى أن يعرف الرجل ما جنته يداه نتيجة مخالفته لما ورد في نقول مدرسته، وهي نقول تاريخيّة تتحدّث عن مجموعة من الأشخاص الذين مكنهم الله تعالى من ملك الأرض كلّها رغم أنّ فيهم جنّاً وفيهم ملوكاً جبابرة، وليس من بينهم من هو

---

(١) ينظر كتاب المهديّ المنتظر هذه الخرافة، د. طه حامد الدليمي. أما الرد على هذا القول المكرر فتجدونه تحت عنوان (المشاريع المؤجّلة) الذي سيرد لاحقا.

(٢) سورة الذاريات، الآية ٥١.

مكلف بالمهامّ المقدّسة نفسها المكلف بها الإمام المهديّ عجّل الله فرجه. ففي كتاب المنتظم في التاريخ أفرد ابن الجوزي باباً ذكر فيه أسماء من ملك الأرض كلها، وفيه، عن مجاهد أنه قال: "ملك الأرض أربعة أنفس: مؤمنان وكافران فأمّا المؤمنان فسليمان بن داوّد وذو القرنين، وأمّا الكافران فبخت نصر ونمرود"(١). وهؤلاء أربعة نفر قيّض الله لهم ملك الأرض كلها، فكيف يدّعي الدليمي ما يخالف ذلك؟

وفي الباب نفسه قال ابن الجوزي: "وقد حكى أبو الحسين بن جعفر المنادي: أنّ هشام بن محمّد والشرقي بن قطامي قالا: ملك الدنيا كلها من الجنّ والإنس ثمانية: فثلاثة منهم من ولد جانّ: جيومرث وبعضهم يقول جيومرب بالباء، ثمّ ملكها بعده طهمورث ثمّ ملكها من بعده ابنه أوشنج، فخلق اللّه تعالى آدم على عهد أوشنج وكان أول من ملك الدنيا من أولاد آدم جمشاد بن بونجهان من ولد قابيل **وكان يقطع الدنيا كلّ يوم كما تقطعها الشمس يضحي بالمشرق ويمسي بالمغرب** ملكها بين آدم ونوح. والثاني: نمرود بن كنعان بن حام بن نوح. والثالث: بوارسب وهو الضحاك بين الأهبوب. والرابع سليمان. والخامس ذو القرنين. قلت: وإذا أضيف بخت نصر صاروا ستة"(٢).

أما مخالفة الرجل العقائديّة للقرآن والسنة، فمن حيث مخالفته للقرآن تبيّنها آية: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ التي سنتناولها بالتفصيل لاحقاً وهي التي اتفق كبار المفسرين كالطبري والقرطبي وابن الأثير بأنها لن تتحقق إلاّ في عصر الظهور، بما يعني أنّ الإسلام سوف ينتصر على كلّ الأديان في الكون، وتكون قيادة الكون إسلاميّة صرفاً، وعندذاك بصفتها تحصيل حاصل

---

(١) المنتظم في التاريخ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، الجزء الأول، باب: ذكر من ملك الأرض كلها.

(٢) المصدر نفسه، والباب نفسه، المنتظم.

تملأ الأرض والأكوان كلها بالعدل والقسط، وذلك سوف يكون ويتمّ بأمر الله تعالى، ومن يكذب بوعد الله إنما يكذب الله سبحانه.

ومخالفته للسنّة تبيّنها مجموعة الأحاديث النبويّة المسندة التي تدلّ جميعها على أنّ الإمام المهديّ المنتظر هو الذي سوف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، وهذه الأحاديث من الشهرة بمكان بما لا يوجب معه إعادة ذكرها كلها بكلّ طرقها، ولذا سأكتفي بإيراد البعض منها ممّا ورد في كتب مدرسة الخلفاء فقط؛ لكي أفضح تدليس هذا الرجل الدكتور ومخالفته لما جاءت به كتبهم نفسها.

قال الحافظ العسقلاني في تهذيب التهذيب: "وقد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى ﷺ في المهديّ وأَنه من أهل بيته، وأنّه يملك سبع سنين ويملأَ الأرض عدلاً"[١].

وقال ابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة: "قال أبو الحسين الآجري: قد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها على المصطفى ﷺ بخروجه وأنه من أهل بيته وأنه يملأَ الأرض عدلاً"[٢].

وقال الشبلنجي في نور الأبصار[٣]: "تواترت الأخبار عن النبيّ ﷺ أنه من أهل بيته وأنّه يملأَ الأرض عدلاً".

وقال الشيخ محمّد الصبان في إسعاف الراغبين: "وقد تواترت الأخبار عن النبيّ ﷺ خروجه وأنه من أهل بيته وأنّه يملأَ الأرض عدلاً"[٤].

---

(١) تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، الجزء ٩، ص١٤٤.
(٢) الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، ابن حجر الهيتمي، ص١٦٥.
(٣) نور الأبصار في مناقب آل بيت المختار، مؤمن الشبلنجي، ص١٧١.
(٤) إسعاف الراغبين في سيرة المصطفى وأهل بيته الطاهرين، محمّد بن علي الصبان، ص١٤٠.

قال السويدي في سبائك الذهب: "والذي اتفق عليه العلماء أنّ المهديّ هو القائم في آخر الوقت وأنّه يملأ الأرض عدلاً"[١].

وأخرج الحاكم في مستدركه: "عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: تملأ الأرض جوراً وظلماً فيخرج رجل من عترتي يملك الأرض سبعاً أو تسعاً، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً"[٢].

وأخرج أحمد بن حنبل في مسنده: "عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى يملك رجل من أهل بيتي أجلى أقنى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت قبله ظلماً يكون سبع سنين"[٣].

وأخرج عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً قال: ثمّ يخرج رجل من عترتي أو من أهل بيتي يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً"[٤].

وأخرج أبو داوّد في السنن: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "المهديّ منّي أَجلى الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ويملك سبع سنين"[٥].

وأخرج عليّ بن أبي بكر الهيثمي في مجمع الزوائد عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يخرج رجل من أُمتي يقول: بسنّتي، ينزل الله عزّ وجلّ له القطر من السماء وينبت الله له الأرض من بركتها، تملأ الأرض منه قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً"[٦].

وأخرج الذهبي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: "ذكر رسول الله ﷺ بلاء

---

(١) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، محمّد أمين البغدادي السويدي، ص٧٨.
(٢) المستدرك على الصحيحين، الحاكم الحسكاني، الجحزء ٤، ص٥٨٨.
(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، الجزء ٣، ص١٧.
(٤) المصدر نفسه، الجزء ٣، ص٣٦.
(٥) سنن أبي داوّد، الجزء ٤، ص١٥٢.
(٦) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، الجزء ٧، ص٣١٧.

يصيب هذه الأمّة حتى لا يجد الرجل ملجأ يلجأ إليه من الظلم فيبعث الله رجلاً من عترتي أهل بيتي فيملأ به الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً"[١].

وهذا غيض قليل من فيض كثير من الأحاديث التي أكدت أنّ المهديّ المنتظر هو الذي سوف يملأها قسطاً وعدلاً كما لم يحدث مثله أو قريباً منه من قبل، رغم أنف المعارضين والمعترضين والمدلسين.

يقودنا هذا التباين الفكريّ إلى الحديث عن عقدة كانت وما زالت تقف عثرة كأداء بين اتفاق المدرستين الإسلاميتين على مبانٍ كثيرة منها صحّة العيش وإمكانيّته لمدد غير محدودة بأمر الله تعالى، مع أنّ الفكرين متفقان على وجود حقيقتها في تراثهما ونقولهما ورواياتهما، ونظراً إلى وجود كمّ كبير من الأحاديث والروايات التي تتناول قصص الدجّال وأقوام يأجوج ومأجوج في فكر مدرسة الخلفاء، والروايات والأحاديث التي تتحدّث عن طول عمر المهديّ قبل الظهور وبعده في روايات مدرسة أهل البيت، فلا بأس من إجراء مقاربة في ضمن هذا السياق، لعلاقة ذلك بموضوع كونيّة المهدويّة، وعلاقته بطول عمر الدولة المهدويّة.

---

(١) تذكرة الحفاظ، الذهبي، الجزء ٣، ص٨٣٨.

الكونيّة وطول العمر

يختلف الآخرون معنا في قولنا بغيبة الإمام المهديّ كلّ هذه السنين، ويختلفون في طول عمره الشريف، بل وحتى في ولادته وكونه ابن الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام بالرغم من صحّة أحاديث المدرستين وتواترها في هذا الشأن، ففي ذات الوقت الذي يؤمن فيه المنتقد المعيب مثلاً بصحّة الأخبار التي تتحدّث عن طول عمر (الدجّال) الذي هو من شخصيّات عصر الظهور، وصحّة أخبار طول عمر أقوام يأجوج ومأجوج الذين هم أيضاً من شخصيّات عصر الظهور، ولا يماري في ذلك ولا يشكك، بل يعدّ إيمانه بذلك من اليقينيّات التي لا يجوز تكذيبها، لأنّ أحاديثا نبويّة أخرجها البخاري ومسلم في كتبهم تكلمت على ذلك، نجده لا يرضى عن قولنا بطول عمر الإمام المهديّ، يجعل من هذا التفكير حقيقة ثابتة الوجود وغير قابلة للنقاش أو النقد في ضمن خطّ الانتقائيّة المسيسة المعمول به نفسه تأريخيّاً. وهنا أجد أنه لا بأس من الحديث عن طول عمر الدجّال لعلاقة ذلك بعقيدتنا في طول عمر الإمام المهديّ (عجّل الله فرجه الشريف) على أن أتوسّع بالحديث عن أقوام يأجوج ومأجوج بما فيه أعمارهم الطويلة في مطاوي البحث لاحقاً.

طول عمر الدجّال

سوف نتناول في هذا المبحث مسألة طول عمر الدجّال وبعض الجزئيّات الأخرى، ونظراً إلى كثرة الأحاديث عن الدجّال وعلاقة خروجه بالمشروع المهدويّ العامّ؛ سوف يتكرّر ذكره في مواطن أخرى من البحث.

إنّ الأحاديث التي ورد فيها ذكر طول عمر الدجّال كثيرة، منها ما أخرجه

مسلم عن عمران بن حصين عن النبيّ ﷺ: "ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر [أي: مخلوق أطول عمراً] من الدجّال"[١] فضلاً هناك مجموعة كبيرة من الأحاديث الأخرى التي جيء بها لتساير هذا الحديث وتدعمه وكلها تدّعي أنّ النبيّ ﷺ أخبر أمته أنّ كلّ الأنبياء السابقين حذروا أقوامهم من الدجّال ابتداء من نبيّ الله نوح عليه السلام فنازلاً، كما في حديث عبدالله بن عمر الذّي جاء فيه: "قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثمّ ذكر الدجّال فقال: إنّي لأنذركموه، وما من نبيّ إلا قد أنذر قومه، لقد أنذر نوح قومه"[٢] وكما في الحديث عن أنس أنّ النبيّ ﷺ قال: "ما من نبيّ إلا وقد أنذر الدجّال أمّته، أو قال حذر الدجّال أمّته"[٣] وفي البخاري ٤/ ١٦٣ عن أبي هريرة: "ألا أحدثكم حديثاً عن الدجّال ما حدث به نبيّ قومه، إنه أعور، وإنه يجيء معه بمثال الجنة والنار... وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه"[٤] كما روى البخاري في صحيحه ٥/ ١٢٥ عن ابن عمر أنّ النبيّ ﷺ قال في حجّة الوداع: "ما بعث الله من نبيّ إلاّ أنذر أمته، نوح والنبيّون من بعده، وإنه يخرج فيكم"[٥].

إنّ ورود اسم نبيّ الله نوح عليه السلام في الحديث يعني أنّ الدجّال كان موجوداً حتى قبل الرسالة الأولى لنوح أبي البشر الثاني وأقرب الأنبياء زمناً إلى عصر أبينا آدم عليه السلام، وأنّ نوحاً والأنبياء الذين جاءوا من بعده كانوا يعلمون بوجود الدجّال، وهو الدجّال عينه الذي زامن بعثات باقي الأنبياء بعد نوح، ولذا حذروا أقوامهم منه كما قال رسول الله ﷺ الذي حذر في الوقت نفسه المسلمين من الدجّال نفسه الذي كان موجوداً في زمن نوح.

---

(١) صحيح مسلم حديث ٢٩٤٦ ص١٢٣٥.
(٢) أورده الصدوق في كمال الدين وإتمام النعمة، ص٤٨٠ للاستشهاد به.
(٣) المعجم الموضوعي، الشيخ علي الكوراني، ص٤٤ ـ ٤٥.
(٤) المصدر نفسه، المعجم الموضوعي، ص ٤٥.
(٥) المصدر نفسه، المعجم الموضوعي، ص٤٨.

ولا يقف الأمر عند هذا الحدّ بل يتعدّاه إلى خصوصيّة أكثر تتمثل بادّعاء بعض الصحابة أنهم كانوا يعرفون الدجّال شخصيّاً، كما في الحديث الذي أخرجه البخاري: "إن جابر بن عبدالله: كان يحلف بالله أنّ ابن الصائد الدجّال! [أي إنّ ابن صائد هو الدجّال] قلت: تحلف بالله؟ قال: إنّي سمعت عمر يحلف على ذلك عند النبيّ ﷺ فلم ينكره النبيّ ﷺ"[١] وفي سنن أبي داوّد: "حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا يعقوب يعني ابن عبد الرحمن عن موسى بن عقبة عن نافع قال: كان ابن عمر يقول: والله ما أشك أنّ المسيح الدجّال ابن صياد"[٢] والحديث الآخر عن عمر أنّ النبيّ ﷺ قال: "بينا أنا نائم أطوف بالكعبة فإذا رجل آدم سبط الشعر ينطف أو يهراق رأسه ماء قلت: من هذا؟ قالوا ابن مريم، ثمّ ذهبت ألتفتُ فإذا رجل جسيم أحمر جعد الرأس أعور العين كأن عينه عنبة طافية، قالوا: هذا الدجّال أقرب الناس به شبهاً ابن قطن رجل من خزاعة"[٣] والأحاديث التي تقول إنّ النبيّ ﷺ كان يقرب صور الأشخاص الذين يتحدّث عنهم لأصحابه عن طريق تشبيههم ببعض الصحابة كثيرة كما في قوله ﷺ: "دحية الكلبيّ يشبه جبرائيل، وعروة بن مسعود الثقفيّ يشبه عيسى بن مريم، وعبد العزى يشبه الدجّال"[٤] وهي أحاديث معروفة للجميع.

بل وهنالك أحاديث أخرى تدّعي أنّ النبيّ ﷺ نفسه كان يظنّ بل ويعتقد أنّ ابن صائد هو الدجّال كما يظهر من نهاية حديث عبدالله بن عمر قال: "كنا مع رسول الله فمررنا بصبيان فيهم ابن صياد ففرّ الصبيان وجلس ابن صياد فكأنّ رسول الله ﷺ كره ذلك فقال له النبيّ: تربت يداك، أتشهد أني

---

(١) المعجم الموضوعي، الشيخ الكوراني، ص٤٠ عن صحيح البخاري ٨/ ١٠٨، وفي صحيح مسلم، حديث رقم ٢٩٢٩ ص١٢٢٥، وسنن أبي داوّد، كتاب الملاحم، باب في خبر ابن صائد، ص١٢١، حديث رقم ٤٣٣١، الجزء الرابع.

(٢) سنن أبي داوّد، كتاب الفتن، جزء الرابع، حديث رقم ٤٣٣٠.

(٣) المصدر نفسه، سنن ابي داوّد.

(٤) معجم أحاديث الإمام المهديّ ج٣ ص٦٤.

رسول الله؟ فقال: لا، بل تشهد أني رسول الله. فقال عمر بن الخطاب: ذرني يا رسول الله حتى أقتله. فقال رسول الله ﷺ: إن يكن الذي ترى فلن تستطيع قتله"[١].

وفي سنن ابي داوّد: "حدثنا أبو عاصم خشيش بن أصرم حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن سالم عن ابن عمر أنّ النبيّ ﷺ مرّ بابن صائد في نفر من أصحابه فيهم عمر بن الخطاب وهو يلعب مع الغلمان عند أطم بني مغالة وهو غلام فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده، ثمّ قال أتشهد أني رسول الله قال فنظر إليه ابن صياد فقال أشهد أنك رسول الأميّين، ثمّ قال ابن صيّاد للنبيّ ﷺ أتشهد أني رسول الله فقال له النبيّ ﷺ آمنت بالله ورسله، ثمّ قال له النبيّ ﷺ ما يأتيك قال يأتيني صادق وكاذب فقال له النبيّ ﷺ خلط عليك الأمر، ثمّ قال رسول الله ﷺ إني قد خبّأت لك خبيئة وخبّأ له يوم تأتي السماء بدخان مبين قال ابن صياد هو الدخّ فقال رسول الله ﷺ اخسأ فلن تعدوَ قدرك؛ فقال عمر يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه فقال رسول الله ﷺ **إن يكن فلن تسلط عليه يعني الدجّال، وإلاّ يكن هو فلا خير في قتله**"[٢].

ولذلك كان هنالك تصوّر عامّ عند بعض المسلمين ولا أقول كلهم أنّ ابن صائد هو الدجّال بعينه لا شكّ في ذلك، وإنهم كانوا يتجنّبون إغضابه؛ لأنه بحسب ما لديهم من قناعة يعلن دعوته ويظهر دعوته نتيجة الغضب، فعن نافع قال: "لقي ابن عمر ابن صائد في بعض طرق المدينة فقال له قولاً أغضبه، فانتفخ حتى ملأ السكّة. فدخل ابن عمر على حفصة وقد بلغها، فقالت: رحمك الله ما أردت من ابن صائد؟ أما علمت أنّ رسول الله قال: إنما يخرج من غضبة يغضبها"[٣].

---

(١) صحيح مسلم حديث ٢٩٢٤ ص١٢٢٤ باب الفتن.
(٢) سنن أبي داوّد، كتاب الملاحم، باب في خبر ابن صائد، حديث رقم ٤٣٢٩.
(٣) مسلم حديث ٢٩٣٢، ص١٢٢٦.

ولا أدري كيف يستقيم كلّ هذا مع قول النبيّ ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة: "ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلاّ غنًى مطغياً أو فقراً منسياً...أو الدجّال، **فالدجّال شرّ غائب ينتظر**، أو الساعة، فالساعة أدهى وامرّ"[١] أي كيف يستقيم قوله ﷺ أنه غائب ينتظر وادّعاؤهم أنّ الدجّال هو ابن صائد؟

ولمعرفة نظرة أتباع مدرسة الخلفاء لابن صائد أو ابن صياد أورد هنا بعض آرائهم فيه، ورؤاهم عنه وجدتها في دراساتهم وبحوثهم، ومنها قولهم: ابن صياد اسمه: صافي، وقيل عبدالله بن صياد أو صائد، كان **من يهود المدينة**، وقيل **من الأنصار**، كان شبيهاً بالدجّال في كثير من صفاته، وكان **صغيراً** عند قدوم النبيّ ﷺ إلى المدينة. **وقيل إنه أسلم**. كان ابن صياد دجّالاً، وكان يتكهن أحياناً فيصدق ويكذب، فانتشر خبره بين الناس، وشاع أنه الدجّال. فأراد النبيّ ﷺ أن يطّلع على أمره ويتبيّن حاله، **فكان يذهب إليه متخفياً حتى لا يشعر به** رجاء أن يسمع منه شيئاً، وكان يوجه إليه بعض الأسئلة التي تكشف عن حقيقته. وقد عاش بعد النبيّ ﷺ **ثمّ فُقِدَ** يوم الحرّة.

وقالوا كذلك: "**وقد حاول الرسول** ﷺ أكثر من مرّة كشف أمره ومعرفة حقيقته". وهذا يدلنا على أنه لم يوحَ إلى النبيّ في أمره شيء، فقد روى مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمر (رض) أنّ عمر بن الخطاب انطلق مع رسول الله ﷺ في رهط قِبَل ابن صياد حتى وجده يلعب مع الصبيان عند أُطُمِ بني مغالة، **وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم**، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده. ثمّ قال رسول الله ﷺ لابن صياد: "أتشهد أني رسول الله؟" فنظر إليه ابن صياد، فقال: أشهد أنك رسول الأميّين. **فقال ابن صياد** لرسول الله ﷺ: "أتشهد أني رسول الله؟" فرفضه رسول الله ﷺ وقال: "آمنت بالله وبرسوله" ثمّ قال له رسول الله ﷺ: "ماذا ترى؟" قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب، فقال له رسول الله ﷺ: "خلط عليك

---

(١) مسند الشهاب، ابن سلامة القضاعي، الجزء ٢، ص٣٢.

الأمر". ثمّ قال له رسول الله ﷺ: "إني قد خبأت لك خبيئاً"، فقال ابن صياد: هو الدخّ، فقال له رسول الله ﷺ: "اخسأ فلن تعدو قدرك"، فقال عمر بن الخطاب: ذرني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال له رسول الله ﷺ: "إن يكنه فلن تسلط عليه، وإن لا يكنه فلا خير لك في قتله"[١].

بعض معاني الكلمات الواردة في الحديث ودلالتها:

قَوْله: "أُطُم" بِضمتَينِ بِنَاء كَالْحِصنِ.

وَ"مَغَالَة" بطن مِن الأَنصَار.

وَقَوله "فَرَفَضَهُ" أَي تَرَكَه.

وقَوله: "لَه فِيهَا رُمْزَة أَوْ زُمْرَة" وفي رواية زَمْزَمَة: بِمعنَى الصوت الْخفِيّ، أو تَحرِيك الشفَتَينِ بِالْكَلام، أو الكلام الغامض[٢].

يستدلّ من معاني الكلمات أنّ ابن صائد ليس يهوديّاً وإنما هو من الأنصار أهل المدينة من غير اليهود بدلالة وجوده في حصن أو بيت عند بني مغالة، وهم بطن من الأنصار وليس مع يهود المدينة حيث كان اليهود يجتمعون بعيداً عن أهلها الآخرين.

نعم هناك رواية أخرجها الترمذي عن أبي سعيد الخدري جاء فيها: "لقي رسول الله ﷺ ابن صائد في بعض طرق المدينة فاحتبسه **وهو غلام يهوديّ وله ذؤابة** ومعه أبو بكر وعمر فقال له رسول الله ﷺ: تشهد أني رسول الله؟ فقال: أتشهد أنت أني رسول الله؟ فقال النبيّ ﷺ: آمنت بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر. فقال له النبيّ ﷺ: ما ترى؟ فقال: أرى عرشاً فوق الماء قال النبيّ ﷺ: يرى عرش إبليس فوق البحر. قال: ما ترى؟ قال: أرى صادقاً وكاذبين، أو صادقين وكاذباً. قال النبيّ ﷺ: لبس عليه فدعاه"[٣] ولكنها

---

(١) رواه مسلم ٤/ ٢٢٤٤ برقم٢٩٣٠.

(٢) يُنظر فتح الباري شرح الحديث في كتاب الجنائز من صحيح البخاري.

(٣) سنن الترمذي حديث رقم ٢٢٤٧.

رواية يتيمة بل تكاد تكون الرواية الوحيدة التي أشارت إلى أنه يهوديّ له ذؤابة، ومضمونها يتعارض وباقي الروايات.

وقالوا: لقد خرج إليه رسول الله ﷺ مرّة أخرى، كما روى مسلم عقب الحديث السابق، عن سالم بن عبدالله قال: "سمعت عبدالله بن عمر يقول: انطلق **بعد ذلك** رسول الله ﷺ وأبي بن كعب الأنصاري إلى النخل التي فيها ابن صائد، حتى إذا دخل رسول الله ﷺ النخل، **طفق يتقي بجذوع النخل، وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئاً** [أي يستغفله ليسمع منه شيئاً يعرف به حقيقته] قبل أن يراه ابن صياد فرآه رسول الله ﷺ وهو مضطجع على فراش في قطيفة، له فيها زمزمة [صوت خفيّ لا يكاد يفهم] فرأت أمّ صائد رسول الله ﷺ وهو يتقي بجذوع النخل، فقالت لابن صائد: يا صاف [وهو اسم ابن صياد] هذا محمّد، فثار ابن صياد، فقال رسول الله ﷺ: "لو تركته لبيَّن"[(١)].

قال النووي في شرحه على مسلم في ابن صياد: "قال العلماء: وقصته مشكلة، وأمره مشتبه في أنه هو المسيح الدجّال المشهور أم غيره، ولا شك في أنه **دجال من الدجاجلة**، قال العلماء: وظاهر الأحاديث أنّ النبيّ ﷺ **لم يوحَ إليه بأنه المسيح الدجّال، ولا غيره، وإنما أوحي إليه بصفات الدجّال**، وكان في ابن صياد قرائن محتملة، فلذلك كان النبيّ ﷺ **لا يقطع بأنه الدجّال ولا غيره**، ولهذا قال لعمر: "إن يكن هو فلن يستطيع قتله"[(٢)] بينما كان عمر بن الخطاب يجزم بأن ابن صائد هو الدجّال، وكذلك كان عبدالله بن عمر، فقد روى أبو داوّد بإسناد صحيح عن ابن عمر أنه كان يقول: "والله ما أشك أنّ ابن صائد هو المسيح الدجّال"[(٣)] فكيف لا يقطع النبيّ بأنّ ابن صائد هو الدجّال ويجزم صحابة آخرون بانه الدجّال!؟

---

(١) رواه مسلم ٤/ ٢٢٤٤) برقم ٢٩٣١ والبخاري ١٣٥٥.
(٢) شرح النووي على مسلم: ١٨/ ٤.
(٣) شرح النووي على مسلم: ١٨/ ٤٦.

ونقل النووي عن البيهقي قوله: "ليس في حديث جابر أكثر من سكوت النبيّ ﷺ لقول عمر، **فيتحمل أنه ﷺ كان كالمتوقف في أمره**، ثمّ جاءه البيان أنه غير، كما صرح به في حديث تميم"[١] فهلا منع توقف النبيّ عمر وابنه عن الجزم بأن ابن الصياد هو الدجّال؟

لقد أوقعهم التباين في تخبّط كبير ولاسيّما الادّعاء بأنّ ابن صياد ادّعى النبوّة في زمن النبيّ ﷺ فتعللوا بقولهم: "قد يقال: كيف يدّعي النبوّة ويتركه الرسول ﷺ: فيجاب: لأنّه قد كان بين الرسول ﷺ وبين اليهود عهد في تلك الأيام" وهذا من خطل الرأي فلو قتل أحد اليهود مسلماً من أهل المدينة أكان سينجو بفعلته على جعل وجود العهد أم كان سيخضع للحساب النبويّ العسير؟ فكيف بمن يدّعي كذباً النبوّة؛ وهي فتنة أشدّ من قتل شخص واحد؛ لأنها تعرض الأمّة كلّها إلى الخطر؟

المهمّ أنهم في تكملة قصّتهم عن ابن صيّاد قالوا: إنه مكث بعد الرسول مدّة ليست قصيرة امتدّت إلى وقعة الحرّة، وادّعى في أثنائها الإسلام، ولكن الناس لم يثقوا بإسلامه، وبقوا يتشككون في أمره، هذا ابن عمر كما يروي مسلم يلقى ابن صائد مرّتين، فيقول لبعض من معه: هل تحدّثون أنه هو؟ قال: لا، والله. قال: قلت: كذبتني، والله، لقد أخبرني بعضكم أنّه لن يموت حتى يكون أكثركم مالاً وولداً، فكذلك هو زعموا اليوم. قال ابن عمر: فتحدّثنا، ثمّ فارقته. ثمّ لقيه ابن عمر لقية أخرى، وقد نفرت عينه [ورمت، ونتأت] قال: فقلت: متى فعلت عينك ما أرى؟ قال: لا أدري. قال: قلت: لا تدري وهي في رأسك؟ قال: إن شاء الله خلقها في عصاك هذه، قال فنخر كأشدّ نخير حمار سمعت، قال: فزعم أصحابي أني ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت، وأمّا أنا، فوالله ما شعرت".

وفي رواية أخرى في مسلم أنّ ابن عمر قال له قولاً أغضبه، فانتفخ حتى

---

(١) شرح النووي على مسلم ٤٨/١٨.

ملأ السِّكة، فدخل ابن عمر على حفصة وقد بلغها، فقالت له: رحمك الله، ما أردت من ابن صائد؟ أما علمت أنّ رسول الله ﷺ قال: "إنما يخرج من غضبة يغضبها"[١].

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري قوله: "خرجنا حجّاجاً أو عمّاراً ومعنا ابن صائد قال: فنزلنا منزلاً فتفرق الناس وبقيت أنا وهو فاستوحشت منه وحشة شديدة ممّا يقال عليه، قال: وجاء بمتاعه فوضعه مع متاعي فقلت: إنّ الحرّ الشديد فلو وضعته تحت تلك الشجرة، قال: ففعل، قال: فرفعت لنا غنم فانطلق فجاء بعسّ [قدح كبير] فقال: اشرب أبا سعيد. فقلت: إنّ الحرّ شديد واللبن حارّ. ما بي إلا أني أكره أن أشرب عن يده، أو قال: آخذ عن يده، فقال: أبا سعيد لقد هممت أن آخذ حبلاً فأعلقه بشجرة ثمّ أختنق ممّا يقول لي الناس، يا أبا سعيد من خفي عليه حديث رسول الله ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار ألستم من أعلم الناس بحديث رسول الله؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ: "هو كافر" وأنا مسلم؟ أو ليس قد قال رسول الله ﷺ: "هو عقيم لا يولد له" وقد تركت ولدي بالمدينة؟ أو ليس قد قال رسول الله ﷺ: "لا يدخل المدينة ولا مكة" وقد أقبلت من المدينة وأنا أريد مكة؟"[٢].

ولكن الأدلة التي ساقها ابن صياد وهي التي تطابق ما ورد في حديث رسول الله ﷺ عن عصمة الله تعالى لمكة والمدينة من الدجّال، اهتزت وفقدت تأثيرها في نفس أبي سعيد بعد أن تابع ابن صياد كلامه قائلاً: "أما والله إني لأعلم الآن حيث هو وأعرف أباه وأمه قال: وقيل له: أيسرّك أنك ذاك الرجل؟ فقال: لو عرض عليّ لما كرهت"[٣].

وقالوا: "في امتحان النبيّ ﷺ له ما يدلّ على أنّ النبيّ ﷺ **كان متوقفاً في أمر ابن صياد لأنه لم يُوحَ إليه أنه الدجّال** ولا غيره. **وكان كثير من**

---

(١) صحيح مسلم: (٤/ ٢٢٤٧) برقم: (٢٩٣٢).
(٢) رواه مسلم: ٤/ ٢٢٤٢ برقم ٢٩٢٧.
(٣) رواه مسلم: ٤/ ٢٢٤٢برقم ٢٩٢٧.

الصحابة يظنون أن ابن صياد هو الدجّال. وكان **عمر بن الخطاب(رض) يحلف أنه الدجّال بحضرة النبيّ** ﷺ وحضرة الصحابة، **ولم ينكر عليه النبيّ** ﷺ ذلك. وفي الحديث عن محمّد بن المنكدر قال: "رَأَيْتُ جابِر بن عبدالله يحلف بالله أَنَّ الصائِد الدجّال. قلْت: تَحلِف بالله؟ قَالَ: إِني سمِعت عمر يحلف علَى ذلك عند النبيّ ﷺ فَلَم ينكِره النبيّ"(١).

وقولهم: "إنّ النبيّ ﷺ كان متوقفاً في أمر ابن صياد لأنه لم يُوحَ إليه أنه الدجّال ولا غيره" يعني أنّ الله سبحانه لم يخبر النبيّ ﷺ بحقيقة أكثر الكائنات تهديداً لأمّة الإسلام ودينها، وهذا في الواقع منهج معروف هدفه خلق حجب ضبابيّة وتغليف الأحداث بها لأسباب تخريبيّة أكثر منها إصلاحيّة، وهي من صنع الأمويّين ووعاظ دولتهم. ويتبيّن صدقنا وحكمنا في الصفحات القادمة من البحث التي تنقل عنهم أقوالاً أخرى عن توقف النبيّ في هذا الأمر أو ذاك ومن أقرب الأمثلة ما سيرد عليكم بعد قليل بشأن توقف النبيّ في مكان الدجّال رغم أنّ الداري أخبره برؤيته، حتى إنه يقول للمسلمين: "ألا **إنه في بحر الشام**، أو **في بحر اليمن**، لا بل **من قبل المشرق .ما هو من قبل المشرق**، ما هو من قبل المشرق" والرواية التي تبيّن هذا التردّد النبويّ سوف تمرّ عليكم عند حديثنا عن روايات فاطمة بنت قيس.

المهم أنه بالرغم من تلك الأحاديث التي رووها عن دجّال عصر النبوّة فقد كان ابن صياد **لمّا كبر** [ولا أدري كيف يكبر وهو أكبر عمراً من نوح] يحاول الدّفاع عن نفسه ويُنكر أنه الدجّال ويُظهر تضايقه من هذه التهمة، ويحتجّ على ذلك بأنّ ما أخبر به النبيّ من صفات الدجّال لا ينطبق عليه.

وقد التبس عليهم ما جاء في ابن صياد، وأشكل عليهم أمره، **فمن قائل إنّه الدجّال**، ومنهم **من يقول إنّه ليس الدجّال**، ومع كلّ فريق دليله، فتضاربت أقوالهم كثيراً، وقد اجتهد ابن حجر في التوفيق بين هذه الأقوال، فقال:

---

(١) رواه البخاري برقم ٦٨٠٨.

"أقرب ما يجمع به بين ما تضمنه حديث تميم وكون ابن صياد هو الدجّال: أنّ الدجّال بعينه هو الذي شاهده تميم موثوقاً، وأنّ ابن صياد هو شيطان تبدّى في صورة الدجّال في تلك المدّة، إلى أن توجه إلى أصبهان فاستتر مع قرينه، إلى أن تجيء المدّة التي قدّر الله تعالى خروجه فيها"[١].

وهذا لا يعني أنّ ابن حجر وفق في توحيد الأقوال لا أكثر، فمن قال إنّ ابن صائد فقد يوم الحرّة لم يذكر مكان اختفائه على حين يدّعي ابن حجر أنّه ذهب إلى أصبهان وهو أمر غريب. ثمّ إنّ تميم الداري وكما سيتبيّن من البحث كان قد شاهد الدجّال وذكر ذلك للنبيّ ﷺ ولم يدّعِ أنّه شبيه لابن صائد. كما أخبر النبيّ أنه شاهده في الشام وليس في أصبهان، كذلك لا توجد أيّ قرينة تثبت أنّ ابن صائد شيطان تبدّى في صورة رجل. وأرى أنّ سبب هذا الخلط يعود إلى الخلط الوارد في الروايات التي ذكر فيها ابن صائد من جهة، والخلط الذي حدث بين روايات قصّة ابن صائد والروايات التي تتحدّث عن الدجّالين الذين سيظهرون قبل ظهور الإمام القائم كما في قول أبي هريرة "قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالون كلّهم يزعم أنه رسول الله"[٢].

الغريب في الأمر أنّ ابن صائد على شديد خطره على الدين وأهله عميت أخباره عليهم ولم ترد أيّ إشارة عنه في الكتب ولم يتكلم عليه أحد بعد ذلك التاريخ، نعم هناك حديث أورده أبو داوّد في سننه عن سالم، عن جابر بن عبدالله قال: "فقدنا ابن صياد يوم الحرّة"[٣] فأين ذهب ولِمَ لمْ يتابع الصحابة وأصحاب الروايات أخباره وقد حذرهم النبيّ منه؟ بل لِمَ لمْ يتابعوا أسرته وأبناءه مع أنّ هناك روايات قالت إنّه تزوّج ورزق بذرّيّة وكانوا معه في المدينة

(١) فتح الباري ١٣ / ٣٢٨.
(٢) سنن ابي داوّد، كتاب الملاحم، باب في خبر ابن صائد، حديث رقم ٤٣٣٣.
(٣) سنن أبي داوّد، حديث رقم ٤٣٣٢.

المنوّرة؟ هل معنى هذا أنهم لم يرغبوا في متابعة أخباره؟ أم إنه انتقل إلى مكان آخر؟ أو هرب من المدينة؟ أو أنّ كلّ ما جاء عنه كان وهماً مجرّداً؟

على كلّ حال أجد في الأحاديث التي أوردتها آنفاً ردّا على من يدّعي أنّ تخويف الأنبياء لأقوامهم من الدجّال قد لا يدلّ على أنه كان موجوداً في تلك الأوقات وإنما جاء تخويفاً لهم من أن يكون ظهوره مقدّراً في وقتهم، لأنّ في الأحاديث ما يثبت أنّه كان موجوداً في زمن عصر البعثة على أقلّ تقدير متمثلاً بشخص "ابن صائد" أو الكائن الآخر الذي رآه ابن تميم الداري مقيّداً، وأنّ هناك بينهم من كان يؤمن إيماناً قاطعاً بوجوده بينهم. أمّا لِمَ لمْ يتخوّف منه المسلمون على دينهم وأنفسهم ودولتهم؟ فذلك أمر في غاية الغرابة والتعقيد. وهو سواء كان ابن صائد أو كان الكائن الذي رآه الداري، فإنه بالتأكيد ما زال موجوداً إلى الآن، وقد مُدّ في عمره، وهذا ما يعترفون به!

أمّا شيطانيّة الدجّال أو إبليسيّته، أو آدميّته؛ فالظاهر أنّ قضيّة طول عمره هي التي دفعتهم للادّعاء أنّه ليس بشراً باعتبار استحالة عيش الإنسان كلّ هذا العمر الطويل، وهي الحجّة التي يحتجّون بها علينا حينما نتحدّث عن طول عمر الإمام المهديّ (عجّل الله فرجه) ولذلك قالوا: إنّ الدجّال كان من الشياطين وليس بشريّاً كما في الحديث الذي أخرجه نعيم بن حماد في الفتن ٢/ ٥٤١ عن الكلاعي صاحب كعب الأحبار: "ليس الدجّال إنساناً إنّما هو شيطان في بعض جزائر البحر موثق بسبعين حلقة لا يعلم من أوثقه أسليمان أم غيره"[1] أقف هنا لأقول: إنّ نبيّنا الأكرم ﷺ أفضل من نبيّ الله سليمان عليه السلام، فلِمَ ينجح النبيّ سليمان في تقييد وحبس الدجّال ولا ينجح نبيّنا في ذلك ويكتفي بتخويف المسلمين منه؟ ثمّ لِمَ لمْ يقتله سليمان بدل أن يقيّده ويقي البشريّة من خطره وتهديده؟

وقد وقعوا نتيجة التشتت الفكريّ في تعارض مع النصوص، ومع أنفسهم

(١) المصدر نفسه، سنن أبي داوّد، ص ٦٦ ـ ٦٧.

حيث تجد هنالك أحاديث أخرى تقف قبالة هذا الحديث تدّعي أنّ الدجّال كائن بشريّ؛ وليس شيطاناً باعتبار أنّ ابن صائد بحسب أقوالهم ـ صبيّ بشريّ كان مع أمّه في المدينة! وقد جاء عن أبي سعيد ألخدري أنه سمعه يقول عن الدجّال الحقيقيّ: "أما والله إني لأعرفه وأعرف مولده وأين هو الآن"[١] وأنّ ابن صائد نفسه قال مرّة لأبي سعيد ألخدري (رض): "ما لي ولكم يا أصحاب محمّد؟ ألم يقل نبيّ الله: إنه يهوديّ، وقد أسلمت وقال: ولا يولد له، وقد ولد لي وقال: إنّ الله قد حرّم عليه مكة، وفي حديث آخر: لا يدخل المدينة ولا مكة، وقد أقبلت من المدينة وأنا أريد مكة"[٢].

بعدها اضطرّوا للإتيان بأحاديث أخرى تنكر أن يكون الدجّال شيطاناً؛ ولكنّها تدّعي أنّ الشياطين سيكونون من أتباعه وجنده كما في فتن ابن حمّاد أيضاً عن النبيّ ﷺ: "وإنّ من فتنته أنّ معه شياطين تتمثل على صور الناس"[٣].

كما وهناك أحاديث أخرى أكدت أنّ الدجّال من جنس البشر ولد آدم وليس شيطاناً متمثلاً ببشر، كما في الحديث الذي أورده ابن حماد أيضاً عن عبادة بن الصامت مرّة، وعن حذيفة بن اليمان مرّة أخرى: "إنّ المسيح الدجّال **رجل** قصير أفحج جعد"[٤] والحديث الآخر الذي أورده الحاكم في المستدرك والسيوطي في الدرّ المنثور: "إيّاكم والدجّالين الثلاث فقال ابن مسعود: بأبي أنت وأمّي قد أخبرتنا عن الدجّال الأعور وعن الكذابين فمن الدجّال الثالث؟ قال: **رجل** يخرج في **قوم** أوّلهم مثبور وأخرهم مثبور"[٥].

بل وهناك أحاديث أخرى تؤكد أنه ليس شيطاناً بل واحداً من أصل

---

(١) صحيح مسلم، ص١٢٢٥.
(٢) المصدر نفسه، صحيح مسلم، ص١٢٢٤ ـ ١٢٢٥.
(٣) معجم أحاديث المهديّ ج٣، ص٣١.
(٤) معجم أحاديث الإمام المهديّ، ج٣، ص٥٧.
(٥) المعجم، ج٣، ص٩١.

مجموعة من الدجّالين الآدميّين الذين سيخرجون في آخر الزمان، ومنها الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وأبي شيبة في المصنف وغيرهم بصيغ مختلفة عن النبيّ ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى ينبعث دجّالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله"[١] والحديث الآخر "والله لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذاباً أخرهم الأعور الدجّال ممسوح العين اليسرى"[٢].

أيضاً هناك رواية تقول إنّ تميماً الداري ـ وهو أحد الكتابيّين القلة الذين اعتنقوا الإسلام في عصر البعثة ـ أخبر النبيّ ﷺ أنّ الدجّال مسجون في جزيرة تقع في الشام وأنه رآه بعينه، وفي رواية أخرى أنّ أبناء عمومته هم الذين رأوه على اختلاف الروايات. والرواية رغم طولها تستحقّ عناء نقلها كاملة.

وردت هذه الرواية عن ابن أبي شيبة ١٥/ ١٥٤ عن فاطمة بنت قيس قالت: "صلى النبيّ ﷺ ذات يوم ثمّ صعد المنبر فاستنكر الناس ذلك، فبين قائم وجالس، ولم يكن يصعده قبل ذلك إلا يوم الجمعة، فأشار إليهم بيده أنِ اجلسوا، ثمّ قال: والله ما قمت مقامي هذا لأمر ينفعكم لا لرغبة ولا لرهبة، ولكنّ تميماً الداريّ أتاني فأخبرني خبراً منعني القيلولة من الفرح وقرّة العين. ألا أنّ بني عمّ لتميم الداريّ أخذتهم عاصف في البحر فألجأتهم الريح إلى جزيرة لا يعرفونها؛ فقعدوا في قوارب السفينة فصعدوا فإذا هم بشيء أسود أهدب كثير الشعر! قالوا لها: ما أنت؟

قالت: أنا الجسّاسة!

قالوا: فأخبرينا؟

قالت: ما أنا بمخبرتكم ولا سائلتكم عنه، ولكن هذا الدير قد رمقتموه

---

(١) المعجم، ج٣، ص٧٢.
(٢) المعجم، ج٣، ص٦٩.

فأتوه فإنّ فيه رجلاً بالأشواق إلى أن يخبركم وتخبروه. فأتوه فدخلوا عليه فإذا هم بشيخ موثق في الحديد شديد الوثاق كثير الشعر.

فقال لهم: من أين؟

قالوا: من الشام.

قال: ما فعلت العرب؟

قالوا: نحن قوم من العرب.

قال: ما فعل هذا الرجل الذي خرج فيكم؟

قالوا: خير، ناوأه قوم فأظهره الله عليهم فأمرهم اليوم جميع وإلههم واحد ودينهم واحد

قال: ذلك خير لهم.

قال: ما فعل نخل بين عمان وبيسان؟

قالوا: يطعم في جناه كلّ عام.

قال: ما فعلت بحيرة طبريّة؟

قالوا: تدفق جانباها من كثرة الماء.

فزفر ثلاث زفرات ثمّ قال: إني لو أنفلتُ من وثاقي هذا لم أترك أرضاً إلاّ وطأتها بقدمي هاتين إلا طيبة ليس لي عليها سلطان.

فقال رسول الله ﷺ: إلى هذا انتهى فرحي، هذه طيبة، والذي نفس محمّد بيده ما منها طريق ضيّق ولا واسع علا عليه ملك شاهر بالسيف إلى يوم القيامة"[1].

وقد جاءت هذه الرواية في صحيح مسلم بعدّة صيغ، كلها عن فاطمة بنت

---

(١) المصدر نفسه المعجم، ج٣، ص٦٧ ـ ٦٨ عن مسند أحمد ٦/ ٤١٦ وابن ماجة ٢/ ١٣٥٤ وأبو داود ٤/ ١١٨ والترمذي ٤/ ٥٢١ وأبو يعلى ٤/ ١١٩ وآخرون.

قيس أخت الضحّاك بن قيس أحد قادة معاوية المشهورين في شنّ غارات الشاميّين على تخوم العراق قبل صفين وتمهيداً لها.

الرواية الأولى قالت فيها: قال رسول الله ﷺ في حديثه عن تميم: "حدّثني أنه **ركب في سفينة** بحريّة مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام"(١).

والرواية الثانية قالت فيها: قال رسول الله ﷺ إنّ تميماً أخبره: "**إنّ بني عمّ** لتميم الداري ركبوا في البحر"(٢).

والرواية الثالثة قالت فيها: "قدم على رسول الله تميم الداري فأخبر رسول الله **أنه ركب البحر** فتاهت به سفينته"(٣).

وعادت وقالت في الرواية الرابعة: "إنّ رسول الله ﷺ قعد على المنبر فقال: أيّها الناس حدّثني تميم الداري **أنّ أناساً من قومه** كانوا في البحر في سفينة لهم فانكسرت بهم..."(٤).

وغير هذه الروايات أخرج النبهاني حديث فاطمة بنت قيس وقول رسول الله ﷺ: "أيها الناس هل تدرون لم جمعتكم؟ إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ولكن جمعتكم لأنّ تميماً الداريّ كان رجلاً نصرانيّاً فجاء فبايع وأسلم وحدّثني حديثاً **وافق الذي كنت أحدّثكم** عن المسيخ الدجّال.

---

(١) مسلم حديث **٢٩٤٢**، ص**١٢٣٢ ـ ١٢٣٣** هذا وقد اختلف النسابون في أصل لخم وجذام فروى بعضهم: أنهم من أعقاب (مَدْيَن) وأن النبيّ شعيب منهم وقال غيره: انهم من جزيرة العرب وقال آخرون: انهم من مصر وقال غيرهم: انهم من فلسطين، وقال العسقلاني في شروح الحديث من كتاب المغازي، باب غزوة ذات السلاسل: أما لخم فبفتح اللام وسكون المعجمة: قبيلة كبيرة شهيرة ينسبون إلى لخم، واسمه مالك بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد، وأما جذام فبضم الجيم بعدها معجمة خفيفة قبيلة كبيرة شهيرة أيضا ينسبون إلى عمرو بن عدي وهم إخوة لخم على المشهور، وقيل: هم من ولد أسد بن خزيمة. والظاهر انهم بطن من كهلان القحطانيّة وكانت ديارهم في كل هذه الأماكن.

(٢) مسلم، ص١٢٣٤.

(٣) مسلم، ص١٢٣٤.

(٤) مسلم، ص١٢٣٤.

حدّثني **أنه ركب** في سفينة بحريّة مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثمّ أرفئوا إلى جزيرة في البحر حين غروب الشمس" ولكن حديث فاطمة في المنتخب ختم بقول النبيّ: "ألا إنه في بحر الشام، أو في بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق. ما هو من قبل المشرق، ما هو من قبل المشرق"[١].

ولا أدري أيّ تلك الروايات هي الأصحّ، وهل تميم كان هو بطل هذه الواقعة الغريبة التي تعذر على غيره عيشها منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا الحاضر أم أبناء عمومته؟ لكن على العموم نعرف من هذه الروايات أنّ هنالك من يؤمن بوجود الدجّال، وحياته، وطول عمره؛ في الأقلّ منذ عصر صدر الإسلام إلى الآن وحتى ظهور الإمام المهديّ عليه السلام. فما الغرابة فيما إذا ادّعى آخرون طول عمر كاسر عين الدجّال ما دام هذا الأمر ممكناً ومتاحاً؟

ونحن مع شديد احترامنا لنقول الآخرين وعدم اعتراضنا عليها؛ لأنّ تقييمها يقع في الأساس على عاتقهم وحدهم في ضمن حدود صلاحيّاتهم الفقهيّة والعقائديّة، حتى ولو كانت هذه النقول مخالفة للعقيدة الإسلاميّة وللعقل والمنطق وللحقائق العلميّة ولعلم الجغرافيا والعلوم الأخرى، وحتى لو كانت تتعارض فيما بينها أشدّ التعارض فيدّعي بعضها أنّ تميماً كان هو بطل الواقعة، وتدّعي أخرى أنّ أبناء عمومته هم أبطالها وأنه سمعها منهم وجاء فقصّها للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو أنّ أبناء عمومته أو أناساً من قومه رأوها وأخبروه بها، ومع عدم اعتراضنا أيضاً على الرأي الذي يقول إنّ الله سبحانه مد بعمر الدجّال كلّ هذه السنين الطويلة، على الرغم من أنّ ذلك مخالف للعقل؛ لأنه ما من جدوى من طول عمر الدجّال كما هي في طول عمر الإمام المهديّ، ما دام الدجّال سيبقى في أثنائها عاطلاً خاملا ينتظر الخروج. إلا أننا نعترض بشدّة على الانتقائيّة المسيّسة التي تدعو الناس إلى الإيمان بنقول بعيدة عن

---

(١) منتخب الصحيحين من كلام سيد الكونين، يوسف بن إسماعيل النبهاني، ص٤٧٨ ـ ٤٨٠.

الواقع، وتدعوهم إلى تكذيب روايات صحيحة عن آل البيت عن جدّهم النبيّ الأكرم ﷺ هي من صميم الواقع الإسلاميّ، فهذه الانتقائيّة الغريبة كانت وما زالت ـ رغم كونها غير منطقيّة ـ من أكبر أسباب فرقتنا، وهي التي قادت الأمّة إلى أن ينكر بعضها وجود الإمام المهديّ أصلا، أو يدّعي أنه جاء وذهب وانتهى زمانه مع ذهاب عمر بن عبد العزيز الخليفة (المهديّ) الأمويّ أو مع ذهاب محمّد المهديّ الخليفة (المهديّ) العبّاسيّ، أو أنّ المهديّ الأوحد هو عيسى عليه السلام ولا مهديّ غيره، كما في حديث "لا مهديّ إلا عيسى" وأشباهها من الأقوال السياسيّة البحت المغلفة بالتمويه الدينيّ، وهي التي تحوّلت فيما بعد إلى منهج دينيّ.

وعليه قال الشيخ الصدوق: "إنّ أهل العناد والجحود يصدقون بمثل هذا الخبر ويرونه في الدجّال وغيبته وبقائه المدّة الطويلة وخروجه في آخر الزمان، ولا يصدّقون بأمر القائم وأنه يغيب مدّة طويلة، ثمّ يظهر فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، مع نصّ النبيّ ﷺ والأئمّة عليهم السلام بعده عليه باسمه وغيبته ونسبه"[1].

إنّ الانتقائيّة بالرغم من آثارها السلبيّة المؤثرة، لا يمكنها حجب الحقيقة وإعاقة بحث الباحثين، ولا يمكنها أن تقف حائلاً بين الناس ومعرفة حقيقة الأطروحة المهدويّة. وأنا من جانبي أجد أنها لا ضير منها؛ لأنها تذكي عطر العقيدة المهدويّة، وتزيد تأجّج نارها وتوهج سناها ونضوج ثمارها أكثر من أن تلحق بها الأذى.

وبعد هذا التوسّع لا بأس من العودة إلى موضوع الاستدلال على كونيّة الأطروحة المهدويّة بمصاديق مختلفة بعضها نقليّ والآخر عقليّ.

---

(١) كمال الدين وإتمام النعمة، الشيخ الصدوق، ص٤٨٠ الجزء ٢.

الفصل الثالث

مصاديق التطوّر المادّيّ

المقدّمة

كثيرة هي المصاديق العقليّة والنقليّة التي تؤكّد صحّة الأطروحة المهدويّة، وتؤكد عالميّتها وتثبت كونيّتها. ومن المصاديق العقليّة المهمّة التي تؤكّد أنّ الأطروحة المهدويّة هي أطروحة ذات سلطة كونيّة كما هي ذات سلطة أرضيّة: إنّ الله سبحانه أوكل إلى الإمام المهديّ المنتظر ما لم يوكله من قبلُ إلى الرسل والأنبياء كافة. إذ أوكل إليه إظهار الدين الإسلاميّ على كلّ الأديان والمعتقدات الأخرى في العوالم كلها.؛ فضلاً عن أنّ واقع الحال أثبت أنّ ما من دين جاء به أحد الأنبياء تمكّن من الظهور على كلّ الأديان الأخرى، لا في زمن بعثة ذلك النبيّ ولا بعدها. وما من نبيّ حقق كلّ أمنياته التي كان يروم تحقيقها، بل إنّ بعضهم عجز عن تحقيق جزء صغير منها، لأنهم في الغالب كانت مجتمعاتهم ترفضهم وتردّهم سواء بالقتل أم التكذيب، وهو ما قال عنه القرآن الكريم ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[1] فبقيت مشاريعهم مؤجّلة.

(١) سورة البقرة، الآية ٨٧.

المشاريع المؤجّلة

إنّ الحديث عن مشاريع الأنبياء وأحلامهم المؤجّلة لا مبالغة فيه ولا تهويل، فما من نبيّ نجح في تحقيق أحلامه ومشاريعه كلها، بل حتى الجزء الأكبر منها، ولذا بقي بعضها مؤجلاً في انتظار المنقذ الذي سيحققها لهم جميعاً، وليس من باب المبالغة الادّعاء أنّ هناك مشاريع مؤجّلة منذ الزمن الأوّل، وإلاّ ما كان قابيل قد تجرّأ على قتل هابيل لو كان مشروع آدم عليه السلام قد اكتمل، وما كان نوح عليه السلام قد لبث في قومه يدعوهم إلى الإيمان بالله ألفاً إلاّ خمسين عاماً، ثمّ ينتهي بهم الأمر إلى الهلاك في الطوفان ويكون ابنه أوّل الغاوين. وما كان موسى عليه السلام قد كسر الألواح المقدّسة؛ لأنّ قومه عادوا لعبادة العجّل ما إن فارقهم لزمن يسير لو كان مشروعه قد اكتمل. ولما كان عيسى عليه السلام قد طورد ليصلب على صليب الحقد كما ادّعى اليهود لو كان مشروعه قد كمل.

ويتسنى لمن يقرأ حياة الأنبياء وقصصهم المذكورة في القرآن الكريم أن يجد حقيقة مشاريعهم المؤجّلة وأحلامهم التي لم تتحقق، إذ تجد في كلّ عصر وكلّ زمان أنّ هنالك بشر ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[1] ذلك لأنهم كانوا من اللاهين الذين ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ

(١) سورة البقرة، الآيات ١٠ و١١.

ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[١] وعليه كانوا يستعجّلون بتحدٍّ فارغ وعد الأنبياء لهم بالعذاب النازل ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٢].

وقد ردّوا على أنبيائهم القول وأتعبوهم بطلباتهم ومشاكلهم ومشاكساتهم منذ زمن نوح عليه السلام وما تلاه من رسل الله سبحانه وصولاً إلى سيّدنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. فنوح عليه السلام قال عنه القرآن: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٣] ولوط عليه السلام قال عنه القرآن: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾[٤] وإسماعيل وإدريس وذا الكفل عليهم السلام قال تعالى عنهم: ﴿كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وإبراهيم عليه السلام قال عنه: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ ثمّ لم يكتفوا بالتقريع بل تآمروا عليه وكادوا له فقال بحقهم الكتاب العزيز: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ وصالح، ويونس وهود وشعيب وكلّ أنبياء الله عليهم السلام فارقوا قومهم من دون أن يكملوا مشاريعهم. وهناك في القرآن الكريم أكثر من إشارة إلى مشاريع الأنبياء المؤجّلة. بل حتى نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم مات قبل أن يكمل مشروعه ويظهر دين الإسلام على كلّ الأديان، فهو حينما طالبهم ليحضروا له الكتف والدواة ليكتب ما لن يضلوا بعده أبداً وجد من يعترض عليه ويردّ مشروعه العظيم هذا.

فبقيت كلّ هذه المشاريع معلقة بانتظار فرصة التحقيق، وهي الفرصة التي سوف تتحقق في زمن الدولة المهدويّة بانتصار دين الإسلام وظهوره على كلّ الأديان في كل الأكوان.

أما الحديث عن الظهور الدينيّ أو ظهور دين معيّن على باقي الأديان الأخرى بحيث تنضوي جميعها تحت لوائه فهو الآخر أحد المشاريع المؤجّلة

---

(١) سورة الأنبياء، الآيات ١ و٢.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ٣٨.
(٣) سورة الأنبياء، الآية ٧٦.
(٤) سورة الأنبياء، الآية ٧٤.

أيضاً؛ إذ لم يتحقق مثل هذا الأمر من قبلُ. وحتى دين الإسلام الذي جاء وعد الظهور على الأديان في كتابه المقدّس القرآن الكريم كما في الآية المباركة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[١] لم يظهر على باقي الأديان بما يتطابق مع ما جاء في الوعد الإلهيّ منذ البعثة الشريفة وإلى الآن. بل هو اليوم أضعف ممّا كان عليه من قبلُ، وكلمة أتباعه متفرقة، ويتلقى الضربات والطعنات من اليمين والشمال بينما تجمع الأمّة المسلمة كلّها على أنه الدين المعنيّ بالظهور، والموعود بالتجلي على الأديان كلّها، ولا دين سواه سينتصر، أمّا وقت هذا الظهور والانتصار فسيكون على يد القائم المنتظر بالتأكيد كما في الأحاديث والنقول التي جاءتنا عن أهل البيت الكرام ومن ذلك ما جاء في ينابيع المودّة، والمحجّة، ومنتخب الأثر عن الإمامين زين العابدين والباقر عليهما السلام: "إنّ الإسلام قد يظهره الله على جميع الأديان عند قيام القائم"[٢] وفي رواية جامعة أخرى أكثر تحديداً ونصّاً "ولا يكون ملك إلا للإسلام"[٣].

بل وتشير الكتب العقائديّة لبعض الأديان الأخرى إلى حتميّة هذا الظهور ومنها على سبيل المثال كتاب (شاكموني) الهندي الذي جاء فيه: "وفي آخر المطاف سينتهي الحكم العالميّ إلى رجل من ذرّيّة سيّد خلائق العالمين "كشن" العظيم، وهو الذي يحكم على جبال الشرق والغرب في العالم ... ويوحّد الأديان الإلهيّة إلى دين واحد واسمه القائم والعارف بالله وهو المحيي للدين"[٤].

و كذلك جاء في إنجيل برنابا: "لأنّ كلّ الأنبياء البالغين مئة وأربعة وأربعين ألفاً الذين أرسلهم الله إلى العالم قد تكلموا بالمعميّات بظلام، ولكن

---

(١) سورة التوبة، الآية ٢٣.
(٢) معجم أحاديث المهديّ، ج٥، ص٢٨١.
(٣) يوم الخلاص، كامل سليمان، ص٣٠٦.
(٤) معجم أحاديث الإمام المهديّ،ج١، ص٧١.

سيأتي بعد بهاء كلّ الأنبياء والأطهار فيشرق نوراً على ظلمات سائر ما قال الأنبياء لأنه رسول الله "[١].

وجملة (فيشرق نوراً على ظلمات سائر ما قال الأنبياء) تؤكد الظهور الحقيقيّ بمعناه الأجلى والأنصع بما لا يحتاج إلى دليل

و أيضاً جاء في سفر أشعيا في وصف المهديّ المنتظر وأصحابه: "لا يسيئون ولا يفسدون في جبل قدسيّ لأنّ الأرض تمتلئ من معرفة الربّ مثلما تغطي المياه البحر"[٢].

والمعروف أنّ الأرض لم يسبق لها أنِ امتلأت بمعرفة الربّ؛ أي: الإيمان به كلّيّاً عبر التاريخ وإنما كان هناك (دين) يتصارع من أجل البقاء مع (كفر) ولذا استمرّت بعثات الأنبياء على مدى التاريخ الإنسانيّ.

ونحن نعتقد يقيناً أنّ المهديّ المنتظر (عجّل الله فرجه) سيظهر الإسلام على الأديان كلها ويحقق مصداق الآية الشريفة ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ بمعنى أنه (عجّل الله فرجه) سوف ينجح بتحقيق ما لم يوفق إلى تحقيقه الرسل والأنبياء (عليهم السلام أجمعين) من قبلُ. أي: إنّ مهامّه ستكون أوسع من مهامّ الرسل وحينئذٍ إنّ مديات تحرّكه ستكون أوسع من مديات تحرّكهم.

ويعني هذا أنّ الله سبحانه أوكل إلى الإمام المهديّ مهمّة إنجاز مهامّ الأنبياء المؤجّلة كافة، ومن ضمنها مهامّ الأنبياء المرسلين إلى الأكوان الأخرى، لأنّ لهؤلاء الأنبياء مهام مؤجّلة أيضاً، ولأهل الأكوان الأخرى أديان يجب أن يظهر الله عليها دين الإسلام لكي تتكامل حقيقة الظهور الكلّيّ.

إنّ تكرار إرسال الرسل المجرّد على حِقب متلاحقة على مدى التاريخ سواء إلى البشر أم إلى المخلوقات الأخرى يدلّ بالتأكيد على أنّ أيٍّ من هؤلاء الأنبياء لم يستكمل برنامجه الذي جاء من أجله؛ ولذلك احتاج أتباعه

---

(١) إنجيل برنابا، الفصل السابع عشر، الفقرات ٢١ إلى ٢٥.
(٢) أهل البيت في الكتاب المقدس، كاظم النصيري الواسطي، ص١١٥.

إلى رسول آخر وهكذا. وألاّ لو كان أيّ من الأنبياء قد أكمل برنامجه لما احتاجت البشريّة إلى رسل آخرين سواه.

إنّ اختزال مهامّ جميع أنبياء الإنس والجنّ والمخلوقات الكونيّة الأخرى في فكر المهدويّة، ثمّ إيكال أمر تحقيق المؤجل وما لم ينجز من هذه المهامّ إلى الإمام المهديّ يعني أنه (عجّل الله فرجه) سوف يمارس سلطته الكونيّة لإحداث التغيير العقائديّ عند أقوام كلّ الأنبياء وأتباعهم أينما كان محلّ وجودهم ووجود دياناتهم في كلّ السماوات والأرضين، لكي يتحقق الظهور الكلّيّ من دون استثناء يخلّ بهذه التكامليّة. فبقاء أحد الأديان عاملا يومذاك على الساحة، ومهما كان حجم أتباعه والمؤمنين به يعني أنّ الظهور منقوص، وأنّ الوعد لم يتحقق. وهذا مخالف للوعد الإلهيّ.

إن هذه البشارة القرآنيّة الكريمة وردت في الإنجيل أيضاً في بشارة يوحنا لتؤكد أنه (عجّل الله فرجه) سيُظِهر الإسلام على كلّ الأديان الأخرى على أساس أنّ الإسلام هو خلاصة الأديان السماويّة كلها، وهو الذي يجب أن يسود الكون كلّه:

"ثمّ رأيت ملاكاً طائراً في وسط السماء معه بشارة أبديّة ليبشر الساكنين على الأرض وكلّ أمّة وقبيلة وشعب منادياً بصوت عظيم: خافوا الله وأطيعوه مجداً لأنه قد جاءت ساعة حكمه"

فهذه البشارة الأبديّة بحسب النصّ العبريّ تشتمل على كلمات تدلّ ترجمتها من العبريّة إلى العربيّة على حقيقة الظهور وحقيقة الكونيّة المهدويّة ومنها:

كل كوى (بالكاف المعجمة): أي كلّ الأمّة

كل مِشبحا: أي كلّ قبيلة

كل لاشون: أي كلّ لغة

كل عام: أي كلّ شعب[١].

ثمّ إنها تشمل أوّلاً الساكنين على الأرض وتنتقل بعدها إلى كلّ أمّة وقبيلة وشعب موجود خارج الأرض، وإلاّ ما كان النصّ قد ميّز بين الساكنين على الأرض وبينهم لأنه لو كان يقصد بكلامه سكان الأرض أنفسهم؛ لكان المقطع الآخر حشواً لا نفع من ورائه. ثمّ إنّ جملة (خافوا الله وأطيعوه مجداً لأنه قد جاءت ساعة حكمه) تؤكد بما لا يقبل الشكّ أنّ ساعة حكم الله سبحانه ستجيء على يد المنقذ لتشمل كلّ هؤلاء.

وسنجد في الأقسام المتقدّمة من هذا البحث أنّ هناك في الأكوان الأخرى أمماً وشعوباً وديانات.

وإذا كان المسلمون شبه متفقين على حتميّة ظهور الدين الإسلاميّ على باقي الأديان، فإنه ليس من الغرابة أن يمتدّ الظهور الإسلاميّ إلى الأكوان الأخرى التي أرسل الله للمخلوقات التي تسكنها رسلاً وأنبياءَ كما سيتضح لنا بالبحث، أي إنّ ظهور الإسلام على باقي الأديان سيكون كونيّاً وليس أرضيّاً فقط، وأنّ الذي سيغيّرهذا التغيير هو المهديّ المنتظر (عجّل الله فرجه) وفي هذا دليل مؤكد على كونيّة الأطروحة المهدويّة، أي امتداد الوهج المهدويّ للأكوان الأخرى، وامتداد السلطة المهدويّة إليها.

إن التبدّل واحد من أهمّ مصاديق كونيّة الحكومة المهدويّة، وأقصد به التبدّل الذي سوف يقع لبعض الأمور المادّيّة والروحيّة التي لم تتبدّل تبدّلاً جوهريّاً منذ أن عرفها الإنسان في بدايات تطوّره وإلى ما قبل تاريخ الظهور بقليل، أي إنها بقيت على هيئتها التي عرفت بها أوّل مرّة تنتقل توارثيّاً على مدى التاريخ وستبقى كذلك إلى ما يشاء الله تعالى، لكي يكون لتبدّلها أثر فاعل في انتصار المهدويّة وامتداد آفاقها إلى كل الأكوان، ومنها مثلاً حقيقة افتراس الأسد للحيوانات الأخرى ومهاجمة الذئاب للخرفان، ولدغ الأفعى

(١) أهل البيت في الكتاب المقدس، كاظم النصيري الواسطي،ص ١١٨.

لمن يمدّ يده في جحرها ولدغ العقرب لكلّ ما يعترض طريقها، وتعاقب الليل والنهار وحدوث الخسوف والكسوف في أوقات محدّدة ثابتة لا تتغير، وعشق البشر للمال إلى درجة العبادة، وتكلم الأشجار والأحجار مع أنّها جماد لا يتكلم. لكن هذه الحقائق البديهيّة والمتسالم على يقينيّتها تاريخيّاً لن تبقى على ما هي عليه، لأنّ سنن النواميس سوف تتغيّر عمّا هي عليه، وعمّا هي مشتهرة به. وللاختصار سوف نبحث في شأن التبدّل الذي سوف يقع في بعض هذه السنن وليس كلّها، وسيأخذ التبدّل منحيين؛ أحدهما مادّيّاً والآخر روحيّاً.

أوّلاً: التطوّر المادّيّ

١ ـ المال والاقتصاد العالميّ

في الوقت الذي كان (المال) محور الحِراك السياسيّ والبشريّ في كلّ عصر وزمان والوسيلة التي تشترى بها الذمم والضمائر، ومصدر القوّة الذي يحول الدول إلى كيانات عاتية سلطويّة تسعى إلى السيطرة على الأمم الأخرى، وسلعة غالية ليس من السهل الحصول عليها، فإنه سيتحوّل في زمن الدولة المهدويّة إلى سلعة بائرة تافهة لا يطلبها أحد ولا يسعى وراءها ساعٍ؛ لأنّ الجميع عندهم ما يكفيهم منها ومن كل شيء يحتاجونه، وقد جاء في صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسند الإمام أحمد وغيرهم عن النبيّ الأكرم ﷺ قوله: "لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال، حتى يهمّ ربّ المال يقبل صدقته، وحتى يعرضه، فيقول الذي يعرضه عليه: لا أَرَبَ لي"[١].

أمّا من يحتاج إلى بعض المال لأيّ سبب كان فإنه لا يحصل على عدد أو كمّيّة محدودة منه كما هو متعارف عليه؛ لأنّ الإمام عليه السلام يحثو المال حثياً لا يعدّه عدّاً، وقد أخرج السيوطي عن أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إنّ من أمرائكم أميراً يحثو المال حثياً

---

(١) المعجم، ج١، ص٣٠١.

ولا يعدّه عدّاً، يأتيه الرجل فيسأله، فيقول: خذ فيبسط ثوبه فيحثي له، وبسط رسول الله ملحفة غليظة كانت عليه يحكي صنيع الرجل، ثمّ جمع عليه أكنافها، قال: فيأخذه ثمّ ينطلق"[١] كما أخرج مسلم قول النبيّ الأكرم ﷺ: "يكون في آخر أمّتي خليفة يحثي المال حثياً لا يعدّه عدداً"[٢] ومن الأحاديث المؤكدة الموجودة لدينا في هذا الباب: "وأنه يبلغ سلطانه المشرق والمغرب وتظهر له الكنوز ولا يبقى في الأرض خراب إلا يعمره"[٣] ومنها أيضاً عن جابر بن عبدالله الأنصاريّ قال: قال رسول الله ﷺ: "ويظهر الله عزّ وجلّ له كنوز الأرض ومعادنها وينصره بالرعب"[٤].

وفي غيبة النعماني: "وتجمع إليه أموال الدنيا من بطن الأرض وظهرها فيقول للناس: تعالوا إلى ما قطعتم فيه الأرحام، وسفكتم فيه الدماء الحرام، وركبتم فيه ما حرم الله عزّ وجلّ، فيعطي شيئاً لم يعطه أحد كان قبله، ويملأ الأرض عدلاً وقسطاً ونوراً، كما ملئت ظلماً وجوراً وشرّاً"[٥] وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثمّ يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً"[٦].

وفي الفتن لنعيم بن حماد عن النبيّ ﷺ: "إذا خرج المهديّ ألقى الله تعالى الغنى في قلوب العباد حتى يقول المهديّ: من يريد المال؟ فلا يأتيه أحد إلا واحد يقول: أنا فيقول: احثُ"[٧] وفي الفتن عن أبي سعيد الخدري

---

(١) العرف الوردي في اخبار المهديّ، جلال الدين السيوطي، حديث ٢٩، ص٦٠ ـ ٦١.
(٢) صحيح مسلم، حديث ٢٩١٣، ص١٢٢٠.
(٣) المهديّ قادم، هشام آل قطيط، ص٢٤٦ عن إسعاف الراغبين ص٦٨.
(٤) كمال الدين وإتمام النعمة للشيخ الصدوق، ص٣٦٥.
(٥) المعجم الموضوعي، الشيخ الكوراني، ص ٧١٨.
(٦) المصدر نفسه، المعجم، ص٧١٨ عن غيبة النعماني، ص٢٣٧.
(٧) المعجم، ج١، ص٢٩٢.

عن النبيّ ﷺ: "تتنعم أمّتي في زمن المهديّ نعمة لم يتنعموا مثلها قطُّ، يرسل الله السماء عليهم مدراراً، ولا تدع الأرض شيئاً من نباتها إلا أخرجته"[١].

وعن أبي سعيد ألخدري أيضاً عن النبيّ ﷺ قال: "يكون في أمّتي المهديّ إن قصر فسبع وإلا فتسع، فتنعم فيه أمّتي نعمة لم ينعموا مثلها قطُّ، تؤتي أكلها ولا تدّخر منه شيئاً والمال كدوس فيقوم الرجل فيقول: يا مهديّ أعطني؟ فيقول: خذ"[٢].

يعني هذا أنّ المسألة الماليّة التي هي قوام اقتصاد البلدان وأساس النموّ والتطوّر والازدهار ومن أهم معيقات تحقيق الأهداف وتنفيذ المشاريع الآنيّة والمستقبليّة وهي التي تعوّل عليها كلّ النظم السياسيّة لن يكون لها وجود في الدولة المهدويّة، ولن تكون طرفاً في المعادلة؛ لأنها محلولة سلفاً نتيجة الوفرة التي سيحققها استخراج كلّ كنوز الأرض، وتبدّل المناخ نحو الأحسن بانتهاء ما يعرف بالاحتباس الحراريّ، أو لربّما يكون الاحتباس الحراريّ الذي يتخوّفون منه اليوم سبباً لها، وتبدّل المناخات بما يسهم في خلق تطوّر زراعيّ كبير وغير مسبوق، وهو الذي سيؤدّي إلى زيادة سقوط الأمطار في المناطق الصحراويّة وذات الأمطار القليلة بما يحوّلها إلى أراض صالحة للزراعة، ؛ فضلاً عن أنّ الظروف العامّة للبيئة والمناخ ستتغيّر عمّا هي عليه اليوم؛ فيحيي الله الأرض الصحراويّة الرمليّة القاحلة التي لا تصلح للزراعة مطلقاً بعد موتها؛ وقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: "يحييها الله بعدل القائم عند ظهوره بعد موتها بجور أئمّة الضلال". وعنه عليه السلام أيضاً: "ولا يبقى في الأرض خراب إلا عمر"[٣] وفي غيبة الطوسي عن إسماعيل ألأسديّ قال: حدثني سعيد بن جبير قال: "السنة التي يقوم فيها المهديّ تمطر أربعاً

(١) الأربعون حديثا في المهديّ لأبي نعيم الأصفهاني، علاء مكي، ص٣٥ ـ ٣٦.
(٢) العرف الوردي، جلال الدين السيوطي، ص ٥٥.
(٣) المعجم الموضوعي، ص٧١٩ ـ ٧٢٠.

وعشرين مطرة يرى أثرها وبركتها"[١] وفي الإرشاد في تعديد علامات ظهور الإمام عليه السلام: "ثمّ يختم ذلك بأربع وعشرين مطرة تتصل فتحيي الأرض من بعد موتها وتعرف بركاتها"

وفي العرف الورديّ عن مسند ابن أبي شيبة: "وتخرج الأرض نباتها وتمطر السماء مطرها وتنعم أمتي في ولايته نعمة لم تنعمها قط"[٢].

ما أريد الإشارة إليه أنّ الروايات تتحدّث عن أمطار تقع في مناطق من أرض العرب لم تكن مطيرة من قبلُ، وحدوث هذا الأمر مرّة يبدو إعجازيّاً، ومرّة أخرى يبدو في نظر العلوم الحديثة أمراً ممكناً ومحتملاً، بل ومؤكّداً، ففي تقرير عن نتائج بحث أجراه خبراء أمريكيون في جامعة "أوهايو" وردت معلومات عن تغيّر مناخيّ طرأ على اليمن ودول الجزيرة في أعقاب زلزال "تسونامي" الذي ضرب اليابان في عام ٢٠١١ وقد تسبّب في جعل المنطقة تحت تأثير الرياح الموسميّة القادمة من المحيط الهنديّ والمحمّلة بالأمطار الغزيرة على غرار ما كانت عليه قبل حوالي ٥٠٠٠ عام. فهل كان تسونامي اليابان من ممهدات الظهور، وإشارة إلى قربه؟

وقال الخبراء بعد دراسة ميدانيّة حول تأثير التغيير المناخيّ على ثقافة سكان جنوب شبه الجزيرة العربيّة وحياتهم: "إنّ هذه الرياح الموسميّة كانت قبل (٥ ـ ١٠) آلاف عام تأتي بأمطار غزيرة إلى الجزيرة العربيّة ساعدت الناس على التمتع بحياة هانئة ومستقرّة، لكنّها منذ حوالي ٥٠٠٠ عام غيّرت اتجاهها نحو الجنوب مسبّبة جفافاً شديداً".

كما ويشير "أوكيس" في تقرير نشره حديثاً إلى أنّ تحرّك مِساحة شاسعة من الطبقات الجيولوجيّة للأرض عكس تأثيره ليس في زلزال تسونامي وآلاف الهزات المتباينة القوّة فحسب، بل أيضاً على اتجاهات حركة الرياح

---

(١) المعجم الموضوعي، ص٧٢٠.
(٢) العرف الوردي، جلال الدين السيوطي، ص٧٧ ـ ٧٨.

ومعدلات الحرارة والبرودة والرطوبة وغير ذلك، منوّهاً إلى أنّ الدراسات الأوليّة تشير إلى إمكانيّة تخلص شبه الجزيرة العربيّة في المستقبل القريب من حالة الجفاف في ظلّ عودة الرياح الموسميّة الهنديّة ذات الأمطار الغزيرة للهبوب على أراضيها.

وأفاد مختبر المسح الأثريّ الأمريكيّ بولاية "أريزونا" الأمريكيّة أنه سوف يكون هنالك تغيّر هائل في مناخ الكرة الأرضيّة، في حين كان الباحثون يحللون جداول معطيات جمعتها أجهزة الرادار المركبة على متن مكوك الفضاء (كولومبيا) أظهرت صور الرادار وجود منطقة تحت رمال صحراء جنوب مصر وشمال غرب السودان لا تهطل فيها الأمطار إلا بمعدل مرّة كلّ خمسين عاماً؛ ولكنها تحتوي على مجاري أنهار قديمة كبيرة، بعضها أوسع من نهر النيل نفسه، وقد أجريت حديثاً دراسة مشابهة لشبه الجزيرة العربيّة، حيث أظهرت الصورة الجويّة وجود مجرى لنهر قديم عملاق يخترق شبه الجزيرة من الغرب إلى الشرق ناحية الكويت.

وقد ذكر الدكتور "فاروق الباز" مدير وكالة ناسا للفضاء وجود كمّيّات هائلة من المياه الجوفيّة في مسار النهر القديم الذي لا بدّ أنه عاش على جانبي النهر في العصور السحيقة عندما كان النهر يجري بالمياه قبل ٥٠٠٠ عام.

؛ فضلاً عن أنّه يتوقع الجيولوجي الأمريكي "هال مالكور" عودة البحيرات إلى صحراء الجزيرة العربيّة وعودة المياه إلى الأنهار المغطاة.

فالكرة الأرضيّة ـ كما أثبتت التقنيّات الحديثة ـ تمرّ بعصر جليديّ يستمرّ نحو ١٠٠ ألف عام، ثمّ تأتي بعده حقبة دفء تسمّى بمرحلة "بين جليديّة" تستمرّ من عشرة إلى عشرين ألف سنة، وقد تكرّر هذا النمط عشر مرّات إبّان المليون سنة الماضية. وكان انتشار المسطحات الجليديّة في الأجزاء الشماليّة ـ أثناء العصور الجليديّة ـ يؤثر في مناخ الأرض، فيؤدّي إلى زحزحة نطاق المطر إلى الجنوب، فتدخل شبه الجزيرة العربيّة والصحراء الكبرى في شمال

إفريقيا في نطاق الرياح الغربيّة الممطرة التي تهبّ الآن على غرب أوروبا، فيؤدّي ذلك إلى ازدهار تلك الصحارى وامتلائها بالأنهار والوديان الخصبة. وفي حقب الدفء بين العصور الجليديّة تتحرّك أنطقة الأمطار إلى الشمال، فتصبح شبه الجزيرة العربيّة وشمال إفريقيا في ضمن نطاق الرياح التجاريّة ويسودها مناخ مشابه لمناخها اليوم.

وهناك العديد من الأدلة على حدوث مثل تلك التغيّرات المناخيّة جمعها الأستاذ "أوستن ميلر" صاحب كتاب "الجغرافيا التاريخيّة الطبيعيّة"؛ فضلاً عن جمع الكثير من التوقعات والدراسات حول تغيّر المناخ في المستقبل ودلائل تغيّرها، وأكدت الدراسة التخصصيّة أنّ الجزيرة العربيّة سوف تكون أكثر بقاع العالم من حيث هطول الإمطار. وهناك أيضاً دراسة صينيّة حول الموضوع نفسه أكدت أنّ بداية حدوث هذا التغيّر قد تزامنت مع بداية عام ٢٠١١ تحديداً.

يستخلص ممّا تقدّم بضعة معطيات ونتائج منها:

أنّ استمرار العصر الجليديّ القادم ١٠٠ ألف عام سيكون عبثيّاً إذا لم يكن قد أقرّ لخدمة العصر المهدويّ المرتقب الذي سيمتدّ إلى مديات أبعد من تلك التي يتحدّث عنها من يدّعي أنّ عمر دولته سبع سنين أو تسعاً. أمّا لِمَ يعدّ الآن فقط عبثيّاً ولم يكن عبثيّاً من قبلُ؟ فذلك لأنّ ما حدث سابقاً كان مرحلة إعداد لإيصال العالم إلى ما هو عليه اليوم من تنوّع جغرافيّ وديموغرافيّ وعقائديّ واقتصاديّ، أمّا حدوثه الجديد فسيكون من دواعم انتصار الدولة المهدويّة المكلفة بإظهار الإسلام على كلّ أديان الكون.

إنّ التبدّل المناخيّ وغزارة الأمطار في مقرّ حكومته وعاصمة حكم الإمام المهديّ وهي التي ستمتدّ إلى خمسة آلاف عام كما يقول العلماء تؤكد أنها ما وعدنا به الله ورسوله من خير عميم، ومطر غزير؛ يصيب الجزيرة العربيّة في عصر الظهور، وهذا لا يؤكد صحّة ما وُعِدنا به فقط، بل ويؤكد أيضاً قرب ظهور الإمام المهديّ، وطول عمر دولته.

هذه التطوّرات المدهشة وغير المتوقعة هي التي سوف تؤدّي إلى حدوث الوفرة الماليّة الزائدة عن الحاجات اليوميّة والإستراتيجيّة على نحو كبير جدّاً وحينئذٍ يكون من الممكن أن تخصّص من دون التقيّد بميزانيّات محدّدة ومقننة لتنفيذ المشاريع النهضويّة والعلميّة المختلفة في المجالات كافة ممّا يفتح الآفاق أمام تطوّر من نوع جديد لم تشهد البشريّة له شبيهاً من قبلُ، ولاسيّما أنّ هذه الوفرة سوف تكون مدعومة بمنظومة علميّة لم تشهدها البشريّة من قبلُ.

وإنّ تأكيد الروايات والنصوص علاقة المال بعصر الظهور بهذا الشكل المكثف والتكرار المستمرّ؛ له علاقة وثيقة بما وصل إليه فعل الجانب الاقتصاديّ وتأثيره في الحياة المعاصرة للبشر وما سيصل إليه في العصر السابق للظهور، فعلى الرغم السطوة التاريخيّة للمال على مدى العصور وأثره المباشر في الحياة العامة إلاّ أنه بسبب الانقلاب الصناعيّ والزراعيّ الذي حصل في القرن الماضي تحوّل إلى قوّة سلطويّة أسطوريّة عاتية جبّارة، وبات محرّكاً للعواطف والأيديولوجيات والسياسات والجيوش وحتى للعقائد الدينيّة والأخلاقيّة، حيث أصبح لأساطين المال والمستثمرين الكبار والممولين سلطة تتجاوز حتى الرقعة الجغرافيّة التي يعيشون فيها والبلد الذي يعيشون فيه، بعد أن تحوّلت القوى العاملة إلى أجراء بيدهم وتحولت الأراضي الزراعيّة إلى ممتلكاتهم، فاستثمروا أموالهم لإدخال المكننة الزراعيّة الحديثة وإنشاء مصانع التعليب وتحويل المزارعين إلى عمال مأجورين. وتحولت الدول تلقائيّاً أو بسبب تخلفها إلى مستورد لهذه المنتجات والمعدّات.

وقد أدّت هذه الإجراءات إلى زيادة الفوارق الطبقيّة في المجتمع الإنسانيّ في كلّ أرجاء الكرة الأرضيّة؛ فأصبحت مجموعة صغيرة من الرأسماليين في دول محددة مسيطرة على رؤوس الأموال وأدوات الإنتاج، ممّا جعل صوتها أعلى من صوت الحكومات والمنظمات حتى الدوليّة منها، مقابل أعداد مليونيّة من المحرومين والجياع الذين قال الإمام عليّ عليه السلام إنّ سبب جوعهم

وبلواهم هم المحتكرون أنفسهم "ويشحّ الغنيّ بما لديه"[١]، ثمّ كيف يؤدّي ذلك إلى تبديل العقائد من الإيمان إلى الكفر "ويبيع الفقير آخرته بدنياه فيا ويل للفقير وما يحلّ به من الخسران والذلّ والهوان في ذلك الزمان"[٢].

وبعد أن كانت العقائد هي التي تحمل راية الخلاف بين الفئات والدول على مدى التاريخ أصبح رأس المال والدوافع الاقتصاديّة أساس كلّ خلاف ينشأ في العالم اليوم، بدلالة أنّ كلّ النزاعات الدوليّة التي وقعت في القرنين الأخيرين كانت دوافعها اقتصاديّة غالباً، إمّا رغبة في احتكار الأسواق وإمّا بحثاً عن الموادّ الأوّليّة. وحتى تقسيم الدول وتفتيت البلدان الذي حدث في القرنين الماضيين والمتوقع تكراره قريباً في الشرق الأوسط كانت دوافعه اقتصاديّة. وكذلك الغزو العسكريّ الأمريكيّ للعراق وأفغانستان والدول المرشحة الأخرى كانت الدوافع الاقتصاديّة من أهمّ ما يقف وراءه. بل إنّ النزاعات المجتمعيّة والفرديّة التي تقع داخل البلدان، وبينها وبين البلدان الأخرى تعود في الأعمّ الأغلب إلى أسباب ماليّة، والنسبة العظمى من الجرائم والسرقات والاختلاسات والفساد الإداريّ دافعها الفقر والفاقة والحرمان والعوز وحبّ المال والإيمان بأهمّيّته في الغالب وهي جميعها اقتصاديّة .

وهكذا بعد أن كانت الدول القويّة ترعب الدول الأخرى بعقيدتها العسكريّة أو الفكريّة أصبح سلاح المال أو ما يعرف بـ(القوّة الناعمة) في هذا العصر الذي هو من دون شكّ عصر الظهور أشدّ فتكاً وتأثيراً ورعباً ولاسيّما أنّ قوّته أخذت تزداد مع كبر حجم الشركات العابرة للقارات، وتنامي حجم خزائن الدول العظمى، مقابل تنامي الإعسار الماليّ والحاجة إلى الأجهزة والمكائن المتطوّرة والمعلومات في الدول الضعيفة، حيث تحوّلت الفوارق الطبقيّة المجتمعيّة التي كانت تقع بين الأفراد أنفسهم إلى فوارق طبقيّة دوليّة.

---

(١) تنبؤات النبيّ والأئمة، ص٢٥٥.

(٢) المصدر نفسه، نبوءات النبيّ.

لقد أدرك الرأسماليّون الكبار دور رأس المال منذ وقت طويل وكانت الثورة الفرنسيّة أحدى المحفزات الكبيرة لهم؛ ولذلك كانت البداية في فرنسا ومع كنيستها بالذات، فحتى القرن الثامن عشر كانت الكنيسة الفرنسيّة مالكة لأكبر حجم من الثروة العامّة لأنها كانت تملك خمس الأراضي الفرنسيّة؛ ؛ فضلاً عن الأموال التي تتقاضاها من الشعب[١] فكانت سلطتها أكبر من سلطة الإمبراطور. ولم تضعف سلطة الكنيسة وتتلاشى إلاّ بعد أن نجح الرأسماليّون في سحب أموالها إليهم، حيث تلاشت قوتها وماتت في النهاية وتحولت إلى واجهة إعلاميّة مجرّدة للدين، وتسلّم المال زمام الأمور وقدرة توجيهها كيفما يشاء، فأصبح اليوم في عصر الظهور المرتقب السلطة الحاكمة والمتنفذة في كلّ الأرض.

كما أصبح المال اليوم المصدر الأوحد الداعم للتطوّر العلميّ للدول، حيث تتطوّر الدول الغنيّة العظمى باطراد وسرعة جنونيّة، وتتخلف الدول الفقيرة بالمقدار نفسه؛ ولكن بالاتجاه المعاكس، ولو لم تمتلك تلك الدول هذه الكتلة الجبّارة المهولة من المال ما كانت قد نجحت في غزو الفضاء بالمركبات المأهولة حتى بالسُّيّاح المرفهين.

من هنا جاء تأكيد أهمّيّة المال في أخبار المهدويّة ابتداء من أحاديث النبيّ الأكرم ﷺ إلى أحاديث الأئمّة الأطهار عليهم السلام؛ لأنهم كانوا يعلمون أنّ المال في عصر ما قبل الظهور هو المنافس الوحيد وبوساطته تتحرّك الجيوش، وتشنّ الحروب وتنشر العقائد، ومنها تلك العقائد المعادية للمهديّ ولدولته، وتهدم المعتقدات وتتبدّل السلوكيّات الفرديّة عند الإنسان؛ فيصبح أقرب إلى حيوانيّته منه لإنسانيّته، ولذلك وصفه الرسول الأكرم ﷺ بقوله: "يكون الرجل همّه بطنه، وقبلته زوجته، ودينه دراهمه"[٢].

---

(١) تاريخ القرن التاسع عشر في أوربا، محمّد قاسم وحسين حسني، ص٣.
(٢) يوم الخلاص، كامل سليمان، ص٣٨١.

وجاء في تيموثاوس (٣:١ ـ ٥): "ولكن اعلم هذا: أنه في الأيّام الأخيرة ستأتي أزمنة صعبة؛ لأنّ الناس يكونون محبّين لأنفسهم، محبّين للمال، متعاظمين مستكبرين"[١] من هنا جاء التكرار المستمرّ لأحاديث المال ليس للتذكير بأثره وأهمّيّته في آخر الزمان فحسب، بل للتأكيد أنّ الله تعالى شاء أن يحلّ هذه المشكلة للإمام المهديّ (عجّل الله فرجه) بأن تفتح له الأرض أبواب خزائنها التي لا تنضب سواء بإخراج الكنوز المدفونة أو بتحوّل الصحارى والأراضي السبخة إلى أراض زراعيّة من الطراز الأوّل، لأنّ هذه الأموال ستسهم في تحويل العلوم التي يملكها إلى معدات وآليّات تسهل له غزو الأكوان ونشر الدين الإسلاميّ فيها.

اللطيف في الأمر أنّ المال الذي ارتكبت بوساطته الموبقات والمحرّمات والنزاعات، وأشبعت النزوات والرغبات والبطون من حلال وحرام، سيتحوّل نفسه في النهاية إلى طور الإفلاس القيميّ، حيث يفقد قيمته الحقيقيّة والمادّيّة، ومكانته البراقة وسحره الأخاذ، ليتحوّل إلى شيء مجرّد تافه لا قيمة له ولا قوّة، بخلاف العقيدة التي ستصبح هي القوّة العظمى المحرّكة للأحداث.

وهنا تختلف المهدويّة مع النظريّات الوضعيّة الأخرى؛ ومنها الاشتراكيّة التي كانت تسعى قبل انهيار الاتحاد السوفيتي (لا تزال نظريّاتها فاعلة في بعض البلدان) إلى تقسيم الثروة تقسيماً عادلاً من دون النظر إلى مقدار الجهد المبذول، وتختلف مع الرأسماليّة التي كانت وما زالت تسعى إلى تقسيم القدرة تقسيماً عادلاً، لكن لا الاشتراكيّة ولا الرأسماليّة نجحتا في تحقيق هذه العدالة المستحيلة؛ فبقي المال سيّداً متحكّماً وبقيت القدرة مشتتة ومحصورة بيد النخبة. في حين نلحظ أنّ المهدويّة سوف تقلب هذه المعادلة وتنشئ معادلة جديدة تجمع بين توزيع المال والقدرة إنشاءً جديداً لأنّ تواتر أحاديث

---

(١) يوم الخلاص، كامل سليمان، ص٣٧٨.

مجرّدة (يملؤها قسطاً وعدلا) في المدرستين الإسلاميّتين وفي كتب الديانات الأخرى يؤكد أنّ قوانين القدرة والمال والاقتصاد سوف تسقط وتقوم مقامها قوانين دولة العدل الإلهيّ الكونيّة، لأنّ القوانين التي كان معمولاً بها في السابق في كلّ النظم المعروفة الرأسماليّة منها أو الاشتراكيّة هي التي ملأتها ظلماً وجوراً؛ وهو ما سيجعل من أمر الكونيّة واقعاً في متناول اليد ولا صعوبة فيه مطلقا لكي يعمّ القسط والعدل.

٢ ـ المعتقدات والسلوكيّات

أمّا الروايات التي تتحدّث عن واقع الحال المعرفيّ والسلوكيّ في الدولة الموعودة فتدلّ بالتأكيد أنّ ما ستكون عليه المخلوقات في هذه الدولة لا يشبه ما كانوا عليه من قبلُ في أيّ مرحلة تاريخيّة سابقة، وذاك بحدّ ذاته يدلّ على إمكانيّة التواصل الكونيّ تواصلاً جديداً بينهم وبين المخلوقات الأخرى.

إنّ التبدّل السلوكيّ للمخلوقات الذي سيجعل السبع يأكل الحشيش ويسرح في المرعى مع الأبقار كما في حديث "لو قام قائمنا.... ولذهبت الشحناء من قلوب العباد واصطلحت السباع والبهائم"[١] وأيضاً في الحديث الذي رواه الحاكم عن ابن عبّاس وصحّحه عن النبيّ (عليه أفضل الصلاة والسلام): "وأمّا المهديّ الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، وتأمن البهائم السباع..."[٢]، ويجعل الذئب والحمل يسرحان معاً، والطفل يلاعب الأفعى السامّة، والفأر لا يقرض الجراب كما في حديث "وترعى الشاة والذئب في مكان واحد، ويلعب الصبيان بالحيّات والعقارب لا يضرّهم شيء"[٣].

ليس الإسلام وحده من أشار إلى هذا التبدّل، بل حتى الأديان الأخرى

---

(١) البحار، ج٥٢، ص٣١٩.
(٢) المعجم الموضوعي للشيخ الكوراني، ص٧٣٤.
(٣) الإمام المهديّ من المهد إلى الظهور، محمّد كاظم القزويني، ص٤٤١.

أشارت إليه في كتبها وأناجيلها حيث جاء في سفر أشعيا: "فيسكن الذئب مع الخروف، ويربط النمر مع الجدي والبقرة والدبّة ترعيان، تربض أولادهما معاً، والأسد كالبقر يأكل تبناً، ويلعب الرضيع على سرب الصلّ، ويمدّ الفطيم يده على جحر الأفعوان)[١].

أريد الإشارة هنا إلى أمر ليس بتلك الأهمّيّة التي تقتضي الإشارة له، ولكنّي أرغب في إيراده للتدليل على ازدواجيّة المعايير التي يقيس بها الأمورَ بعضُ المسلمين وأقصد به موضوع التعامل والتخاطب مع الحيوانات الموجود فعلاً في فكر المدارس الإسلاميّة الأخرى، وهو الموضوع الذي لم أجد بين من انبرى لمهاجمة الأطروحة المهدويّة من يعترض عليه أو يكذبه، أو حتى يضعفه ويوهنه، حيث ورد في تذكرة الحفاظ، وسير أعلام النبلاء للذهبيّ عن محمّد بن طاهر القيسرانيّ: "الوخشي: الحافظ الإمام الجوال أبو الحسن بن عليّ بن محمّد بن أحمد بن جعفر البلخي... وقال عمر بن عليّ السرخسي: كنت مراهقاً وقت موت الوخشي فحضرته، فلمّا وضع في القبر سمعنا صيحة فقيل: خرجت الحشرات من المقبرة، وكان في طرفها وادٍ انحدرتُ إليه وأبصرتُ العقارب والخنافس وهي منحدرة في الوادي!"[٢].

وفي شذرات الذهب قال المناوي في ترجمة أبي عليّ حسين الصوفي المتوفى ٨٦١ هجريّة: "كان كثير التطوّر يدخل عليه إنسان فيجده سبعاً ثمّ يدخل عليه آخر فيجده فلاحاً أو فيلاً!"[٣].

وفي عودة إلى موضوع التبدّل السلوكيّ نجد أنّ التبدّل الذي سوف يحصل في عصر الظهور سيجعل قاطع الطريق واللصّ وذوي النفوس الرذيلة الذين لم

---

(١) أهل البيت في الكتاب المقدس، كاظم النصيري الواسطي، ص١١٥ ويوم الخلاص، كامل سليمان ٣٤٥.

(٢) ينظر تذكرة الحفاظ، ج٣، ص١١٧٢، وسير أعلام النبلاء، ج١٨، ص٣٦٥، والقيسراني، ص٤٤٨ ـ ٥٠٧ تسلسل ١٠٢٥.

(٣) ينظر شذرات الذهب، ج٧، ص٣٥٠.

يكونوا ينتهون عن حرمات الله يتركون كلّ المعاصي والفتن، ويتحرّرون من المعاصي والموبقات حتى تسير المرأة من الشام إلى العراق لا تخشى شيئاً "وتخرج العجوز الضعيفة من المشرق تريد المغرب لا يؤذيها أحد"[١].

وفي حديث آخر: "يطفئ الله تعالى الفتنة العمياء وتأمن الأرض حتى إنّ المرأة لتحجّ في خمس نسوة ما معهنّ رجل لا تتقي شيئاً إلاّ الله"[٢].

وفي حديث للإمام الصادق عليه السلام أيضاً في وصف الإمام المهديّ: "ويطفئ به الفتنة الصمّاء وتأمن الأرض حتى إنّ المرأة لتحجّ في خمس نسوة ما معهنّ رجل لا يتقينَ إلاّ الله"[٣] وفي قول آخر: "وتصطلح السباع والبهائم حتى تمشي المرأة بين العراق والشام لا تضع قدميها إلاّ على النبات وعلى رأسها زنبيلها لا يهيجها سبع ولا تخافه"[٤]، حيث يذهب الشرّ ويبقى الخير كما ورد في الأثر، أو كما قال الإمام الصادق عليه السلام: "ويذهب الزنى وشرب الخمر، ويذهب الربا، ويقبل الناس على العبادات، وتهلك الأشرار وتبقى الأخيار"[٥].

كلّ هذا يعني أنّ طبائع المخلوقات الأساسيّة وسلوكيّاتها الرئيسة الفطريّة التي يقول العلم وتقول المعارف الوضعيّة إنّها من المستحيل أن تتغيّر عمّا هي عليه؛ لأنّ بقاء هذه المخلوقات واستمرار حياتها مرتبط بهذا السلوك، سوف تتغيّر في المستقبل خلافاً لكلّ هذه التصوّرات القائمة على الجزئيّة المادّيّة ممّا يعني أنّ الأرض سوف تعيش عصراً جديداً مغايراً لكلّ العصور التي شهدتها من قبلُ، وهذا التبدّل سيكون أحد الأسباب التي تجعل من التواصل الكونيّ

---

(١) البحار، ج٥٢، ص٣١٩.
(٢) العرف الوردي للسيوطي، ص١١٧.
(٣) يوم الخلاص، كامل سليمان، ص٣٣٢.
(٤) من حديث للإمام الصادق ورد في البحار ١٠/ ١٠٤.
(٥) يوم الخلاص، كامل سليمان، ص٣٠٦.

بين المخلوقات عامّة وليس بين قائد هذه المخلوقات فقط وبينها شيئاً مألوفاً ومتساوقاً مع تبدّل الطباع هذا.

ثمّ إنّ المعتقدات والسلوكيّات التي كانت سائدة في المجتمعات البشريّة وهي التي كان فيها الكثير من الغشّ والخداع سوف تتبدّل تبدّلاً إعجازيّاً كما في حديث الإمام الصادق عليه السلام: "إذا قام قائمنا وضع الله يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم، وكملت به أحلامهم"[١] وهذا التبدّل من ممهّدات الكونيّة.

الناس الذين كانوا يضمرون في دواخلهم غير ما يعلنونه سوف يتغيّرون على وَفق هذه الآليّة غير المعهودة، فتغيير المعتقد الذي يؤمن به الإنسان وهو الذي كان من أصعب ما يواجه حملة مشاريع التغيير، وهو الذي كان يفضي لوقوع المعارك والمجازر والجرائم سوف يتحوّل في زمن البعثة المهدويّة إلى لمسة على الرأس حتى إنه كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: "إذا خرج القائم لم يبقَ ما بين يديه أحد إلا عرفه صالح أو طالح"[٢].

المجتمع ذاته سوف يتحوّل إلى مجتمع آدميّ مثاليّ يوتوبي متكامل حيث تذهب الشحناء من قلوب العباد، ثمّ إنّ المجتمع سوف يصبح مجتمعاً صحيحاً لا يشكو من عاهة أو مرض؛ قال الإمام الصادق عليه السلام: "من أدرك القائم من أهل بيتي من ذي عاهة برأ ومن ذي ضعف قوي"[٣] وليس ذاك فقط بل إنّ كلّ مؤمن بالله ورسوله صلى الله عليه وآله سوف يتعافى ويستردّ قوّته حيث تتحقق أمنية "ألا ليت الشباب يعود يوماً" لأنهم يعودون شباباً حيث ورد في غيبة النعماني والخصال والصراط المستقيم ونوادر الأخبار وبحار المجلسي عن الأئمّة المعصومين: "إذا قام قائمنا أذهب الله عنهم العاهة وجعل قلوبهم كزبر الحديد، قوّة كلّ رجل قوّة أربعين رجلاً"[٤].

---

(١) كمال الدين وإتمام النعمة للشيخ الصدوق، ص٦٧٥.
(٢) البحار، ٥٢/ ٣٨٩.
(٣) البحار، ٥٢/ ٣٢٥.
(٤) المعجم، ج٤، ص٢٨٣.

ويشعر الناس أنهم أجزاء متفاعلة متجانسة متوحدة يكمل أحدها الآخر حتى "يأتي الرجل إلى كيس أخيه فيأخذ حاجته لا يمنعه"[١] أي إنّ الأجزاء هي في الواقع كلٌّ واحد ومكوّن واحد، وهُويّة واحدة. ويعيش الإنسان العرفانيّة بأسمى معانيها حتى إنّه ليتصافح مع الملائكة "ويصافح المؤمنون الملائكة"[٢] وهو أمر لم يتحقق من قبلُ للناس العاديّين البسطاء؛ لأنه كان موقوفاً على بعض الأنبياء وحدهم.

وكذلك سوف تتحوّل الموجودات الأخرى عن هيأتها المعروفة إلى هيأة أخرى مغايرة لما هو معروف بحيث إنّ الحجر والشجر يكلمان الإنسان فيفهم كلامهم ويثق به، قال النبيّ محمّد ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبدالله هذا يهوديّ خلفي تعال فاقتله"[٣].

اللافت للنظر أنّ هناك إشارة إلى هذا الأمر في فكر مدرسة الخلفاء تدّعي وجود أنواع من هذه التواصليّة عند بعض الأولياء، في الوقت ذاته الذي نراهم فيه يرفضون التصديق بأنّ الله تعالى تكرّم على الإمام المهديّ بمثل هذه الحقائق، ومن ذلك قول الإمام أبي ضياء الدين الوتريّ في حديثه عن الشيخ عقيل بن شهاب الدين أحمد المنبجي العمريّ أحد أحفاد الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان يلقب بالغوّاص: "أعطاني الله الكلمة النافذة في كلّ شيء، ثمّ داخله الوجدُ فقال: وقال: يا هوام يا حجارة يا شجر صدّقوني فإني ما ادّعيت باطلاً، فوفدت الوحوش من الجبل وقد ملأ زئيرها وصراخها البقاع ودارت به، ورقصت الحجارة، فهذه صاعدة وهذه نازلة، واشتبكت الأغصان بعضها ببعض، ثمّ حضر فسكت وعاد كلّ لما كان عليه"[٤].

---

(١) المعجم، ج٤، ص٤٣٥.
(٢) المعجم، ج٥، ص٣١١.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه: ينظر مسلم حديث ٢٩٢١، ص١٢٢٣.
(٤) روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين، للشيخ محمّد بن عثمان القاضي، ص٣٥.

وقول اليافعيّ: "حكي أنه لمّا ولي عمر بن عبد العزيز (رض) الخلافة قال رعاة الشاة في رأس الجبال: "من هذا الخليفة الصالح الذي قام على الناس؟ فقيل لهم: وما أعلمكم بذلك؟ قالوا: إنه إذا قام خليفة صالح كفّ الذئاب والأسد عن شياهنا"[١].

على كلّ حال تقول الروايات المتواترة إنّ الإنسان هذا الكائن السامي سوف يتغيّر كذلك تغيّراً مختلفاً عمّا جبل عليه حيث يصبح ضميره هو الرقيب والحسيب على ما يأتي به؛ لأنه ما إن ينظر إلى كفه يرى الحكم الشرعيّ لما يروم القيام به من عمل، والمعلومة التي يحتاج إليها دونما بحث وعناء بحيث لا تعود له فرصة التحجّج بالجهل أو عدم المعرفة أو السهو، ثمّ إنّ الرقباء سيكونون قريبين منهم يرصدون حراكهم ويصحّحون هفواتهم حيث جاء عن الإمام محمّد بن جعفر عن أبيه عليه السلام: "إذا قام القائم بعث في أقاليم الأرض في كلّ إقليم رجلاً يقول: عهدك في كفك، فإذا ورد عليك ما لا تفهمه ولا تعرف القضاء فيه فانظر إلى كفك واعمل بما فيه"[٢].

ثمّ إنّ التواصليّة مع الإمام المهديّ سوف تكون أكثر تطوّراً حتى من أجهزة الاتصال الحاليّة أو المستقبليّة، حيث جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: "إنّ قائمنا إذا قام مدّ الله عزّ وجلّ لشيعتنا في أسماعهم وأبصارهم حتى لا يكون بينهم وبين القائم بريد، يكلمهم فيسمعون وينظرون إليه وهو في مكانه"[٣] وقول الإمام (لا يكون بينهم وبين القائم بريد) يؤكد أنّ هذه القدرة الخارقة لا يقصد بها استعمال أجهزة الاتصال الحديثة ذات الشاشات ومكبّرات الصوت مع أنّ ذلك ليس غريباً، بل هي قدرة جديدة تناسب ما هو عليه عصر الظهور.

وروى الصدوق: "أنّ الإمام ينصب له عمود من نور من الأرض على

---

(١) روض الرياحين في مناقب الصالحين، اليافعي اليمني، ص١٦٥.
(٢) الغيبة للنعماني، ص٢٤٤.
(٣) البحار، ٥٢/٣٣٦.

السماء فيرى فيه أعمال العباد"[١] وفي تفسير العياشي، والخرائج والجرائح، وقصص الأنبياء للراوندي عن أبي جعفر عليه السلام في حديثه عن المهديّ (عجّل الله فرجه): "ولذلك يسمّى صاحب المرأى والمسمع فله نور يرى به الأشياء من بعيد كما يرى من قريب ويسمع من بعيد كما يسمع من قريب وأنه يسيح في الدنيا كلها على السحاب مرة وعلى الريح أخرى وتطوى له الأرض"[٢].

إنّ كلّ الأخبار الموجودة لدينا بل كلّ المعطيات الفكريّة والعقليّة والشرعيّة تقول إنّ الإنسان في زمن الدولة المهدويّة سوف يتطوّر روحيّاً وفكريّاً تطوّراً لم يسبق له مثيل حيث تصل البشريّة إلى درجة الكمال. ووصولها إلى درجة الكمال هو المفتاح الذي سيفتح لها مجاهل الكون للتواصل مع المخلوقات الأخرى. وقد عجز بعض المسلمين عن إدراك هذه الحقيقة المدهشة، ولم تتحمّل عقولهم هذه الحقائق الدامغة، هذا طبعاً لأنها تخصّ المهدويّة، ولو كانت تخصّ موضوعاً آخر سواء كان صحيحاً أم لا، وسواء كنا متفقين معهم عليه أم لا، فإنهم لا يعترضون، حيث لم نجد مثلاً من يعترض منهم على موضوع تبدّل سلوك الحجر والشجر اللذين سيخاطبان المسلم يوم المعركة الكبرى بلسان عربيّ مبين؛ ليخبراه عن اليهوديّ اللائذ خلفهما. فاستعملوا طرق المادّيّين الملحدين؛؛ فضلاً عن طريقة القياس البائسة في إثبات وجهة نظر يريدون أن يجعلوها صحيحة، ويريدون من الناس أن يؤمنوا بها ويصدّقوا، حيث يدّعي طه الدليمي: "إنّ البشر لا يمكن أن تتغيّر طبيعتهم بالطفرة فيحدث الإصلاح بهذه السرعة السحريّة، بل ذلك مخالف لسنّة الله في خلقه القائمة على التدرّج والترقي شيئاً فشيئاً، فالانتقال من غاية الظلم والفساد إلى غاية العدل والرحمة في جيل واحد مستحيل، وإلاّ لحدث ذلك لموسى عليه السلام مع بني إسرائيل ولم يحتاجوا لأن يتهيّؤوا في الأرض أربعين عامّا"[٣].

---

(١) المعجم الموضوعي، ص٧١٢.
(٢) المعجم، ج٤، ص٥١٧.
(٣) ينظر: المهديّ المنتظر هذه الخرافة، مصدر سابق.

أنا من جانبي أجد أنّ صورة المستقبل الموعود تنبئ بأنّ الإنسان الحالي الذي هو بكلّ المقاييس سيّد المخلوقات مع كلّ ما تنطوي عليه شخصيّته من نقص وسلبيّة وقسوة وأنانيّة ومعصيّة سوف يتحوّل آنذاك إلى مخلوق متكامل السلوك، كامل الأداء، في ضمن تخطيط إلهيّ لحركة هذا الكون، بعد أن يكون قد تعرّض في الأزمنة القريبة من الظهور إلى رجّات قويّة على يد البشر الآخرين وصفتها مصادرنا بمرحلة الظلم والجور الذي يملأ الأرض، كما يظهر من مجموعة الأحاديث الواردة في هذا البحث، ووصفتها أو سمّتها مصادر الديانات الأخرى بـ(الخراب العظيم) كما في إنجيل برنابا في الفصل الثالث والخمسين "قبل أن يأتي ذلك اليوم سيحلّ بالعالم خراب عظيم وستنشب حرب فتاكة طاحنة فيقتل الأب ابنه ويقتل الابن أباه بسبب أحزاب الشعوب"[١].

أي: إنّ التكامل سوف يأتي بعد مرحلة الانهيار والسقوط الذي تتعرّض له البشريّة، التي تعيش اليوم تداعيات الانهيار وويلاته، ليرشدهم إلى سبيل الاستقامة السلوكيّة الخالية من الاستلاب والظلم. والناس أنفسهم سوف يتقبلون هذا الإرشاد بقلب مفتوح وفكر واعٍ؛ فيتهافتون على قيادة الدولة المعصومة للتخلي أمامها عن معتقداتهم السابقة واعتناق دين الإسلام بدلاً عمّا كانوا يؤمنون به، ممّا يسرّع في التكامليّة المنشودة التي سوف تنجح لأوّل مرّة في نقل الإنسان من طوره البشريّ المنقوص إلى الطور الآدميّ الذي يمثل التكامليّة القصوى التي هي أقصى ما يمكن أن يصل إليه الكائن البشريّ، فتتحقق نهاية التاريخ برؤيتها الإسلاميّة التي تختلف صورتها بالكامل عن الصورة التي رسمها عرّاب العولمة فرانسيس فوكوياما في كتابه (نهاية التاريخ والإنسان الأخير)

---

(١) إنجيل برنابا المحرم، ص١٠٤.

٣ ـ السيطرة على الطبيعة

وفي نهاية التاريخ هذه سوف يملك الكائن البشريّ بما وصل إليه من العرفانيّة والتطوّر الروحيّ والعلميّ والسلوكيّ والإيمانيّ قدرة السيطرة الكليّة على الطبيعة التي كانت من قبلُ قاسية ومتسلطة عليه، لأنّ الاقتدار على الطبيعة من خصائص العارف الحقيقيّ، وهو من الحقائق التي تؤمن بها كلّ الديانات، وقد روي عن عباد بن كثير البصريّ؛ قال: "قلت للإمام الباقر عليه السلام: ما حقّ المؤمن على الله؟

فقال عليه السلام: من حقّ المؤمن على الله أن لو قال لتلك النخلة: أقبلي لأقبلت.

قال عباد: فنظرت والله إلى النخلة التي كانت هناك قد تحرّكت مقبلة فأشار إليها: قرّي فلم أعنِكِ"[1].

المؤسف أنّ هنالك مَن عدّ حركة النخلة، وتكلم الإمام معها من الغلوّ والخرافات الشيعيّة التي لا يقبلها العقل، في ذات الوقت الذي يتقبّل فيه عقله سماع روايات وتصديقها؛ تشابه مضمون هذه الرواية، بل وتزيد عليها غرابة وتطرفاً، ولاسيّما أنّ الذين حرّكوا الأشجار والجبال أو كلموها لم يكونوا من ذرّيّة النبيّ الأكرم (الأئمّة المعصومين) الذين كلفهم الله بواجبات حفظ الرسالة وحملها وإيصالها إلى كلّ الأجيال. ولا يملكون جزءاً حتى ولو كان صغيراً من علم أهل البيت عليهم السلام وقدسيّتهم ومكانتهم، وأنّ ما أتوا به ـ إن صحّ ذلك ـ كان لخدمة مكانتهم الشخصيّة الدنيويّة، وتمجيد ذاتهم، ورفع شأنهم في أعين الناس أكثر منه عملاً يقصد به وجه الله تعالى أو خدمة دينه الحنيف. ومنه مجموعة النقول أدناه، وهي نقول أوردتها على سبيل المثال، وليس للتهكم بأصحابها كما قد يتبادر إلى ذهن من يؤمن بنظريّة المؤامرة ويحاول تحريف

---

(١) المهديّ الموعود، مهديّ شمس الدين، ص١٦ ـ ١٧.

القول عن مواضعه، لأنني لا أنكر أن يكون الله سبحانه قد أجرى بقدرته وعلمه نوعاً من الكرامات على أيدي العرفانيّين من عباده المكرمين:

في طبقات الشافعيّة ٤ / ٣٣٩ ـ ٣٤٠ "أنّ شجرة رمّان تكلمت مع الشيخ إبراهيم بن أدهم حيث قالت له: يا أبا إسحاق أكرمني بأن تأكل منّي شيئاً "قالت ذلك ثلاث مرات" وكانت شجرة قصيرة رمانها حامض، فأكل منها رمانة فطالت وحلا رمّانها وحملت في العام مرّتين. وسمّيت رمّانة العابدين!"[١].

ومثلها رواية أخرى تدّعي أنّ كرامات الأولياء هذه تنتقل بالوراثة إلى أبنائهم اليافعين الذين لا يؤمن شرّهم، حتى ولو لم يكونوا يملكون علماً وفقهاً. كما في حديثهم عن أبي عبيد البسري الدمشقيّ وكراماته التي قالوا فيها: "وكان له ابن صغير يخرج مع صبيان القرية يحتطبون من يابس أشجار التين والكروم، وفي أحد الأيّام عاد إلى أهله ومعه حزمة حطب وبيده تين أخضر

فقالت له والدته: من أين لك هذا التين الأخضر في الشتاء؟

فقال: قلت لرفقتي: تحبّون أطعمكم تيناً أخضرَ؟

فقالوا: نعم.

قال: فتوضأت للصلاة ركعتين، ثمّ دعوت بالدعاء الذي دعا به والدي البارحة، وسألت الله أن يطعمنا من تينة كنا عندها تيناً أخضر. فأطعمت لوقتها فأكلنا منها وحملنا. وكان والده يسمع قوله لأمّه؛ فقال أبو عبيدة لامرأته: أعظم الله أجرك فيه!

فقالت له: بالله إن فعلت، فإذا بالصبيّ ميت، فأخذوا في جهازه، وأوردوه في حفرته!

---

(١) معجزات الأنبياء كرامات للأولياء من هذه الأمّة، علي فرج العبدالله، ص٥٤.

فسُئل الشيخ عن ذلك؟ فقال: خشيت أن يدعوَ به على قرية فتهلك!!"[١].

أي إنّ الشيخ البسري الدمشقي كان يملك قدرة الإماتة والإحياء أيضاً بدلالة أنه بعد أن سمع القصّة قال لامرأته: (أعظم الله أجرك فيه) وهي جملة تقال لتصبير من يفقد عزيزاً. وبدلالة أنّ زوجته ترجته أن لا يميت ولده، وأقسمت عليه بالله أن لا يفعل فقالت: (بالله إن فعلت) ولكنّ الصبيّ وقع ميتاً بعد نيّة الشيخ على إماتته مباشرة من دون أن يلمسه أو يلحق به أذًى جسديّاً! ولا أدري لِمَ لمْ تستخدم قوّات الفتوح الإسلاميّة آنذاك هذا الشيخ لإماتة الأعداء!

كما جاء في (سير أعلام النبلاء)[٢] في المعنى نفسه عن عصام بن روّاد قال: "سمعت عيسى بن حازم النيسابوري يقول: كنّا بمكّة مع إبراهيم بن أدهم فنظر إلى أبي قبيس فقال: لو أنّ مؤمناً مستكمل الإيمان يهزّ الجبل لتحرّك، فتحرّك أبو قبيس فقال: اسكن ليس إيّاك أردت!" فهل سمعتم أنّ رسول الله ﷺ أمر أبا قبيس أن يحضر عنده في يوم ما؟

لذا نحن لا نستغرب من أن يتكرّم الله سبحانه على عباده المخلصين بالكرامات، ولاسيّما أنّها من الحقائق التي آمنت بها الأمم الأخرى أيضاً تبعاً لما جاء في كتبهم المقدّسة ففي إنجيل مرقس ١١: ٢٢ هناك قول السيّد المسيح لتلاميذه جاء فيه: "من قال لهذا الجبل قم وانطرح في البحر وهو لا يشكّ في قلبه بل يؤمن بأنّ ما يقوله سيكون، تمّ له ذلك"[٣].

فلِمَ إذن يأتي من يكيل بمكيالين، فيؤمن بكلّ هذه الأفعال، ولا يؤمن أنّ العقل السليم ينكر أن يكون الله تعالى قد منع عن الإمام المهديّ مثل هذه الكرامات التي تتناسب كلّيّاً ونهجه الذي سوف ينتهجه لإصلاح الكون كله،

---

(١) المصدر نفسه معجزات الأنبياء، ص٦٣.
(٢) سير أعلام النبلاء، ج٧، ص٣٩٣.
(٣) الإنجيل، ص٦٩.

في الوقت نفسه الذي تكرّم به الله سبحانه على غير المهديّ بمثل هذه الكرامات، وهم لا يملكون منهجاً مميّزاً؟

أعود وأقول إنّ التكامليّة التي سينشرها الإمام المهديّ في الكون سوف تُسَيد قيم الخير والروحانيّة والعرفانيّة، وتقضي على القيم البالية ممّا سيسهم في تطوير النزاهة الوجدانيّة المطلقة ونموّها في نفس الإنسان الآدميّ، وفي نفس الكائنات الكونيّة الأخرى كلّها بما يجعلها مستعدّة للبَدء بالمسير الختاميّ نحو الله لاختتام مسيرة الكدح الطويلة[١] وتحقيق اللقاء المرتقب ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[٢].

٤ ـ التبدّل العلميّ

لهذه التكامليّة الخِلقيّة والخُلقيّة أسباب؛ منها: فضلاً عمّا هو روحيّ خالص علميّ خالص، ومنها التكامل العلميّ الذي وصفه الإمام عليّ عليه السلام في إحدى خطب نهج البلاغة التي هي في صفة القائم بالقول: "فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع، وأراكم ما كنتم تأملون"[٣] أي: إنّ المجتمع سوف يتحوّل بكلّ تباييناته العقليّة والتفكيريّة إلى مجتمع عالِم لا يحتاج فيه المرء إلى العلوم الموجودة عند الآخرين من قومه ولا يحتاج إلى التعلم من الغرباء حسبما جاء في مختصر بصائر الدرجات في خطبة طويلة للإمام عليّ عليه السلام: "ويقذف في قلوب المؤمنين العلم فلا يحتاج مؤمن إلى ما عند أخيه"[٤]، وما جاء في غيبة النعماني: "وتؤتون الحكمة في زمانه حتى إنّ المرأة لتقضي في بيتها بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله"[٥].

إنّ تحوّل المجتمع كلّه إلى مجتمع حوزويّ علمائيّ متكامل فكريّاً بحيث

---

(١) ينظر: تكامل الإنسان، محمّد عبد الجبار الشبوط، ص٣٧.
(٢) سورة الانشقاق، الآية ٦.
(٣) الهيئة والإسلام، الشهرستاني، ص١٢٤.
(٤) تنبؤات النبيّ والأئمة لأحداث الأمّة، الشيخ مهديّ خليل، ص٢٤٧.
(٥) غيبة النعماني، ص٢٤٥، باب١٣، حديث٣٠.

لا يحتاج أحدهم إلى طلب العلم عند الآخرين يجعل من أمر الكونيّة شيئاً سهلاً ميسوراً.

وكما أكدت الرواياتُ موضوعَ (المال) وأهمّيّته في عصر ما قبل الظهور أكّدت كذلك موضوعَ (العلم) حيث أخذت الإشارات للمبتنيات العلميّة للدولة المهدويّة حيّزاً كبيراً في الأحاديث والروايات الدلاليّة للدلالة على أهمّيّة العلم القصوى، ولعلاقته بعصر الظهور كما هي علاقة المال، وعلاقته بالصعود إلى الفضاء وغزوه؛ لأنه السلطان الذي يتمّ النفاذ بموجبه إلى الأكوان الأخرى حسبما جاء في الآية المباركة: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٍ فَبِأَيِّ﴾[١].

والسلطان: هو البرهان أو الملك أو مطلق الحجّة، وفي الميزان للطباطبائي: "وقيل المراد بالنفوذ المنفي في الآية ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٍ﴾ النفوذ العلميّ في السماوات والأرض ومن أقطارهما"[٢]، وكأنّ الله تعالى يدعوهم إلى تحصيل العلم الذي يسمح لهم بالنفاذ إلى الأكوان.

ولما كانت خلاصة كلّ العلوم سوف تجتمع بيد الإمام المهديّ فإنّ نفاذه إلى الأكوان والمجرّات حق لا يرتاب به، وهذا النفاذ لن يكون لأجل المتعة أو الاطلاع وإنما لأجل نشر رسالة الإسلام ليظهرها على باقي الأديان ويتحقق الوعد.

وكما بلورت النظريات الاقتصاديّة الحديثة دور المال في حياة الشعوب المعاصرة كذلك بلورت النظريات العلميّة دور العلم في هذه المجتمعات، إذ يرى الباحثون أنّ عصرنا الراهن هو عصر الحتميّة الكبرى لحضارة العلم وعلم الحضارات بعد أن نجحت النهضة العلميّة التي انطلقت أواسط القرن التاسع عشر في بناء قواعد الانطلاق والانفتاح العلميّ التي قادت العلماء لاكتشاف

---

(١) سورة الحمن، الآية ٣٣.
(٢) الميزان، ج١٩ص ١٠٧.

الكثير من الجوانب العلميّة واختراعها التي لم تكن معروفة من قبلُ، وهي التي تكللت في ثمانينات القرن العشرين بثورة المعلومات والاتصالات التي أسهمت من جانبها في نقل المعارف والعلوم إلى كلّ بقاع الأرض ممّا أسهم في إحداث نهضة حضاريّة علميّة يقول المتخصصون إنّ مقدارها الكمّيّ والنوعيّ يزيد على مقدار كلّ العلوم التي جناها الإنسان من قبلُ في كلّ تأريخه.

دفعت هذه النهضة العالية الأمم إلى صياغة مشاريع تحديثيّة وبنائها في المجالات كافة حيث انتشرت التكنولوجيا الحديثة في العالم حتى إنّ مصطلح (الإنسان حيوان ناطق) تحوّل كما يقول الدكتور معن زيادة إلى (الإنسان حيوان تكنولوجي)[١] وتحوّلت تسمية جيل الشباب الذي يقصد به الجيل الحالي إلى اسم "الجيل الرقميّ" وقد مكنت هذه المشاريع التحديثيّة الكثير من الأمم في غزو الفضاء وإرسال الرواد الفضائيّين إلى مناطق سحيقة البعد في الكون، ثمّ إنّ الإيمان بنظريّة إمكانيّة التواصل البريديّ والوجاهيّ مع مخلوقات الأكوان الأخرى صار أقرب إلى الحقيقة منه إلى الخيال، هذا إذا لم يكن قد تحقق فعلاً، ولذلك أطلق بعضهم على هذا العصر اسم عصر تكامل العلوم أو الإنسان الأخير.

لكن حتى في هذه الحالة نجد نسبة العلوم المتداولة والمتنامية مقارنة مع نسبة ما سيظهر به الإمام المهديّ من علوم لا يمكن أن يخضع إلى قانون المقايسة؛ لأنّ كلّ هذه العلوم لن تشكل سوى جزء بسيط ممّا سيأتي به الإمام من العلوم.

فإذا كانت كلّ علومنا الحاضرة على قلتها مقارنة بالعلوم المهدويّة قد نجحت في قيادتنا إلى غزو الفضاء والنزول والمسير على سطح القمر، وجلب التراب من الكواكب الأخرى إلى المختبرات الأرضيّة والسياحة في الفضاء

---

(١) معالم على طريق تحديث الفكر العربي، الدكتور معن زيادة، ص١٣.

للبحث عن المخلوقات الفضائيّة والتوغل في عمق الكون السحيق، وإرسال المختبرات العلميّة إلى حافات المجرّات، فإنّ الكونيّة المهدويّة والتنقل في الأكوان في عصر المهديّ سيكون حتماً أسهل من التنقل في شوارع المدن الداخليّة.

أي إنّ التطوّر العلميّ المعاصر يدلّ على تمكن المهدويّة من اختراق حجب الأكوان من دون عناء اعتماداً على العلوم المادّيّة فقط حتى من دون حاجة إلى العلوم الروحانيّة والكراميّة التي يمتلكها الإمام المهديّ، في الأقل تصديقاً لآية النفاذ بسلطان العلم التي مرّت علينا قبل قليل، فكيف إذا ما كانت الإرادة الإلهيّة هي التي شاءت أن تدخر تكامل فنّ الصنائع كلها والتوصل إلى كلّ النتائج العلميّة التي كانت عالقة أو غير متحققة أو منجزة إلى زمن الدولة المهدويّة؟

ألا يعني هذا أنّ التطوّر والتقدّم غير المسبوق الذي سيسهم في خلق التطوّر الروحيّ والعلميّ التكامليّ سيكون النتيجة الحتميّة لتحقيق أمنيات ومشاريع الأنبياء والأوصياء والصالحين، الذي يرفع مكانة الإنسان إلى درجة مصافحة الملائكة والتنقل بين الأكوان والاختلاط بسكانها والتكلم معها من دون عائق؟

وإذا ما كان هنالك من يعتقد استحالة تحقق أمر الكونيّة تبعاً لحجم معارفه أو معارف العلوم المعاصرة، فإننا بلا شكّ نؤمن أيضاً أنّ ذلك كله لا يمكن أن يتحقق إلاّ بعد أن يتخلص الكائن من أدرانه النفسيّة والعقائديّة والجسديّة والفكريّة الموروثة من الماضي المنحرف، ويعتنق المعتقد الخالص النظيف المتكامل، لأنّ تخلص الإنسان بالذات من هذه الأدران يحقق وجود المجتمع الآدميّ المؤهل للعيش في أفياء الحكومة المهدويّة، هذا المجتمع القادر على التواصل الفعليّ مع نظائره في الأكوان الأخرى التي سيكون الإمام المهديّ حينها قد ساقها إلى حظيرة الإيمان بالله الواحد الأحد وبرسالة النبيّ محمّد ﷺ فمع هذه التكامليّة تصبح للإنسان قدرة اختراق حجب العلم

ومتعارفاتة الفيزيائيّة والفلكيّة حتى من دون الحاجة إلى استعمال الأجهزة والآلات والوسائط لهذا الاختراق "إنّ المؤمن في زمان القائم وهو بالمشرق ليرى أخاه الذي في المغرب، وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي في المشرق" وفي رواية مشابهة أخرى: "إنّ قائمنا إذا قام مدّ الله لشيعتنا في أسماعهم وأبصارهم حتى لا يكون بينهم وبين القائم بريد، يكلمهم فيسمعون وينظرون إليه وهو في مكانه"[١] أعود وأقول إنّ ذلك سوف يتمّ حتماً بطريق إعجازيّ أيضاً وليس عن طريق الآلات المعروفة فحسب؛ لأنّ استعمال الآلات المعروفة لا ميزة فيه ولا جذب، ولاسيّما أنها متاحة للبشر البسطاء.

وعلى سبيل المقايسة أقول: إذا كان هناك نوع من التطوّر الروحيّ بمستويات متدنية محدودة قد تحقق على الأرض من قبلُ وفق سنن الله التدرجيّة على مدى التاريخ؛ ففي غالب الأحيان كان هذا المشروع ينتكس ويعود إلى الوراء في حقب قياسيّة؛ فموسى عليه السلام مثلاً فارق قومه مدّة قصيرة جدّاً؛ فعادوا في أثنائها إلى عبادة الأوثان والعجول ونسوا مشروعه القيميّ الذي أتاهم به من السماء، أمّا في العصر المهدويّ؛ وبسبب اختفاء عوامل التأثير السلبيّ، وطغيان الروح العرفانيّة والإيمانيّة فسيكون التطوّر مطرداً ومتصاعداً ومتصلاً ومن دون رجوع إلى الوراء؛ لأنّ ثمّة علاقة بين التطوّر الروحيّ والتقدّم المادّيّ "بمعنى أنّ التطوّر الروحيّ لا بدّ أن ينتج تطوّراً علميّاً ومادّيّاً بما في ذلك انفتاح خيرات الله على البشر"[٢].

إنّ التكامليّة في الحياة تقتضي أنّ يحتاج المرء إلى غيره... وحيث إنّ السعي إلى التكامليّة بالتواصل مع الآخر أمر لا يمكن للإنسان إنكاره أو إلغاؤه؛ فإنه اعتقد بوجود حاجة ضروريّة إلى الدخول مع الآخرين في المعاملات، وهذه المعاملات قد تكون عائليّة، أو أخويّة، أو أسريّة، أو

---

(١) المعجم، ج٥، ص٣٠٩.
(٢) تكامل الإنسان، محمّد الشبوط، ٥٧ ـ ٥٨.

اجتماعيّة، أو اقتصاديّة، أو سياسيّة أو... وهي مهما كان نوعها يدخل التعاطي بين الأفراد بعضهم بعضاً أمر أساسيّ فيها[١] إنّ هذا التطوّر والتكامل والحاجة إلى التعامل مع الآخر سوف تخرج في زمن الدولة المهدويّة من طورها البشريّ الأرضيّ الموروث لتمتدّ في عمق الأكوان؛ لأنها تملك مقوّمات هذا الامتداد، وسينتج عن هذا التبدّل الجوهري عصر جديد لا يمكن لنا أن نتصوّر حقيقته أبداً؛ لأنّ ذلك العصر المخبوء في علم الغيب لن يكون مشابهاً لأيّ عصر آخر من تلك العصور التي مرّت على البشريّة، أو التي يُعتقد أنّ التطوّر العلميّ سيقود الإنسانيّة إليها الآن أو مستقبلا وحتى إلى ما قبل الظهور بزمن يسير.

وهذا بحدّ ذاته يعني أنّ أمر الكونيّة تبعاً لهذه المتغيّرات سيكون سهلاً، ولا توجد معوّقات تحول دون تحقيقه، لا من حيث القدرات الفكريّة والجسديّة، ولا من حيث الإمكانيّات المادّيّة والعلميّة، ولا من حيث القدرة الإعجازيّة الكراميّة للإمام المهديّ (عجّل الله فرجه) التي يصفها الإمام عليّ عليه السلام بقوله: "ويعرف من الله ما لم يعلم أحد" وهي التي قال عنها عليه السلام في مناسبة أخرى؛ وهو يتحدّث عن الإمام المهديّ (عجّل الله فرجه): "يعلمه الله فوق ما تعلمه الذي عنده علم من الكتاب"[٢] وفي (الروض المغرس): "المهديّ عليه السلام مضيء الوجه، بديع القسمات، يملك عقلاً لا كعقول البشر لأنه يتلقى الأحكام بالإلهام"[٣].

ولذلك سيفتح الله كلّ الأبواب أمام الإمام المهديّ والشعب المهدويّ؛ أو كما قال الإمام عليّ عليه السلام: "وما يكون من باب مغلق إلا يفتحه الله للمهديّ ولو كان وراء الباب بحار وأنهار وجيوش وقعاقع سلاح"[٤].

---

(١) فن التعامل مع الناس، ص١٦.
(٢) المفاجأة، محمّد صبحي داوّد، ص٥٠٨.
(٣) الروض المغرس في فضائل بيت المقدس، الشيخ تاج الدين عبد الوهاب بن عمر الشافعي.
(٤) المفاجأة، ص٥٠٨.

هذه الكرامات وهذا العطاء الإلهيّ يعني أنّ المهدويّة سوف تنجح عند قيام دولتها الكونيّة ليس في صنع الإنسان الكامل الفريد فحسب، هذا الإنسان الذي تمنى رسول الله ﷺ ومن بعده الإمام عليّ عليه السلام أن يصلا إليه ولكن لم يتحقق لهم ذلك لحكمة إلهيّة. هذا الإنسان الذي كان الأنبياء كلهم والأوصياء كلهم يأملون الوصول إليه ولكن لمشيئة الله سبحانه لم ينجحوا في تحقيق ذلك. هذا الإنسان الذي بحث عنه الفلاسفة القدماء ومنهم الفلاسفة العرب مثل أبي نصر الفارابي (٢٥٧ ـ ٣٣٩) ومحيي الدين بن عربي[١] ولم ينجحوا حتى في تصور هيأته الحقيقيّة. وإنما بمشيئة الله وقدرته سوف تنجح المهدويّة في صنع الكائن الكامل والإنسان الكامل، الذي سيرتقي من كمال الإنسانيّة إلى كمال الآدميّة، وهي أعلى مرحلة؛ من الممكن أن يصل إليها، وهي التي لم ينجح بالوصول إليها في أيّ مرحلة من مراحل حياته من قبلُ؛ سوى الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام وأصحاب الإمام الحسين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

ولا يقف أمر التطوّر عند هذه الدرجة المثاليّة الراقية أو عند هذا الحدّ؛ بل يتعدّاه إلى أمر في غاية الأهمّيّة والعظمة والكبر لم يتعامل مع معطياته الكاملة أحد من قبلُ من كلّ مخلوقات الله بكلّ درجاتهم ورتبهم ومنازلهم، وأقصد به تفتح المجالات العلميّة فائقة التطوّر التي وصلت إلى مراحل الكمال النهائيّ والخواتيم النهائيّة التي لا تطوّر بعدها، بعد أن يكون الإمام قد طرح إلى الساحة سبعة وعشرين حرفاً من أصل سبعة وعشرين حرفاً هي مجموع حروف المنظومة العلميّة الإلهيّة، وكلّ العلم الذي خلقه الله سبحانه ومن دون كلمة (قليلاً) التي وردت في آية ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ حيث جاء عن الإمام الصادق عليه السلام "العلم سبعة وعشرون حرفاً، فجميع ما جاءت به الرسل حرفان، فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الحرفين. فإذا قام قائمنا

(١) ينظر: في الدفاع عن روايات المهديّ، مهديّ حسينيات قمي.

أخرج الخمسة والعشرين حرفاًفي الناس وضمّ إليه الحرفين حتى يبثها سبعة وعشرين حرفاً"[١].

وأقول هنا على سبيل المقايسة أيضاً: إنه ورد في أحاديث المدرستين أنّ الله تعالى قسم رحمته إلى مئة قسم أنزل منها قسماً واحداً لتتعامل به المخلوقات فكانت كلّ الرحمة التي تظهر في السلوك التعامليّ اليوميّ من ذلك القسم، وادّخر تسعة وتسعين قسماً يحاسب بها عباده يوم القيامة. ومن بركات هذا القسم الواحد أن حنت الأمّ على ابنها والابن على والديه، والأخ على أخيه والحيوان على الحيوان والإنسان، والإنسان على الإنسان والحيوان، فكانت الرحمة قوام بقاء المخلوقات بشراً ودوابّ إلى يومنا هذا، وستبقى إلى يوم الدين. فكيف ستكون عند استعمال باقي الأقسام يا ترى؟

كذلك عاشت البشريّة وتطوّرت وتقدّمت وترفهت وغزت الفضاء واخترعت الأدوات وعبدت الله بقسمين أو بجزئين فقط من العلم، فأصبحت كما هي عليه اليوم، فكيف ستكون الحال عندما يستعمل الإمام المهديّ أقسام العلم الباقية والبالغة خمسة وعشرين قسماً؛ فضلاً عن القسمين المعمول بهما الآن يا ترى؟

وإذا كانت البشريّة منذ آدم عليه السلام وإلى يوم الظهور المرتقب قد نجحت في ترتيب أمورها كلّها بحرفين (جزءين) فقط من العلم، ووصلت إلى ما هي عليه اليوم وما تأمُل بالوصول إليه في المستقبل القريب من غزو المجرّات إلى السياحة في مجاهل الكون إلى الاتصال بالكائنات الفضائيّة، فإنّ السبعة والعشرين حرفاً أو جزءاً التي كانت مدّخرة، ولم يطلع عليها أحد من قبلُ أو اطلع عليها بعض أنبياء الله؛ ولكنهم لم يجدوا مكاناً أو حاجة لاستعمالها، سوف تفتح آفاقاً هائلة تجعل الفارق بين كلّ علومنا المتراكمة؛ سواء منها المكتسبة وراثيا أم المستحصلة بحثيّاً قطرة صغيرة في بحرها، ووجه المقارنة

---

(١) البحار ٥٢ / ٣٣٦ وفي المعجم (سبعة وعشرون جزء) ج٥، ص٣٠٧.

بين الاثنين كما هي مقارنة علوم العصر الحجريّ بعلوم العصر الراهن، ومثل مقارنة جزء الرحمة النازلة مع التسعة وتسعين جزءاً المدّخرة عند الله لحساب العباد يوم الحساب.

وهذا التطوّر الخارق لسنن الطبيعة ونواميسها بحجمه المهول الذي يبدو عليه قد يكون السبب الذي دفع بعض المسلمين للاستغراب من تمكن شخص معيّن بإحداث كلّ هذا التغيير في مجتمع ملياريّ العدد، ومتخم بكلّ أنواع الأسلحة التدميريّة الفتاكة. والدكتور الدليمي واحد من هؤلاء الذين شلّ هذا التصوّر فكرهم؛ فلم يستوعبوه على أصوله العلميّة والعقائديّة؛ ولذا نراه يقول مستهزئاً: "ثمّ إنه يستحيل عقلاً على شخص واحد أن يملأ الأرض عدلاً بعد أن تمتلئ جوراً ولاسيّما بعد أن كثر سكان الأرض فصاروا بالمليارات. وعندهم من الإمكانيّات الهائلة والأسلحة الفتاكة المدمّرة والقدرة على الفتك والمقاومة اللهمّ إلاّ على افتراض أن تفنى البشريّة فلا يبقى منها سوى قرية صغيرة واحدة يحكمها هذا (المهديّ) وعند ذلك يمكن لشيخ قبيلة بإمكانيّات بسيطة أن يبسط العدل المطلوب في تلك القرية فلا حاجة لوجود سوبرمانات أو طرزانات بشريّة"[١] وهو لا يدرك أنه يستهزئ بهذا القول من نفسه ومن عقيدته قبل غيره ويفضح جهله، إذ إنه لو كان مطلعاً على علوم المهدويّة وفكرها، وعارفاً بالتبدّلات التي سوف تحدث في عصر الظهور ما كان قد أوقع نفسه بهذا الإشكال!

أنا من جانبي أجد أنه من سابع المستحيلات أن يكون الانفتاح العلميّ الخارج عن حدود الوصف والتصوّر مدّخراً للقرية الصغيرة التي تكلم عليها طه الدليمي ولا حتى للأرض وحدها؛ لأنه أكبر من حاجة الأرض وهي بكامل تطوّرها ملايين المرّات، وإلاّ ما كان الله سبحانه قد حجبه من قبلُ عن

(١) المهديّ المنتظر هذه الخرافة، مصدر سابق.

أنبيائه أو منعهم من استعماله لو كانت الحاجة إليه قائمة في أيّ مرحلة من مراحل التاريخ البشريّ ممّا يعني أنه مدّخر لوجود أكبر من حجم هذه الأرض وأوسع، فهو واقعاً يسع الأكوان كلّها، كما تسع رحمة الله المخلوقات كلها منذ الأزل وإلى النفخ بالصور، وهذا من مصاديق كونيّة الحكومة المهدويّة.

فقد شاءت الإرادة الإلهيّة للإنسان أن يعرف حدّاً معيّناً من العلوم ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأنّ العلم كما يقول د. سروش: "لا يقترن دائما بالخير والحسن والبركة، ففي بعض الحالات يترتب عليه آثار سيئة للغاية"[1] وهذه حقيقة يدركها العارفون بل ويدركها عامّة الناس وبسطائهم، لأنّ الإنسان الذي حصل على علومه في ضمن هذه المحدوديّة التي وصفها الله تعالى بأنها (قليلا) نجح بالرغم من ذلك في إنتاج أسلحة الدمار والفتك الشامل، وملأ مخازنه بقوّة تكفي لتدمير الأرض كلّها عشرات المرّات، فماذا كان سيفعل لو امتلك قدرات علميّة أعلى من هذه المحدوديّة القليلة يا ترى؟ لو كان هتلر يملك قدرات أكبر ممّا كان لديه، ماذا كان سيصنع؟ لو أنّ أمريكا التي تسعى اليوم إلى السيطرة على العالم كانت تملك قدرات أكبر من القدرات المتاحة لها اليوم، ماذا كانت ستصنع؟

نستخلص من هذا أنّ أسرار العلوم التي ادّخرها الله سبحانه للإمام المهديّ لها بالتأكيد قدرة فعل المعجزات، في حين غزو الأكوان لم يعد بحدّ ذاته معجزة بعد أن نجحت الدول في ذلك من دون كثير عناء، ولذلك ستكون هذه العلوم مجتمعة بيد الإمام المهديّ؛ لكي تيسّر له القيام بالتغيير الكونيّ المطلوب؛ لأنّ حروف العلم السبعة والعشرين ومكمّلاتها النصرويّة الأخرى التي سنذكر بعضها لاحقاً بشيء من التفصيل، من الممكن أن تحقق هذه الكونيّة بل وتجعلها أسهل ممّا نتوقع بكثير.

---

(١) الدين العلماني، سروش، ص٤٧.

٥ ـ الآليّات المتطوّرة

؛ فضلاً عن النصرة المادّيّة والاقتصاديّة والسلوكيّة هناك نوع آخر من النصرة المادّيّة التي هي جزء من منظومة متكاملة للنصرة التي أعدّها الله سبحانه للإمام المهديّ تتعلق بنوع الآليّات التي سيمكنه الله تعالى من استعمالها استعمالاً تقليديًّ أو إعجازيّاً؛ حيث ورد في الحديث أنه عليه السلام يقدم بسبع قباب من نور؛ أي: سبع مراكب فضائيّة لها أنوار مشعّة، أو سبعة آليّات نورانيّة لا تدرك عقولنا ماهيّتها، وقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٍ فَبِأَيِّ﴾ قال: "ينزل القائم يوم الرجفة بسبع قباب من نور لا يُعْلمُ في أيّها هو حتى ينزل ظهر الكوفة" الحظ هنا قول الإمام (لا يُعْلَم في أيّها هو) فهو من الأمور الاحترازيّة الأمنيّة التي لم تكن معروفة من قبلُ، حيث يقوم المسؤولون والرؤساء المعاصرون في إخفاء وجودهم عن الأعداء المحتملين بالتمويه في المركبات المغلقة حتى لا يُعْرَف في أيّ مركبة يركبون.

كما جاء في رؤيا يوحنا: "وعندما التفتُ نحو الصوت رأيتُ كائناً يشبه ابن الإنسان يقف وسط سبع منائر من ذهب ويرتدي ثوباً طويلاً إلى الرجلين"[١].

ومن مخطوطة ترجع إلى القرن السادس الميلاديّ منسوبة إلى شخص اسمه (سير التازي) تتحدّث عن نبوءات آخر الزمان ذكرها صاحب كتاب المفاجأة، هذا النصّ: "يملك النهرين وما وراء النهر ورايته تكون فوق الثلج ويحبّها الطير وله طير كالطير هكذا قال نبيّهم الذي بشر أنه يملك كلّ الدنيا"[٢] فما هو قصده بقول (وله طير كالطير) يا ترى؟

---

(١) المسيح المنتظر، عباس الزيدي عن التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص ٢٧٥٥ ـ ٢٧٥٦.
(٢) المفاجأة، محمّد عيسى داوّد، ص٥٢٥.

إنّ الانتقال بقباب النور التي يقصد بها الإمام الصادق المراكب الفضائيّة، أو مراكب من جنس البراق الذي عرج به النبيّ ﷺ إلى السماء يعني أنه يتنقل بوساطتها بين المجرّات والأكوان. وإلاّ فهو ليس بحاجة لاستخدام هذه الواسطة ولا بحاجة إلى استخدام لمركبات الفضائيّة للتنقل بها في سماء أرضنا نظراً إلى أنه مفضل بكرامة طيّ الأرض التي تغنيه عن استعمال المركبات الفضائيّة.

ولا يفوتنا هنا الإشارة إلى أنّ بعض الروايات التي ادّعت أنّ للدجال أيضاً بعضاً من القوى الخارقة كما في الحديث الذي أخرجه ابن حماد في الفتن، وابن أبي شيبة في المصنف، والحاكم في المستدرك، والسيوطي في الدرّ المنثور، والكشميري في التصريح، والمتقي الهندي في البرهان عن النبيّ ﷺ أنه قال: "بين أذني حمار الدجّال أربعون ذراعاً، وخطوة حماره مسيرة ثلاثة أيام، ويخوض البحر على حماره كما يخوض أحدكم الساقية على فرسه..."[1] فإذا صدقنا بهذه الرواية وأخذنا بها على اعتبار أنّ الدجّال سوف يخرج أيضاً بآليّات وقدرات غير مسبوقة تتناسب من حيث القوّة والنوع وبعض آليّات عدوّه الإمام المهديّ؛ فإنّ مجرد هزيمة الدجّال على يدي المهديّ وأعوانه يؤكد أنّ العلوم والقوى التي بين يدي المهديّ أقوى آلاف المرّات ممّا بين يدي الدجّالين كلهم. وأكبر ممّا تحتاج إليه الأرض، وعندذاك ستكون هذه العلوم هي الأداة التي تقود جيوش المهدويّة إلى الأكوان.

٦ ـ الإلهام اللغويّ

ومن النصرة أيضاً أنّ الله سبحانه سوف يمكّن الإمام المهديّ من التكلم مع كلّ قوم بلغتهم ولهجتهم من دون حاجة إلى مترجم أو مساعد، وهنا قد يقول بعضهم إنّ ذلك ليس بالأمر المعجز؛ لأنّ الدول الكبرى تملك في هذا العصر مؤسّسات ترجمة فيها أشخاص يجيدون أغلب اللغات المعروفة وحتى

---

(١) المعجم، ج٢، ص١٩٠.

اللغات القديمة منها، بل إنّ بعض وكالات الأنباء العالميّة تبث أخبارها بثلاثين أو أربعين لغة فأين الإعجاز؟ وأقول جواباً: إنّ الإمام المهديّ لم يدرس اللغات في مدرسة كما فعل المختصّون بالترجمة، بل تلقاها إلهاماً، وأنّ البشريّة مهما تطوّرت لا يمكن أن تجود بشخص واحد له قدرة الإلمام اللغات واللهجات الأرضيّة كافة، ومن يجيد من هؤلاء أكثر من لغة مهما كثرت يجهل بالكامل لغة الكائنات الفضائيّة؛ بل لا تعرف كيف يخاطب هذه الكائنات أو كيف تتخاطب فيما بينها، في حين نجد الإمام ملمّاً بلهجات أهل الأرض ولغاتهم وسكان السماء كلهم.

إنّ البشريّة بعد جهد جهيد نجحت في معرفة بعض المفردات التخاطبيّة لأنواع راقية من الحيوانات مثل الدولفين والقرد لا تزيد مفرداتها على عدد أصابع اليد، أمّا حينما يأتي الإمام المهديّ؛ فإنه سوف يكلم الطيور والحيوانات الأخرى، بل والموجودات الأخرى كالحجر والشجر بنصّ الحديث النبويّ، وذلك لكي تكون البيانات والدعوات التي يصدرها ويوجهها للخلائق مفهومة للجميع. أي: إنه سيأتي وهو يملك قدرة التكلم مع جميع الخلائق كما يشير إلى ذلك حديث الإمام الصادق عليه السلام: "ثمّ يصيح صائح بالخلائق من عين الشمس بلسان عربيّ يسمع من في السموات والأرض: يا معشر الخلائق هذا مهديّ آل محمّد بايعوه ولا تخالفوا أمره"[1].

وقوله عليه السلام: (بلسان عربي) أي: بلسان صحيح فصيح مفهوم للخلائق كلها، كلٌّ منهم يسمعه بلغته ويفهمه كما هو اللسان العربيّ مفهوم بالنسبة للعرب. وقوله (من عين الشمس) يقصد به من السماء العليا؛ لأنّ الشمس كانت بمفهوم الناس آنذاك أعلى موجود يمكن رؤيته، وهي قطب الكون. وقوله (يا معشر الخلائق) يقصد به كلّ الخلائق وليس الإنسان وحده فقط.

وفي رواية أخرى مشابهة قال الإمام الصادق عليه السلام: "فإذا طلعت الشمس

---

(١) البحار، ٥٢/ ٢٧٩.

وأضاءت صاح صائح بالخلائق من عين الشمس بلسان عربيّ بين يسمع من في السماوات والأرضين: يا معشر الخلائق هذا مهديّ آل محمّد بايعوه ولا تخالفوا أمره فتضلوا، فإنّ أوّل من يقبّل يده الملائكة ثمّ الجنّ، ثم النقباء ولا يبقى ذو أذن إلا سمع ذلك النداء"[١].

فانظر إلى قوله عليه السلام: (أوّل من يقبّل يده الملائكة ثمّ الجنّ ثمّ النقباء) وانظر إلى قوله: (ولا يبقى ذو أذن إلا سمع النداء) والأذن ليست مخصوصة بالإنسان وحده؛ فكلّ الكائنات لها آذان أو أعصاب سمعيّة أو قدرة على سماع الأصوات، وسماعها للنداء يوجب عليها إعطاء البيعة للإمام. إنّ عدم استثناء الإمام الصادق لأحد من أصحاب الآذان أي: المدارك والإحساس، يؤكد أنّ سكان الأكوان الأخرى ملزمون باتباع المهديّ؛ وهذا يؤكد كونيّة المهمّة المهدويّة. وفي حديث عن الصادق عليه السلام: "يحبّه ساكن الأرض وساكن السماء"[٢].

وفي (المفاجأة) وصف جميل لهذه المعرفة؛ فالكاتب وبنصّ أخذه من الكتب القديمة شبّه فيه مقدرة الإمام المهديّ على التخاطب مع كلّ كائن بلغته وكأنها وجه له ألف لسان كلّ واحد منها يتكلم بلغة قوم من الأقوام، ويقول النصّ المقتبس: "ومنه يخرج نداء كلّ زمن من وجه واحد له ألف لسان"[٣].

هنا يجب أن ندرك أنّ معرفة الإمام المهديّ لألسن الكائنات ولغاتها ليس مقصوراً عليه وحده؛ وإنما هو من موجبات التكليف الرساليّ ليبيّن للناس أنّ بين الحجّة والمحجوج فرقاً كبيراً، إذ جاء في الأخبار أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل البيت المعصومين عليهم السلام كانوا جميعهم يمتلكون هذه النصرة، وفي رواية سأل أحدهم الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام: "يا بن رسول الله لِمَ سُمّيَ

(١) البحار ٥٣ / ٧.
(٢) يوم الخلاص، كامل سليمان، ص٣٠٦.
(٣) المفاجأة، محمّد عيسى داوّد، ص٥٣٠.

النبيّ الأمّيّ؟ فقال عليه السلام: ما يقول الناس؟ فقال الرجل: يقولون: إنه سُمّيَ الأمّيّ لأنه لم يكن يحسن أن يكتب أو يقرأ!

فقال عليه السلام: كذبوا على رسول الله، حسبهم الله، إذن كيف يقول الله في محكم كتابه المجيد وبيانه الحكيم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فكيف كان يعلمهم ما لا يحسن أصلا؟ **والله لقد كان رسول الله يقرأ ويكتب بعدد لغات أهل الأرض والسماء** ممّا علمه عالم السرّ وأخفى، وإنما سُمّيَ (بالأمّيّ)؛ لأنه كان من أهل مكّة، ومكة أمّ القرى، وذلك تجده في قول الله عزّ وجلّ ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾"

وورد في الكافي عن المفضل بن عمر قال: "أتينا إلى باب أبي عبدالله عليه السلام ونحن نريد الإذن عليه فسمعناه يتكلم بكلام ليس بالعربيّة، فتوهمنا أنه بالسريانيّة، ثمّ بكى فبكينا لبكائه، ثمّ خرج إلينا الغلام فأذن لنا فدخلنا عليه فقلت: أصلحك الله أتيناك ونريد الإذن عليك فسمعناك تتكلم بكلام ليس بالعربيّة فتوهمنا أنه السريانيّة، ثمّ بكيت فبكينا لبكائك، فقال: نعم ذكرت إلياس النبيّ عليه السلام وكان من عباد أنبياء بني إسرائيل فقلت كما كان يقول في سجوده، ثمّ اندفع فيه بالسريانيّة، فلا والله ما رأينا قسّاً ولا جاثليقاً أفصح لهجة منه"[1].

كما روى أبو حمزة خادم الإمام العسكريّ عليه السلام: "إنه كثيراً ما سمع العسكريّ يكلم غلمانه بلغاتهم وفيهم ترك وروم وصقالبة، فيتعجّب من ذلك ويقول في خاطره من دون أن يظهر صوته: هذا ـ في إشارة للإمام ـ ولد بالمدينة ولم يظهر على أحد حتى توفي أبوه ولا رآه أحد فكيف يتحدّث هذا؟ وحين خطر له هذا الخاطر أقبل عليه العسكريّ عليه السلام وقال: إنّ الله أبان حجّته من سائر خلقه، وأعطاه معرفة كلّ شيء فهو يعرف اللغات والأنساب

(١) الزام الناصب، ج١، ص٣٥.

والحوادث ولولا ذلك لم يكن بين الحجّة والمحجوج فرق"[١] إذن هي مسألة فرق بين الحجّة والمحجوج، ولمّا كان الإمام المنتظر هو حجّة الله على عباده؛ فمن المؤكد أنه يختلف عنهم في هذه الناحية؛ لكي لا تكون لهم عليه حجّة، وتكون له الحجّة عليهم.

ونجد في تراث المسلمين أقوالاً عن حديث الكائنات الحيّة والجامدة في آخر الزمان؛ على أنّها واحد من أشراط الساعة، ففي مستدرك الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره بما أحدث أهله من بعده"[٢].

إنّ هذا النوع من النصرة الربّانيّة الخاصّة تجد من ادّعاه ـ كما هي باقي المكرمات ـ للعامّة ولبعض البسطاء الذين وجدوا من يحبّهم ويدّعي أنّ لهم معجزات وفضائل وكرامات، حيث ورد في شذرات الذهب قول الحنبلي نقلا عن المناوي في حديثه عن شمس الدين محمّد السروي الشهير بابن الحمائل: "إنه كان يتكلم بألسن غير عربيّة من عجم وهند ونوبة"[٣] بما يؤكد أهمّيّة توفر هذا النوع من النصرة وعلى درجات متفاوتة لكلّ حامل مشروع تجديديّ وتغييريّ، ولذا تجد أنّ هذه النصرة كما كان وجودها مهمّاً في مشاريع الأئمّة المعصومين عليهم السلام من قبلُ ستكون مهمّة لمشروع الإمام القائم (عجّل الله فرجه) بل هي من مقوّمات نهضته؛ لأنه سيأتي لكلّ الأمم البشريّة وللمخلوقات الكونيّة الأخرى التي يتكلم كلّ منها بلغة مختلفة عن لغة غيره. والإشارة إلى هذا الشأن فيها رمزيّة لا تخفى على أحد فكأنّ الأئمّة يريدون باطلاع

---

(١) يوم الخلاص، كامل سليمان، ص٣٣٧.

(٢) المستدرك على الصحيحين، الحاكم الحسكاني، الجزء ٤، ص٥١٤، حديث رقم ٨٤٤٢/ ١٥٠.

(٣) معجزات الأنبياء كرامات الأولياء، مصدر سابق، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب، بد الحي بن أحمد بن محمّد ابن العماد العكري الحنبلي، ص١٨٧.

أصحابهم على هذه المقدرة الإلهاميّة أن يقولوا للآتين مستقبلاً من أتباعهم والسائرين على نهجهم: إنّ هذه الكرامة ستكون إحدى الآليّات المساعدة في المشروع المهدويّ عند قيام الدولة المهدويّة المرتقبة التي ستأتي للكون كلّه.

ثمّ إنّ تكرّم الله سبحانه على آل البيت الكرام بوراثة علوم الأنبياء كلها يؤكد وجود هذه الكرامة لدى الإمام المهديّ عجّل الله فرجه، وقد ورثها عن آبائه عن رسل الله عن نوح عليه السلام، ففي سفر التكوين: "فقال الله لنوح نهاية كلّ البشر قد أتت أمامي؛ لأنّ الأرض اُمتلئت ظلماً منهم، فها أنا مهلكهم مع الأرض، اصنع لنفسك فلكاً من الخشب، فها أنا آتي بطوفان الماء على الأرض لأهلك كلّ جسد فيه روح حياة من تحت السماء، كلّ ما في الأرض يموت ولكن أقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بيتك معك، ومن كلّ حيّ من كلّ ذي جسد اثنين من كلّ تدخل على الفلك لاستبقائها معك"[1].

والسؤال: بأيّ لغة تكلم نوح مع الحيوانات ودعاها لتأتي إليه عند السفينة، ثمّ أدخلها تحت إمرته وإطاعته ولم تخالف أمره، فلم يعتدِ الحيوان المفترس على غيره من الحيوانات، ولم تلدغ الأفعى، ولم يغادر الطير لأكثر من خمسة أشهر مكثت في السفينة لحين انتهاء الطوفان الذي استمرّ المطر ينهمر في أثنائه مدّة أربعين يوماً؟ إنّ الجواب الطبيعيّ لهذا السؤال هو أنّ نبيّ الله نوح عليه السلام كان يعرف لغة الحيوانات وكان يتكلم معها بلغاتها. وكذلك ورث الإمام الحجّة هذه الكرامة عن نبيّ الله سليمان الذي فهم ما تكلمت به النملة كما يخبرنا القرآن الكريم.

ولابدّ من أنّ هذه الوراثة كانت معروفة لدى باقي المسلمين لما وجدوا أثرها عند أهل البيت عليهم السلام، وربّما لهذا السبب ادّعوها لرموزهم كما ادّعوا فضائل الآل الأخرى؛ وهناك قصص كثيرة بهذا الخصوص منها ما يخصّ

---

(١) التوراة، سفر التكوين.

(الصحابيّ أو التابعيّ) أبا مسلم الخولاني[١] عن حديثه مع الحيوانت متمثلة بالطائر الذي وقف على سنان رمحه ليخبره عن السريّة التي غابت أخبارها: "أنّ السريّة قد سلمت وغنمت وسترد عليكم هذا اليوم" تماماً كما نقل الهدهد إلى نبيّ الله سليمان عليه السلام خبر أهل مملكة سبأ.

ومنها في حديثهم عن أحد رجال الطريقة الصوفيّة النقشبنديّة: "ويحكون أنّ شيخهم علمه أن يطلب المدد من كلاب الحضرة النقشبنديّة ويخدمهم بإخلاص، وأنه اجتمع مرّة بكلبِ وحرباء، فحصل له من لقائهما بكاء عظيم، وسمع لهما تأوّهاً وحنيناً فاستلقى كلّ منهما على ظهره، ورفع الكلب قوائمه الأربع إلى السماء وأخذ يدعو الله، وكذلك فعلت الحرباء، والشيخ واقفٌ يقول: آمين، يؤمِّنُ على دعاء الكلب والحرباء"[٢].

(١) هناك اختلاف بين العلماء وأصحاب نظريات الصحبة بشأنه فيما إذا ما كان صحابيا أم تابعيا لأنهم قالوا انه أسلم في زمن البعثة ولكنه لم ير النبيّ ﷺ.

(٢) ينظر: موقع صيد الفوائد،الرابط http://www.saaid.net/feraq/sufyah/t/6.htm عن المواهب السرمديّة في مناقب النقشبنديّة ١١٨ ـ ١١٩ الأنوار القدسيّة في مناقب النقشبنديّة ١٣٠.

الفصل الرابع

مصاديق التطوّر الروحيّ

التطوّر الروحيّ

فضلاً عن مصاديق التطوّر المادّيّ التي ستسهم في تحقيق الكونيّة المهدويّة هناك مصاديق أخرى تخصّ الجانب الروحيّ تأتي قبال التطوّر المادّيّ؛ لكي تسهم المصاديق بمجموعها في تحقيق الكونيّة وامتداد سلطة الحكومة المهدويّة إلى الفضاء والمجرّات الكونيّة.

فالمهديّ المنتظر وإن لم يكن نبيّاً إلاّ أنّ مهمّته تعدّ أكبر من مهامّ جميع الأنبياء؛ لأنّه سوف يحقق ما عجز الأنبياء عن تحقيقه ليس لعجز فيهم أو لتقصير منهم (حاشاهم الله)؛ وإنما لأنّ الله سبحانه شاء ذلك وفقاً لبرنامجه المعدّ للأكوان، إذ من المعروف أنّ الله سبحانه أعطى نوعاً من هذه النصرة المحدودة للأنبياء منها التقاء موسى عليه السلام بالخضر، ومنها الملائكة الذين نصروا المسلمين ونبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة بدر الكبرى. أمّا النصرة التي ادّخرها للقائم فهي نصرة من نوع جديد؛ وهي النصرة الكاملة التي سيكون من مصاديق تكاملها اشتراك الأنبياء أنفسهم في نصرة الإمام المنتظر، وكأنّ الله سبحانه جيّش كلّ جيوش الخير؛ لتقضي على الشرور إلى الأبد.

١ ـ النصرة بالأنبياء والأولياء

أوّل نصرة روحيّة سيمدّ الله سبحانه بها الإمام المهديّ؛ هي نصرة الأنبياء والمرسلين، وهذا النوع من النصرة الكاملة سيوفره الله تعالى للإمام المهديّ ليس محدّداً بنوع أو بشخص أو بأداة بذاتها، بل بكلّ هذه الأنواع مجتمعة. فالخضر عليه السلام لم يكن نبيّاً؛ ولكنه كان يعي أموراً ويدرك حقائق خفيت على موسى عليه السلام؛ وهو من الأنبياء أولي العزم. والخضر مع امتلاكه لهذه المنزلة

السامية العالية التي سخرها الله تعالى له، والأعلميّة الكبيرة التي تفوق أعلميّة الكثير من الأنبياء، وتصل في بعض مراحلها إلى درجة العلم ببعض الغيبيّات المستقبليّة التي لا يعلمها البشر سيكون أحد المساعدين للإمام المهديّ في مهمّته، وسيكون تحت إمرته ومن ضمن المِلاك الوظيفيّ لدولته، وهي نصرة روحيّة لم تتحقق لأحد بهذا الشكل والمضمون في السابق باستثناء قصّة النبيّ موسى، ولاسيّما أنّ القرآن الكريم أورد نقاش الخضر مع موسى؛ وكأنّ فيه شيئاً من الاستعلاء كما في قوله "هذا فراق بيني وبينك" أي: عليك الآن أن تفارقني لأنك لم تطق الصبر على ما أقوم به إلى أن أخبرك بمغزى عملي وغايته.

ثمّ إنّ عيسى عليه السلام سيكون هو الآخر في نصرته، وأحد أركان دولته، وروايات نزول عيسى وصلاته خلف المهديّ ومساعدته في إقامة دولة الحقّ والقتال بين يديه، متفق عليها بين المسلمين، وهي من التواتر بحيث أصبحت من المسلمات البديهيّة، رغم اختلافها من حيث المضمون أحياناً.؛ فضلاً عن إيمان المسيحيّين بالعودة الثانية للسيّد المسيح.

ولو كان أمر الإمام المهديّ شأناً أرضيّاً لما كان الخضر والمسيح يأتيان بأمر الله ليكونا من مساعديه، بل لو كانت البشريّة وحدها هي المحتاجة إلى هذه التعاضديّة لكان الله سبحانه قد نصر نبيّه محمّداً صلى الله عليه وآله حامل آخر رسالة سماويّة بالخضر والمسيح عليهما السلام وأهل الكهف والرقيم أيضاً الذين سيكونون من ضمن مِلاك دولة الإمام المهديّ، حيث جاء عن ابن عباس أنّ رسول الله قال: "أصحاب الكهف أعوان المهديّ"[١] وفي البحار: "تقوم الروم إلى ساحل البحر عند كهف الفتية فيبعث الله الفتيّة من كهفهم مع كلبهم منهم رجل يقال له مليخا وآخر خملاها؛ وهما الشاهدان المسلمان للقائم".وأخرج السيوطي في الدرّ المنثور قول رسول الله صلى الله عليه وآله: "الفتية من أنصاره"[٢].

---

(١) المعجم، ج١، ص٣٣١.

(٢) ينظر: المفاجأة، محمّد عيسى داوّد، ص٣٥٦.

ومنه ندرك أنّ هذه النصرة قد ادّخرها الله للإمام المهديّ وحده دون سواه؛ لأنه سبحانه أرسله للعالمين كافة؛ أي: لكلّ البشر الموجودين على الكرة الأرضيّة والمخلوقات الموجودة في الأكوان الأخرى، في حين المعروف أنّ الله سبحانه لم يرسل من قبلُ نبيّاً في مهمّة مثل هذه من حيث الحجمُ والمساحة، وهو عمل يحتاج إلى مثل هذه النصرة التي لم تقع لأحد من الأنبياء ممّن كلفوا بأعمال أرضيّة سابقاً، ممّا يعني أنّ هذه النصرة مدّخرة لشأن عظيم جدّاً سوف يخرج عن حدود الأرض والسماء المعروفتين إلى مجاهل الأكوان التي لم يرها أو يسمع عنها أحد من قبلُ شيئاً. بما يستوجب وجودها لتحقيق هذا الهدف الكبير.

ثمّ إنّ الله (سبحانه) سوف ينصره بالأبدال الذين قال عنهم رسول الله ﷺ: "الأبدال في هذه الأمّة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن كلما مات رجل أبدل الله تبارك وتعالى مكانه رجلاً" وفي حلية الأولياء عن ابن عمر؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "خيار أمّتي في كلّ قرن خمسمئة والأبدال أربعون، فلا الخمسمئة ينقصون ولا الأربعون، كلما مات رجل أبدل الله من الخمسمئة مكانه، وأدخل من الأربعين مكانهم "[1] وفي الفردوس والجامع الصغير وكنز العمال وفيض الغدير في صفة الأبدال عن النبيّ ﷺ: "ثلاث من كنّ فيه فهو من الأبدال الذين بهم قوام الدنيا وأهلها: الرضا بالقضاء، والصبر على محارم الله، والغضب في ذات الله"[2] فتصوّر أن يكون مع الإمام المهديّ خمسمئة شخص أو خمسمئة وأربعون شخصاً مثل نبيّ الله إبراهيم خليل الرحمن؛ فماذا من الممكن أن يصنعوا. كذلك سوف ينصره الله بالنبيّ إلياس عليه السلام؛ ليكون من ضمن ملاك دولته[3] وهناك في الروايات أنّ إلياس صعد إلى السماوات العُلى برحلة إسرائيّة بين الكواكب؛

(١) المعجم، ج٢، ص٣٤١ ـ ٣٤٢.
(٢) المعجم، ج٢، ص٣٤٥.
(٣) المعجم، ج٤، ص٤٣٩.

فانظر كيف يتساوق هذا الإسراء وصعود المهديّ المرتقب إليها، وسوف ينصره الله تعالى ببقايا قوم موسى عليه السلام "يأتيه الله ببقايا قوم موسى ويجيء له أصحاب الكهف"[١].

وهنا يطرح سؤال مهمّ نفسه: لِمَ هؤلاء الأنبياء من دون غيرهم أعدّوا لنصرة الإمام المهديّ من بين ذلك الكمّ الكبير من الأنبياء الذين تقول الروايات إنّ عددهم فاق مئة وأربعة وعشرين ألف نبيّ؟

والجواب عن ذلك نجده في نوعيّة الأنبياء الذين اختارهم الله من دون سواهم؛ فالخضر الذي هو ليس نبيّاً، وهو الذي من المؤكد أنّ مرتبته أعلى من مرتبة الكثير من الأنبياء، تميّز بمعرفة العلوم بأنواعها كافة؛ ومنها جزء من علم الغيب الذي أطلعه الله عليه؛ وهو ما يحتاج إليه مجهود الإمام المهديّ تحديداً.. وعيسى عليه السلام سيكون النبيّ المقدّس لغالبيّة سكان الأرض يوم الظهور إذ إنّ عدد الأمم التي تؤمن برسالته يفوق عدد المسلمين كثيراً؛ وهي مسألة معروفة والإمام المهديّ يحتاج إليه؛ لكي يمنع أتباعه من محاربة جيوش الإمام؛ لكي يتفرّغ الإمام لحرب الكفار في الأكوان كلها. وأهل الكهف أنموذجات تتوسم فيها مجاميع الشباب في العالم مثلاً يحتذى به، وسيقنع قدومهم الشباب للالتحاق في مسيرة الثورة المهدويّة. والأبدال والأخيار سيكونون أخلص الناس للثورة والمدافعين الحقيقيّين عنها ونصرتهم تسهم في إنجاح الثورة بالتأكيد، يؤيّد هذه الحقائق أنّ الإمام المهديّ سوف يكون منصوراً أيضاً بمدّخرات الأنبياء للربط بين الأنبياء ومدّخراتهم الإعجازيّة لتأمين النصرة الكليّة.

٢ ـ النصرة بمدّخرات الأنبياء

ولا تقف النصرة عند الأنبياء والأولياء الذين سينزلون للعمل في ملاك

---

(١) المعجم، ج٤، ص٢٠٩.

الدولة المهدويّة الوظيفيّ؛ لتقديم النصرة الروحيّة للمجتمعات، بل تتعدّاه إلى النصرة بذخائرهم، وهي الأخرى التي تمثل ترابطاً روحيّاً بين الناس والقصص الإعجازيّة الموروثة للمدّخرات، لأنّ الروايات تقول إنه (عج) يقدم أو ينزل إلى الأرض بسرير سليمان عليه السلام الذي كان يتنقل به في السماء حيث جاء عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: "ويسير نحو الكوفة وينزل على سرير سليمان وبيمينه عصا موسى" والأمم حينما تراه يطير ببساط سليمان حاملاً عصا موسى سوف تؤمن بالتأكيد أنه وارث الأنبياء.

كما روى نعيم بن حماد في الفتن قول رسول الله (عليه أفضل السلام): "إذا افتتحتم روميّة فادخلوا الكنيسة الشرقيّة؛ فاعقدوا سبع بلاطات، ثمّ اقلعوا الثامنة؛ فإنّ تحتها عصا موسى والإنجيل طريّاً وحليّ بيت المقدس"[١].

وفي إثبات الهداة ٣/ ٧٠٠ عن إثبات الرجعة للفضل بن شاذان قال: "ما من معجزة من معجزات الأنبياء والأوصياء إلاّ ويظهر الله تبارك وتعالى مثلها على يد قائمنا، لإتمام الحجّة على الأعداء"[٢].

وفي مستدرك الوسائل وإثبات الهداة والأصول الستة عشر عن محمّد بن عليّ عليه السلام: "... معه سلاح رسول الله ومِغفر رسول الله ودرع رسول الله وسيف رسول الله "[٣] وفي روايات متفرقة يظهر المهديّ ومعه راية رسول الله ودرعه وقميصه وسلاحه[٤] وفي رواية عن الصادق عليه السلام: "سيفه ودرعه وعمامته وبرده ورايته وقضيبه وفرسه ولأمته وسرجه"[٥] وعن عبدالله بن شريك قال: "مع المهديّ راية رسول الله صلى الله عليه وآله [المغلبة] ليتني أدركته وأنا جدع"[٦].

---

(١) كتاب الفتن، نعيم بن حماد المروزي.
(٢) المعجم الموضوعي، الكوراني، ص٢٧٥ ـ ٢٧٦.
(٣) المعجم، ج٤، ص٣٦٥.
(٤) المعجم، ج٥، ص٨٤ و٨٥ و٨٦ و٨٧ و٨٨ و٨٩ و٩٠.
(٥) معجم أحاديث المهديّ ج٣، ص٤٩٧، حديث ١٠٦٨.
(٦) العرف الوردي للسيوطي، ص١١١.

وعن أبي عبدالله عليه السلام: "عصا موسى قضيب من غرس الجنة أتاه بها جبرائيل لمّا توجّه تلقاء مدين؛ وهي وتابوت آدم في بحيرة طبريّة ولن يبليا ولن يتغيّرا حتى يخرجهما القائم إذا قدم"[١].

هذا، وقد جاء عن الإمام عليّ عليه السلام قوله: "يركب المهديّ الهواء لا بسحر ولا بفتنة عين بل بعلم يعرفه من سبقوه[يقصد من سبقه من الأنبياء والمخلَصين الذين أعطاهم الله هذه الميزة]فيعمل منه أمثال الجبال تسبح في بحر السماء [يقصد مركبات فضائيّة كبيرة جدّاً تشبه الجبال في حجمها تكفي لانتقال جنده بها] ويرقى في أسباب السماوات والأرضين، ويعرف من الله ما لم يعلم أحد من كلّ أهل الأرض أيّامه، ولا تمرّ الأيّام حتى يقطع كلّ الأرض من أعلاها وتحتها شبراً بشبر وذراعاً بذراع وحوضاً بحوض"[٢] أي: إنّ النصرة لن تقتصر على حضورهم بأجسامهم بل وبعلومهم أيضاً.

وأقول في هذه المناسبة إنّ هنالك من أتباع المدارس الإسلاميّة من ادّعى امتلاك القدرة على ركوب الريح والتنقل بواسطتها لبعض من يحبّهم مع أنهم ليسوا بحاجة لذلك، وليس لديهم برامج ربّانيّة يبغون تنفيذها لإصلاح الكون كما هو الإمام المهديّ، حيث جاء في (شذرات الذهب) قول ابن العماد الحنبلي نقلاً عن المناوي: "توفي شمس الدين محمّد السروي الشهير بابن الحمائل سنة **٩٣٢** هجريّة، وكان كثير الطيران من بلد لآخر"[٣].

وهناك من قال إنّ في الأوّلين من امتلك مثل هذه القدرة كما ورد عن ابن الجوزي في المنتظم في رواية أوردناها لكم من قبلُ، أجتزئ منها قوله: حكى أبو الحسين بن جعفر المنادي: أنّ هشام بن محمّد، والشرقي بن قطامي قالا: "وكان أوّل من ملك الدنيا من أولاد آدم جمشاد بن بونجهان، من ولد

---

(١) المعجم، ج٥، ص٩٠.
(٢) المفاجأة، محمّد عيسى داوّد، ص٤٧١.
(٣) شذرات الذهب، ج٨، ص١٨٧.

قابيل **وكان يقطع الدنيا كلّ يوم** كما تقطعها الشمس، **يضحي بالمشرق ويمسي بالمغرب**، ملكها بين آدم ونوح"[١].

وهذا يعني أنّ وجود مدّخرات الأنبياء ومعجزاتهم كلّها مع الإمام المنتظر يدلل على أنه مكلف بإنجاز مهمّات كلّ الأنبياء والمصلحين السابقين المؤجّلة، أو التي لم تتحقق في حياتهم، دفعة واحدة، ومكلف بإتمام مشاريعهم كلّها.

أمّا الأرض يوم الظهور وقبله فمهما عتت وتجبّرت، ومهما كبر طاغوت الإنسان فيها لا تحتاج إلى تجميع مدّخرات مئة وأربعة وعشرين ألف نبيّ أو حتى مجموعة معيّنة من الأنبياء دفعة واحدة للقيام بعمل تغييريّ في حدود جغرافيتها المعروفة. ثمّ إنّ التكبّر والتجبّر والعتوّ في زمن الأنبياء لم يكن أقلّ ممّا هو عليه اليوم أو سيكون عليه وقت الظهور؛ بل كان متساوقاً وطبيعة الحياة والنظم المعروفة، ودرجة التقدّم العلميّ للشعوب والسلوكيّات المجتمعيّة في كلّ عصر من عصور الأنبياء، وما ورد في حديث النبيّ الأكرم ﷺ: "بعثت بين جاهليّتين لأخراهما شرّ من أولاهما"[٢] يعني أنّ الجاهليّة الأخيرة ستكون أقسى من الجاهليّة الأولى من حيث أنّ الجاهليّة الأولى كانت بعيدة عهد بالرسالات، أمّا الثانية فإنها تجحد الرسالة المحمّديّة ولا تعترف برسالات أنبيائها، ومن حيث امتلاكها الآليّات والقوى التي أفرزها التطوّر العلميّ والمجتمعيّ التي ستساعدها على إيقاع الأذى وإلاّ فإنما تشتركان من حيث التحلل السلوكيّ والأخلاقيّ والعقيديّ بدلالة قوله ﷺ: "سيجيء أقوام في آخر الزمان وجوههم وجوه الآدميّين وقلوبهم قلوب الشياطين؛ أمثال الذئاب الضواري ليس في قلوبهم شيء من الرحمة سفاكون

---

(١) المنتظم في التاريخ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، الجزء الأول، باب ذكر من ملك الأرض كلها.

(٢) المعجم، ج١، ص٤٧٧.

للدماء لا يرعوون عن قبيح..."[١] فهذا الحديث يبيّن أنّ أخلاق أهل آخر الزمان ستكون مثل أخلاق عتاة الجاهليّة الأولى الذين كانت وجوههم وجوه الآدميّين وقلوبهم قلوب الشياطين؛ وهم الذين حاربوا الإسلام منذ ولادته وعذبوا وقتلوا المؤمنين بالرسالة المحمّديّة وقاطعوهم وهجروهم وحاربوا بعد ذلك مشاريعهم الإصلاحيّة العظيمة فركنوهم بعيداً عن مسير الأحداث. وهم الذين يقاتلون المهدويّة وفكرها اليوم ويدّعون أنها خرافة. وهم الذين سوف يستقبلون المهديّ كما استقبل أجدادهم القرشيّون رسول الله ﷺ شاهرين سيوفهم متهيّئين للقتال.

نعم ورد عن الفضيل بن يسار قوله: "سمعت أبا عبدالله يقول: إنّ قائمنا إذا قام استقبل من جهل الناس أشدّ ما استقبله رسول الله ﷺ من جُهّال الجاهليّة قلت: وكيف ذاك؟ قال: إنّ رسول الله ﷺ أتى الناس وهم يعبدون الحجارة والصخر والعيدان والخشب المنحوتة. وإنّ قائمنا إذا أتى الناس وكلهم يتأوّل عليه كتاب الله ويحتجّ به عليه. ثمّ قال: أما والله ليدخلنّ عليهم عدله جوف بيوتهم كما يدخل الحرّ والقرّ"[٢] وفي حديث آخر عن أبي حمزة الثماليّ قال: "سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إنّ صاحب هذا الأمر لو قد ظهر لقي من الناس ما لقي رسول الله ﷺ وأكثر"[٣] إلا أننا يجب أن لا نغفل حقيقة أنّ المنقذ لن يظهر ليقابل جبّاري عصره وعتاته بآليّات الأنبياء والمصلحين السابقين وأساليبهم نفسها؛ ومنها آليّات النبيّ محمّد ﷺ وأساليبه، والإمام عليّ عليه السلام ممّا قد يخلق تفاوتاً في ميزان القوى بين الجانبين، بل سوف يظهر مدعوماً بوسائلَ وآليّاتٍ تفوق ما لدى أعدائه كثيراً، ولا قدرة للمتجبّرين على التصدّي لها مطلقاً، ؛ فضلاً عن أنّ هذه الآليّات ستكون أقوى من تلك التي كانت عند الأنبياء في زمانهم.

---

(١) المعجم، ج١، ص٤٧٦.
(٢) غيبة النعماني، ص٣٠٧، باب ١٧، حديث ١.
(٣) المصدر نفسه، غيبة النعماني، ص٣٠٨.

كذلك إنه لن يسير مع العصاة والمعترضين عليه بسيرة النبيّ ﷺ الرحيمة لسبب لم يفهمه الجاهلون؛ فظنّوا أو حاولوا تسويق هذا التباين بين العامّة على أساس أنّ مهديّ الشيعة لا يسير على سيرة النبيّ ﷺ وهذه حقيقة وردت هي؛ وسببها عن زرارة بن أعين قال: "قلت للباقر عليه السلام أيسير بسيرة محمّد ﷺ؟ قال: هيهات يا زرارة ما يسير بسيرته. قلت: جعلت فداك، لِمَ؟ قال: إنّ رسول الله ﷺ سار في أمّته بالمنّ، كان يتآلف الناس، والقائم يسير بالقتل، وذاك أمر في الكتاب الذي معه، أن يسير بالقتل ولا يستتيب أحداً، ويل لمن ناوأه"[١] ومعنى هذا أنّنا حقّاً وصدقاً نؤمن عن يقين أنّ الإمام المهديّ لن يسير على سيرة النبيّ ﷺ، ولكن في شأن واحد فقط؛ أراد أعداء المهدويّة أن يعمّموه على كامل السيرة النبويّة؛ ليوهموا الناس بعدم إسلاميّة مهديّ الشيعة، وهذا الشأن يتناسب وطور الدولة المهدويّة؛ فالنبيّ ﷺ كان يتآلف الناس؛ لكي يدخلهم في هدي الله لأنهم مشركون، أمّا الإمام المهديّ فسيقاتل أقواماً دينيّة تدّعي أنها تؤمن بالله؛ ولذا لن يستتيبهم ومن هنا جاء الخلاف بين السيرتين وهو الخلاف الذي سعى بعض المغرضين إلى توظيفه لطعن الأطروحة المهدويّة في الفكر الشيعيّ؛ وقد فات هؤلاء أننا نقول إنّ الإمام المهديّ لن يسير كذلك مع أعدائه بسيرة الإمام عليّ عليه السلام التسامحيّة كما ورد عن أبي خديجة عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: "إنّ عليّاً عليه السلام قال: كان لي أن أقتل المولّي وأجهز على الجريح؛ ولكنّي تركت ذلك للعاقبة من أصحابي إن جرحوا لم يقتلوا، والقائم له أن يقتل المولّي ويجهز على الجريح"[٢] وعن الحسن بن هارون بياع الأنماط قال: "كنت عند أبي عبدالله عليه السلام جالساً فسأله المعلى بن خنيس: أيسير القائم إذا قام بخلاف سيرة عليّ عليه السلام؟ فقال: نعم، وذاك أنّ عليّاً سار بالمنّ والكفّ، لأنه علم أنّ شيعته

(١) غيبة النعماني، ص٢٣٦ ـ ٢٣٧ باب ١٣ حديث ١٤.
(٢) غيبة النعماني، ص٢٣٧، حديث ١٥.

سيظهر عليهم من بعده، وأنّ القائم إذا قام سار فيهم بالسيف والسبي، وذلك أنه يعلم أنّ شيعته لن يظهر عليهم من بعده أبداً"[١].

أي: إنه(عج) سيكون الطرف الأقوى في هذه المنازلة وفي هذه المعادلة. وما عدا ذلك؛ فإنّ الأذى واقع في الحالين وفي العصرين، ولكن لا يخفى أنه في كلّ عصر كان يتساوق ـ كما قلنا ـ والإمكانيّات المادّيّة والعلميّة للعصر ذاته، فالجاهليّة هي الجاهليّة في كلّ عصر وأوان، ولذلك قال المختصّون: إنها من الجهل ضدّ الحلم وليس الجهل ضدّ العلم، فلكلّ عصر علومه التي يسخرها لخدمة توجهاته سواء كانت سالبة أم موجبة.

ونعود لنقول: لِمَ لمْ ينصَر الله تعالى أيّ نبيّ بالأنبياء وبمدّخرات الأنبياء الذين سبقوه من قبلُ؟ ولِمَ ادّخرت هذه المدّخرات للمهديّ من دونهم مع أنه ليس نبيّاً، لو لم يكن مشروع المهدويّة يحتاج فعلاً لهذا النوع من النصرة العالية؛ لأنه مشروع يشمل الأكوان كلها، وليس محكوماً بحدود الكرة الأرضيّة كما كانت رسالاتهم التي جاءوا بها؟

٣ ـ النصرة بالملائكة

قد نصر الله تعالى أنبياءه، وخُلّص عباده بالملائكة في مواطنَ كثيرةٍ في ضمن البرنامج الإلهيّ الكونيّ، وكان الأنبياء على اطلاع على نوع هذه النصرة وحدودها حيث جاء في إنجيل برنابا أنّ السيّد المسيح عليه السلام قال لأحد أصحابه الذي أراد التصدّي ليهوذا وجموع رؤساء الكهنة الذين جاؤوا لاعتقاله: "ردّ سيفك إلى مكانه لأنّ كلّ الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون. أتظنّ أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة. فكيف تكتب الكتب أنه هكذا ينبغي أن يكون.....؟ وأمّا هذا كله فقد كان لكي تكمل كتب الأنبياء"[٢] كما جاء في أعمال الرسل من إنجيل برنابا

---

(١) المصدر نفسه، غيبة النعماني، ص٢٣٧ ـ ٢٣٨ حديث ١٦.

(٢) الإصحاح السادس والعشرين ـ برنابا الإنجيل المحرم، حسن علي الصائغ.

أيضاً: "وامتلأت قلوب رؤساء الكهنة والصدوقيّين غيرة فوضعوا التلاميذ بالحبس ولكن جاءت الملائكة وحرّرتهم فذهبوا إلى الهيكل" وقد جاء في الروايات والأحاديث أنّ الإمام المهديّ (عجّل الله فرجه) سيكون كذلك منصوراً بجند الله وملائكته؛ ليجمع كلّ الخلائق على توحيد الله، ولذلك أطلقت عليه بعض كتب الأمم الأخرى لقب (قائد الملائكة) كما ورد في كتاب (باسك) الهنديّ: "سينتهي الأمر في آخر الزمان حول دين حاكم عادل **وهو قائد الملائكة والجنّ والإنس**، والحقّ والصدق يكون معه "[١]. هذا وقد ورد أنّ الإمام عليّاً عليه السلام كان منصوراً بالملائكة وقائداً لها، إذ ورد في إحدى خطبه قوله: "أنا قايد الأملاك"[٢] كما كان الأئمة المعصومون (عليهم السلام أجمعين) منصورين بالملائكة أيضاً.

والروايات التي تتحدّث عن أنواع الملائكة وأعدادهم الذين ينصرون الإمام المهديّ وينتصرون له قولاً وعملا تؤكد أنّ مثل هذا الأمر لم يتيسّر بهذا الحجم لأحد من الأنبياء من قبلُ. بل إنّ عدم تحديد الله سبحانه لعدد جنوده وملائكته الذين سوف ينصرون الإمام المهديّ، وكما يبدو بالشكل المطلق الذي سيتضح لنا بالروايات يعني أنه سبحانه سوف ينصره بعدد غير محدود يفوق آلاف المرّات عدد الملائكة الذين نصر بهم النبيّ محمّداً صلى الله عليه وآله في غزوة بدر الكبرى لأنّ ملائكة بدر سيكونون جزءاً صغيراً من أقسام الملائكة الذين ينصرون الإمام المنتظر، إذ جاء في غيبة النعماني عن عليّ بن أبي حمزة، قال: "قال أبو عبدالله عليه السلام إذا قام القائم صلوات الله عليه نزلت ملائكة بدر وهم خمسة آلاف" وفي الهداية للحضيني عن مدلج بن هارون بن سعيد قال: سمعت أمير المؤمنين يقول لعمر في كلام طويل: "... ويؤيّده الله بالملائكة والجنّ"[٣] وفي الترمذي وكنز العمال وتذكرة القرطبي وتحفة الأشراف عن

---

(١) المعجم، ج١، ص٧٠.
(٢) إلزام الناصب، ج٢، ص٢٥٢.
(٣) المعجم الموضوعي، ص ٤٠٨.

النبيّ ﷺ: "فلو لم يبقَ من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يأتيهم رجل من أهل بيتي تكون الملائكة بين يديه ويُظهر الإسلام"[١] وفي البحار ومنتخب الأثر ونوادر الأخبار وأمالي الشيخ الصدوق عن رسول الله ﷺ: "لمّا عُرج بي إلى السماء السابعة ومنها إلى سدرة المنتهى ومن السدرة إلى حجب النور ناداني ربّي (جلّ جلاله) يا محمّد أنت عبدي وأنا ربّك فلي فاخضع وإيّاي فاعبد وعليّ فتوكل فإني قد رضيت بك عبداً وحبيباً ورسولاً ونبيّاً..... وبالقائم منكم أعمر أرضي بتسبيحي وتهليلي وتقديسي وتكبيري وتمجيدي وبه أطهر الأرض من أعدائي وأُورثها أوليائي، وبه أجعل كلمة الذين كفروا بي السفلى... وأمدّه بملائكتي لتؤيّده على إنفاذ أمري وإعلان ديني، ذلك وليّي حقاً ومهديّ عبادي صدقاً"[٢] وفي إلزام الناصب عن المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام: "وعدد أصحابه حينئذٍ ستة وأربعون ألفاً من الملائكة وستة آلاف من الجنّ، وفي رواية أخرى ومثلها من الجنّ بهم ينصره الله ويفتح على يديه"[٣] وفي كامل الزيارات عن أبان بن تغلب عن الإمام الصادق عليه السلام: ".. فينشر راية رسول الله ﷺ... فينحط عليه ثلاثة عشر ألف ملك وثلاثمئة وثلاثة عشر ملكاً، قلت: كلّ هؤلاء الملائكة؟ قال: نعم، الذين كانوا مع نوح في السفينة، والذين كانوا مع إبراهيم حين ألقي في النار، والذين كانوا مع موسى حين فلق البحر لبني إسرائيل، والذين كانوا مع عيسى حين رفعه الله إليه، وأربعة آلاف ملك مع النبيّ مسوّمين، وألف مردفين، وثلاثمئة وثلاثة عشر ملائكة بدريّين، وأربعة آلاف ملك هبطوا يريدون القتال مع الحسين..."[٤] وفي كامل الزيارات وثواب الأعمال ومن لا يحضره الفقيه والتهذيب ووسائل الشيعة والبحار وغيرها عن أبي عبدالله عليه السلام:

---

(١) المعجم، ج١، ص١٦١.
(٢) المعجم، ج١، ص٢٤٨ ـ ٢٤٩.
(٣) إلزام الناصب، ج٢، ص٢٧٨.
(٤) المعجم الموضوعي، ص٤٠٩ ـ ٤١٠.

"وكّل الله تعالى بالحسين عليه السلام سبعين ألف ملك يصلون عليه كلّ يوم شعثاً غبراً منذ يوم قتل إلى ما شاء الله. يعني بذلك قيام القائم"[١].

والأمر أكثر من ذلك لأنّ جبرائيل وإسرافيل وهما سيّدا الملائكة سيكونان في مقدّمته وساقته حيث جاء في الاختصاص عن حذيفة قال: "سمعت رسول الله يقول: إذا كان عند خروج القائم ينادي منادٍ من السماء أيّها الناس قطع عنكم مدّ الجبّارين، وولي الأمر خير أمّة محمّد فالحقوا بمكة. فيخرج النجباء من مصرَ، والأبدال من الشام، وعصائب العراق رهبان بالليل ليوث بالنهار كأنّ قلوبهم زبر الحديد، فيبايعونه بين الركن والمقام. قال عمران بن حصين: يا رسول الله صف لنا هذا الرجل؟ قال: هو رجل من ولد الحسين كأنه من رجال شنوءة عليه عباءتان قطوانيّتان، اسمه اسمي، فعند ذلك تفرح الطيور في أوكارها، والحيتان في بحارها، وتمدّ الأنهار، وتفيض العيون، وتنبت الأرض أكلها. ثمّ يسير؛ مقدّمته جبرائيل، وساقته إسرافيل، فيملأ الأرض عدلا وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً"[٢] وروى نعيم بن حماد المروزي في الفتن وابن حجر في الصواعق وغيرهم عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام: "يمدّه الله بثلاثة آلاف من الملائكة يضربون وجوه من خالفهم وأدبارهم" وفي تذكرة القرطبي عن النبيّ صلى الله عليه وآله: "فلو لم يبقَ من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يأتيَهم رجل من أهل بيتي تكون الملائكة بين يديه يظهر الإسلام"[٣] وفي غيبة النعماني وأعلام الورى والبحار ومنتخب الأثر وغيرها قال أبو عبدالله عليه السلام: "إذا قام القائم صلوات الله عليه نزلت ملائكة بدر؛ وهم خمسة آلاف، ثلث على خيول شهب، وثلث على خيول بلق، وثلث على خيول حوّ، قلت: وما الحوّ؟ قال: هي الحمر"[٤] وفي تفسير العياشي وإثبات

---

(١) المعجم، ج٥، ص٢٥٩.
(٢) المعجم الموضوعي، الكوراني، ص٤١١.
(٣) المصدر نفسه، المعجم الموضوعي، ص٤١١ ـ ٤١٢.
(٤) المعجم، ج٥، ص٢٦٤.

الهداة والبرهان والبحار ونور الثقلين عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: "إنّ الملائكة الذين نصروا محمّداً صلى الله عليه وآله يوم بدر في الأرض ما صعدوا بعدُ، ولا يصعدون حتى ينصروا صاحب هذا الأمر، وهم خمسة آلاف"[١] وفي مختصر بصائر الدرجات من خطبة طويلة للإمام عليّ عليه السلام في أصحاب القائم: "ومن الملائكة أربعون ألفاً"[٢].

والنصرة في عصر الظهور سوف تكون بالتأكيد نصرة حقيقيّة، ومشاركة فعليّة وليس إكثار عدد لأغراض الحث والتشجيع كما حصل من قبلُ؛ لأنّ الله يريد أن يجمع الخلائق بأجناسهم على توحيده. وقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله لأبي حمزة الثماليّ: "لو قد خرج قائم آل محمّد لنصره الله تعالى بالملائكة المسوّمين والمردفين والمنزلين والكروبيّين، يكون جبريل أمامه وميكائيل عن يمينه وإسرافيل عن يساره والرعب يسير مسيرة شهر أمامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله، والملائكة المقرّبون حذاءه"[٣]. كما جاء في خبر المعراج قوله صلى الله عليه وآله: "فنظرت وأنا بين يدي ربّي إلى ساق العرش فوجدت مكتوباً عليها..... ولأطهرنّ بآخرهم الأرض من أعدائي ولأمكنّنه مشارق الأرض ومغاربها ولأسخرنّ له الرياح.. ولأرقينّه في الأسباب ولأنصرنّه بجندي ولأمدّنّه بملائكتي حتى يعلن دعوتي ويجمع الخلق على توحيدي"[٤].

هذا العدد الكبير من جند الله والملائكة لم يشترك بمجموعاته المختلفة الدرجات بجهد واحد محدّد من قبلُ؛ كما سيجتمع للإمام المهديّ، ليس لأنّ الإمام المهديّ أفضل من الأنبياء كما قد يتبادر إلى الذهن أوّل مرّة؛ بل لأنه لم يسبق لجهد ما مهما كان نوعه أن احتاج إلى تجييش كلّ هذه الأعداد والأنواع الكبيرة من الملائكة وتجنيدها لأداء عمل أرضيّ في أيّ حقبة من

---

(١) المعجم، ج٧، ص٨٩.
(٢) تنبؤات النبيّ، الشيخ مهديّ خليل، مصدر سابق، ص٢٤٧.
(٣) غيبة النعماني، ص ٢٣٤.
(٤) كمال الدين وإتمام النعمة، الشيخ الصدوق، ص٢٤٤.

حقب التاريخ البشريّ منذ أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام وإلى اليوم الموعود، ممّا يعني أنّ اشتراك هذا الجمع من الملائكة والجند الربّانيّين سيكون حتماً من أجل قضيّة لم تمرّ على البشريّة قضيّة مثلها وبحجمها من قبلُ، وفي المحصلة هو حشد أكبر من حاجة الكرة الأرضيّة بالتأكيد ولاسيّما أنّ معلوماتنا تفيد أنّ هناك بين الملائكة من هو قادر وحده على تفتيت الأرض كلها وتحويلها إلى رماد بما يؤكد أنّ الجهد أكبر من حاجة الأرض، وله علاقة بحجم الكون كلّه بكلّ مجرّاته وكواكبه.

ولكن مع كلّ هذه النقول المتواترة الصحيحة نجد هنالك بين المسلمين من ينكر أن يكون الله تعالى قد أعدّ للإمام المهديّ مثل هذه النصرة، ومن الغرابة أنّ هؤلاء الثلة يؤمنون في ذات الوقت أنّ الله يمكن أن ينصر هذا العبد أو ذاك من عامّة الناس الذين حتى ولو كانوا يحملون مشروعاً معيّناً؛ فإنه بالتأكيد لا يرقى لأن يكون في مصافّ مفردة واحدة من مفردات المشروع المهدويّ، ينصرهم بالجنّ والملائكة لكي يساعدوهم في إنجاز بعض الأمور التافهة البسيطة التي يمرّ مثلها على البشر مئات المرّات في كلّ حين، وهي التي لا تحتاج إلى عمل إعجازيّ، أو إلى كرامة لأنّ تغيّر حالها أو تغيير حالة فرديّة منها لن يؤثر في مجريات الكون كما يريد الله للمهديّ أن يفعل. وقد جاء في حياة الحيوان للدميري[١] قصة ما حصل للشيخ عبد القادر الجيلاني (رحمه الله) وذلك أنه جاءه بعض أهل بغداد، وذكر له أنّ ابنته اختطفت من سطح داره؛ وهي بكر؛ فقال له الشيخ: اذهب إلى خراب الكرخ واجلس عند التلّ الخامس وخطّ عليك دائرة في الأرض وقل وأنت تخطها: بسم الله على نيّة عبد القادر، فإذا كانت فحمة العشاء مرّت بك طوائف الجنّ على صور شتى، فلا يروعك منظرهم، فإذا كان السحر مرّ بك ملكهم في جحفل منهم؛ فيسأل عن حاجتك فقل: بعثني إليك الشيخ عبد القادر، واذكر له حاجتك.

(١) حياة الحيوان، الدميري، ج١، ص٢٧٠.

قال: فذهبت وفعلت ما أمرني به الشيخ فمرّت بي صور مزعجة المنظر، ولم يقدر أحد منهم على الدنوّ من الدائرة التي أنا فيها، وما زالوا يمرّون زمراً إلى أن جاء ملكهم راكباً فرساً وبين يديه أمم منهم فوقف بإزاء الدائرة وقال: يا إنسي ما حاجتك؟ قال: قلت: قد بعثني إليك الشيخ عبد القادر الجيلاني، فنزل عن فرسه وقبّل الأرض وجلس خارج الدائرة وجلس من معه، ثمّ قال لي: ما شأنك؟ فذكرت له قصّة ابنتي فقال لمن حوله: "عليّ بمن فعل هذا، فأتي بمارد ومعه ابنتي فقيل له: إنّ هذا من مردة الصين! فقال له: ما حملك على أن اختطفت من تحت ركاب القطب؟ فقال: إنها وقعت في نفسي! فأمر به فضرب عنقه وأعطاني ابنتي فقلت: ما رأيت كالليلة في امتثالك أمر الشيخ عبد القادر! قال: نعم، إنه لينظر من داره إلى مردة الجنّ وهم بأقصى الأرض فيفرّون من هيبته، وإن الله تعالى إذا أقام قطباً مكنه من الجنّ والإنس[1].

ونحن لو سلمنا لمجرّد الجدال بمنطق من يدّعي أنّ المهديّ سيكون عند ظهوره مجرد مجدّد من مجموعة المجدّدين الذين يهديهم الله للحفاظ على الدين على رأس كلّ مئة عام؛ فهو بالتأكيد سيكون قطباً في الأقلّ حاله حال الشيخ القطب عبد القادر وفي مثل هذه الحال يجب أن يكون مثل غيره من الأقطاب الآخرين حائزاً لكرامة التمكن من الجنّ والإنس تبعاً لقاعدة (وإنّ الله تعالى إذا أقام قطباً مكنه من الجنّ والإنس) التي وضعوها، أمّا أن ندّعي التمكين لكلّ الأقطاب وعندما نصل إلى الإمام المهديّ نقف ونستكثر على الله أن يمدّه بهذا الدعم ونحرمه من هذا التمكين فتلك مسألة تدعو إلى الشكّ الكبير وتدلّ على اختلاف المعايير والموازين.

٤ ـ النصرة بالشوق إلى لقاء الإمام

ومن النصرة أيضاً أنّ الله سبحانه جعل قلوب المخلوقات كلها تهفو إلى لقاء الحجّة المنتظر ورؤيته وانتظار ساعة فرجه وقيامه بالأمر الموكل إليه من

(١) معجزات الأنبياء كرامات للأولياء من هذه الأمّة، علي فرج العبدالله، ص٥٥ ـ ٥٦.

الله سبحانه وتعالى، وقد جاء عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: "يفرح به أهل السماء وأهل الأرض والطير في الهواء والحيتان في البحر"[١].

وفي هذا الحديث تأكيد أنّ المخلوقات الأخرى من غير البشر مكلفة شرعاً بالانتظار، وإنها في شوق للقائه. وإنه سيأتي لها ناصراً كما يأتي للبشر الآدميّين. وحتماً ليس المقصود الطير والحيتان فقط، وإن كان قد جاء في القرآن قوله تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾[٢] بل المقصود هي الأمم التي أرسل الله سبحانه لها الرسل والأنبياء كما في الروايات المتواترة. أي: إنّ وقوف الإمام على هذين النوعين جاء للاختصار وتقريب المعنى مع أنه عليه السلام تحدّث عن أهل السماء وحدهم وأهل الأرض وحدهم وسكان المحيطات والبحار وحدهم بما لا يدع مجالا للشكّ بأنّ كلّ هؤلاء مشمولون بالدعوة المهدويّة.

فانظر إلى قوله عليه السلام في الحديث الذي مرّ علينا قبل قليل: (السماوات والأرضين) بالجمع وليس (السماء والأرض) بالإفراد، أي: يا سكان السماوات السبع والأرضين السبع بايعوه، ولا تخالفوا أمره فتضلوا فهو قادم إليكم جميعاً. وهذا الحديث ورد بالصيغة نفسها أو بصيغ أخرى في كتب الحديث المختلفة، ففي سنن ابن ماجة وصواعق ابن حجر عن النبيّ صلى الله عليه وآله: "يرضى بخلافته أهل السماء وأهل الأرض والطير في الجوّ"[٣] وفي مستدرك الحاكم: "يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض" وفي غيبة النعماني بالصيغة نفسها أيضا[٤] ومثلها كذلك عند جلال الدين السيوطيّ[٥].

---

(١) الملاحم والفتن، اليزدي، ص١١٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية ٣٨.
(٣) سنن ابن ماجة، جزء ٢، ص١٣٦٦ والصواعق المحرقة لابن حجر، ص٩٨ والعرف الوردي للسيوطي، ص٨٠.
(٤) غيبة النعماني، سنن ابن ماجة، جزء ٢، ص١٣٦٦ والصواعق المحرقة لابن حجر، ص٩٨، والعرف الوردي للسيوطي، ص٨٠.
(٥) العرف الوردي، السيوطي، ص٥٠.

وقد فات من بحث في معنى هذه الأحاديث أنّ (الرضا) عند هؤلاء السكان سيأتي بالاحتكاك المباشر بينهم وبين المهديّ وليس نتيجة المراقبة عن بعد، والاحتكاك يعني صعوده وإلقاءه الحجّة عليهم؛ وهو الأمر الذي سينتج عنه نزولهم إلى دولته والاختلاط مع سكانها بعد ذلك؛ لأنهم جميعاً يصبحون سكاناً ورعايا في دولة واحدة وتحت إمرة قيادة واحدة. أمّا رضاهم أو عدم رضاهم من دون أن يحدث الاحتكاك فلا نفع ولا ضرر فيه في الحالتين، لأنهم إن لم يرضوا عنه لا يضرّه ذلك بشيء، وإن فرحوا ورضوا عن بعد، لن يكون لذلك الفرح والرضا من فائدة ملموسة ولاسيّما إذا ما كان هذا الرضا غير ملموس أو ظاهراً لسكان دولته الآخرين.

وللسيّد الشهيد الصدر الثاني رحمه الله تعليقة جميلة في هذا المعنى؛ إذ جاء في معرض تعليقه عليه قوله: "إنّ ساكن الجوّ هو: الطيور يفرحون بما ينالهم من الطعام الهنيء وهنيء الماء". ثمّ أردف قوله: "ولكن هذا يتنافى مع حديث ابن ماجة وابن حجر الذي ميّز بين الطير وساكن السماء. وعليه المراد بساكن السماء: هم الملائكة بحسب ظاهر الأدلة الواردة في الإسلام، بل وفي غيره من الأديان الكبرى"[١] لكنّي أجد مع احترامي الكبير لهذا الرأي أنه لم يستوفِ كامل الحالة بسبب حالة التمويه التي اعتمدها الشهيد الصدر الثاني عند حديثه عن كونيّة الحكومة المهدويّة، لأنه لا يمكن الجزم بأنّ المقصود بأهل السماء هم الملائكة فقط بدلالة أنّ الإمام عليّاً عليه السلام فرّق بينهم؛ فقال كما أورد النعماني في غيبته: "يفرح لخروجه أهل السماء وسكانها"[٢] أي (أهل السماء) وهم الملائكة و(سكان السماء) وهم المخلوقات الأخرى من غير الملائكة، وهو الرأي الذي سيتضح وضوحاً أوسع عند الحديث عن الأكوان وسكانها، ولمّا كان الوعد الإلهيّ يلزم بإظهار الدين على كلّ الأديان؛ فإنّ هذه المخلوقات إنما جاءها الفرح من كونها مشمولة بهذا

(١) ينظر معجم أحاديث الإمام المهديّ، جزء ٣، ص٤٢٩.
(٢) المصدر نفسه، المعجم، ص١١٦.

الإظهار الذي سينقيها من كلّ شيء ويجعلها مؤهلة ليوم الحساب، وفرحها بحدّ ذاته هو نصرة للإمام المنتظر (عجّل الله فرجه) كما هم البشر المنتظرون لمقدمه، بل كما هم المنتظرون الكونيّون، وهم الذين سيفرحون لقدومه، لأنّ الله تعالى زرع حبّ الإمام المهديّ في قلوب المنتظرين الذين يتعاملون مع فلسفة الانتظار بمعناها الحقيقيّ؛ وليس التقليديّ ممّا يجعلهم من الممهديّن لقيامه، والمشتاقين للقائه.

٥ ـ النصرة بالأنصار الكونيّين

ومن متمّمات النصرة التي لها مِساس مباشر بحتميّة ظهور الدين الإسلاميّ على الأديان كلها أنّ الله تعالى وعد الإمام المهديّ بالنصر المؤزر وإظهار الدين الإسلاميّ على الدين كله على يديه، كما في الأحاديث الكثيرة؛ ومنها مثلا عن حبيب الداري قال: سمعت رسول الله يقول: "ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعزّ عزيز أو بذل ذليل، عزّاً يعزّ الله به الإسلام، وذلاً يذلّ به الكفر"[١] وإذا علمنا أنّ علماء الفلك واثقون بأنّ تعاقب الليل والنهار ظاهرة موجودة في كلّ المجرّات الأخرى وإن كانت مواقيتها تختلف عن مواقيت ليلنا ونهارنا بحكم دوران الكواكب حول نفسها وحول شموسها، وقربها وبعدها عن هذه الشموس؛ وهي ليست مقصورة على مجموعتنا الشمسيّة فقط، فإنّ ذلك يعني وفق هذا الحديث أنّ الإسلام وتوحيد الله سوف يصل إليها ويدخل بيوتها أين ما كانت في الكون، وأنّ المهديّ المنتظر هو الذي سوف يوصل إليهم هذه الهداية.

وقد ورد في (أشعيا): "أنه يقرض ممالك الأرض برمّتها ويقيم مملكة

---

(١) مسند الإمام أحمد الجزء ٤، الصفحة ١٠٣ ورواه الطبراني، وأخرجه الحاكم، الجزء ٤، ص٤٧٧، حديث رقم ٨٣٢٦/ ٣٤ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

سماويّة لا تنقرض"[١] فهو بعد أن ينتهي من قرض ممالك الأرض وإسقاط حكوماتها الدنيويّة الظالمة الجائرة سوف يلتفت إلى ممالك السماء ليقيم على أنقاضها دولة سماويّة لا تنقرض؛ لأنّ لفظة (سماويّة) الواردة في النصّ تقبل الاحتمالين: السماويّ؛ أي الذي يعتقد بوحدانيّة الله، والسماويّ أي المكان وهو السماء.

إنّ إضافة هذه الروايات إلى روايات انتظار الكونيّين أنفسهم للإمام المهديّ يثبت أنّ هناك نوعاً آخر من النصرة الروحيّة مدّخر للإمام؛ ففي رواية طويلة عن هشام الجواليقي أخرجها صاحب بصائر الدرجات ستمرّ عليكم كاملة لاحقاً، نجد أنّ أهل الأكوان الأخرى فيهم من ينتظر خروج الإمام، بل هو أكثر استعداداً لهذا الأمر منا نحن البشر، وأكثر شوقاً ولهفة لهذا اللقاء، وممّا جاء في هذه الرواية "... فيهم جماعة لم يضعوا السلاح منذ كانوا، ينتظرون قائمنا يدعون أن يريهم إياه"[٢] وهذه الرواية عن المعصوم تكفي أن تكون أكبر دليل على كونيّة الأطروحة المهدويّة من دون شكّ، وهؤلاء الأنصار الكونيّون هم نخبة المنتظرين من سكان الأكوان الذين يتلهفون لمقدم الإمام، كما هم نخبة المنتظرين الأرضيّين يتلهفون إلى لقائه. أمّا مقدار الأثر الروحيّ الذي يتركه شعور المنتظرين الأرضيّين بأنّ لهم شركاء في الكون ينتظرون عصر الظهور مثلهم؛ فلا يمكن تحديده أو تأطيره بإطار محدّد، وهو في أحد جوانبه المهمّة يدفعهم إلى الوثوق بالنصر ما دام سكان السماء يقفون معهم على خط الشروع نفسه.

كلّ هذه النصرة التي لم تتوافر لأحد من قبلُ تدلّ على أنّ المنتظر مكلف بواجبات تتناسب طرديّاً ونوع المدّخرات وحجمها التي ادّخرها الله سبحانه للإمام المهديّ، ومن هذه الواجبات نشر دين الإسلام وإظهاره على كلّ الأديان الأخرى في الأرض وفي الأكوان كلها.

---

(١) أشعيا ٣٥: ١٢ ـ ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) المعجم الموضوعي، ص٣٧٢.

هنا قد يثار سؤال منطقيّ مفاده: لِمَ اقتصرت الروايات على ذكر الأرض ووصفها وكيف أنّ المهديّ سوف يصلحها ويملأها عدلا وقسطاً، ولم يرد ذكر الأكوان في هذه الرواية أو في روايات مشابهة لها لو كانت مخلوقات السماوات مشمولة بالبرنامج التغييريّ المهدويّ؟

وأقول جواباً: إنّ الروايات الكثيرة التي خصّت أخبار الظهور بالأرض وحدها كما يبدو من ظاهر سياقها مثل الحديث النبويّ: "... ومنا ـ والذي نفسي بيده ـ مهديّ هذه الأمّة الذي يملأ به الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً"[١] والحديث النبويّ الآخر: "يا عليّ.... وآخرهم اسمه اسمي يخرج فيملأ الأرض قسطاً وعدلا"[٢]. والحديث النبويّ الآخر: "... ثمّ يخرج المهديّ من ولدي، يصلح الله أمره في ليلة فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً"[٣].

هذه الروايات لا تنكر الكونيّة كما قد يتبادر إلى الذهن بل تؤكدها وتدلّ عليها، من حيث أنّ الكونيّة هي المرحلة الثانية للحِراك المهدويّ التي ستأتي بعد إنجاز المرحلة الأولى الخاصّة بتنقية أجواء الأرض وتخليصها من الأشرار، ومن الظلم والجور فتنشر العدل فيها؛ لكي تصبح الأرض قاعدة للانطلاق نحو الكون بدليلين:

الأوّل: وجود أحاديث أخرى لم تشر لا إلى الأرض ولا لغيرها، وإنما أبقت الأمر مطلقاً كما يبدو لأوّل وهلة، وفيه تلميح للكونيّة يعثر عليه من يدقق في الأمرتدقيقاً جيّداً كما في الحديث النبويّ: "لو لم يبقَ من الدهر إلا يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً"[٤] والحديث

---

(١) المعجم، ج١، ص١٥٧.
(٢) المعجم، ج١، ص٣١٤.
(٣) المعجم، ج١، ص٤٣١.
(٤) المعجم، ج١، ص١١٠.

النبويّ الآخر: "لو لم يبقَ من الدنيا إلا يوم واحد لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج رجل من ولدي فيملؤها عدلاً وقسطا كما ملئت جوراً وظلماً"[١].

فقوله ﷺ: (يملؤها) ليس شرطاً أنّ الأرض وحدها هي المقصودة به؛ لأنه كما يصلح إطلاقه على الأرض يصلح كذلك على الدنيا وعلى الأكوان كلها.

الثاني: وجود أحاديث تشرح بوضوح تامّ حقيقة قدوم مرحلة الكونيّة بعد إنجاز المرحلة الأرضيّة، ومنها ما جاء في جفر الإمام عليّ عليه السلام: "فيملك المهديّ بالحقّ وللحقّ من البحر الكبير إلى البحر الصغير ومن أدنى الأرض إلى أقصى الأرض. ويرقى في أسباب السماوات والأرض"[٢] وهو نصّ صريح أنه (عجّل الله فرجه) يملك بالحقّ الأرض أوّلا، ثمّ يرقى بالحقّ نفسه وبالأسباب التي ييسرها الله سبحانه له إلى السماوات كلها بعد ذلك ليملكها، أي: ليقيم دولة الله فيها، فالملك هنا ليس بمعنى التملك الشخصيّ كما قد يتبادر إلى الذهن وإنما لإقامة ملك الله فيها؛ أي: دين الإسلام.

بعد الحديث الطويل عن كونيّة الأطروحة وعولمة الحكومة المهدويّة قد يثار سؤال عن أصل الأكوان وعن سكانها، في وقت لا نملك فيه أيّ دليل ملموس، في الأقلّ فيما يخصّ وجود سكان في هذه الأكوان؛ لأنه لا يوجد بيننا أو في من سبقونا من التقى بهم أو رآهم أو حدثهم أو التقط لهم صورة، أو رأى آثارهم أو مدنهم أو صناعاتهم، باستثناء مجموعة الأحاديث المعروفة عن زيارات قام به الكونيّون أو رسائل بعثوها، ومجموعة من آراء علماء الهيأة (الفلك) التي يبدو بعضها غير قابل للتصديق أو خرافيّاً، فهل يكون هذا الجهل سبباً لإنكار كونيّة المهدويّة ولاسيّما نحن نعيش في قمّة عصر المادّيّة الذي لا يؤمن إلاّ بالملموس أو المرئيّ أو المسموع، أي بما تدركه الحواسّ

---

(١) المعجم، ج١، ص١٦٢.
(٢) تنبؤات النبيّ، ص٢١١.

فقط، ويجعل كلّ ما وراء ذلك وهماً لا حقيقة له، فلا يلتزم بالتصديق بوجوده؟ أم إنه سيقودنا إلى الإيمان بحقيقة كونيّة المهدويّة؟

هذا ما سنعرفه في الفصل التالي إن شاء الله تعالى...

الفصل الخامس

إثبات فرضيّات توازي المهمّات الكونيّة مع الأرضيّة

غزارة إنتاج وحسن توزيع

إنّ عدم امتلاكنا للمعلومات الوافرة عن الأكوان، وعن حقيقة وجود مخلوقات في هذه الأكوان المجهولة قد يكون الدافع الرئيس الذي منع الناس من الخوض في نقول كونيّة الأطروحة المهدويّة وأحاديثها وحقيقتها من قبلُ. ولكن وجود نقول صحيحة وموثوقة فيها إشارات صريحة إلى وجود هذه الأكوان ووجود المخلوقات فيها، ووجود آراء علميّة معاصرة تكاد تجزم بوجود المخلوقات الكونيّة؛ ؛ فضلاً عن وجود إشارات واضحة في فكر الأطروحة المهدويّة لامتداد الإشعاع المهدويّ إلى خارج حدود مداركنا، باجتماعها معاً؛ تجعل من الكونيّة المهدويّة أمراً لا يمكن التغاضي عنه أو عدم الاهتمام به حتى وإن كانت عقول الناس تستثقل قبوله أو تستغرب من حقيقته، ولاسيّما أنّ كتاب الله العزيز وأحاديث نبيّه الكريم تناولا الحديث عن الأكوان وعُمّارها بأشكال وصيغ مختلفة، ؛ فضلاً عن تكرار الإشارات إلى السماوات السبع والأرضين السبع، وركوب السحاب، والرقي في الأسباب في أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام والملحوظ أنّ الكثير من الإشارت الواردة في هذه النقول هي في المحصلة تؤكد حقيقتين اثنتين:

الأولى: أنّ الكثير من الكرامات والإمدادات الربّانيّة التي سوف يتمتع بها المنقذ تبدو فائضة عن حاجة المختار المكلف بمهمّة أرضيّة مهما كان حجم هذه المهمّة وسعتها، وحينئذٍ يجب أن تكون هناك أبعاد كونيّة تتساوق وهذا العطاء الربّانيّ هي أوسع كثيراً حتى من الأبعاد التي حدّدها الله سبحانه لأنبيائه.

الثاني: أنّ هذه الروايات والنقول أكّدت بما لا يقبل الشكّ أنّ هناك حاجة فعليّة لسكان الأكوان للمنقذ.

ولتوضيح ذلك لا بأس من ذكر بعض النقول التي تناولت تلك المفردات، لكن قبل ذلك لا بأس من الحديث قليلاً عن ألغاز الأكوان وعن حقيقتها، ثمّ عن سكان هذه الأكوان لكي نعطي تصوّراً بسيطاً نستعمله فيما بعد لإجراء مقاربة بين وجودنا الأرضيّ ووجود الكون اللامحدود:

مع تطوّر الإنسان وتقدّم علومه تطوّرت نظرته إلى الألغاز الكونيّة المحيّرة، ولاسيّما بعد أن نجح في فكّ بعض طلاسمها ورموزها عن طريق الفرضيّات التي كان الكثير منها مخطئاً وبعيداً عن طرق الاستنتاج العلميّ، وهي التي كانت تمهيداً لإنشاء علوم الفلك وتطوّرها في الحضارات الأولى بعد أن تتابع نزول الأنبياء عليهم.

ثمّ لمّا جاء الإسلام لم يكتفِ بتنظيم حياة البشر الأرضيّة ومناهجهم التعامليّة فيما بينهم فحسب؛ بل تجاوز ذلك إلى تنظيم علاقتهم وتعاملاتهم مع الأكوان أيضاً فكشف لهم حقيقة الظواهر الكونيّة، وأصل الكون الذي هو من مخلوقات الله كما في قوله سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[1].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2].

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

---

(١) سورة نوح، الآيات ١٥ و١٦.
(٢) سورة النحل، الآية ٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية ٥٤.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾(١).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾(٢).

ثمّ أخبرهم القرآن أنّ هذه الأكوان؛ ؛ فضلاً عن كونها مخلوقة بأمره تعالى تحوي أيضاً مخلوقات من خلق الله، وأنها وما فيها لله وحده، كما في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾(٣).

وقال لهم إنّ السماوات وما فيها مسخرة بأمره سبحانه، كما في قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(٤).

وأخبرهم أنها وما فيها وما بينها عباد لله سبحانه وتعالى وعليهم أداء فروض الطاعة لله وحده، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾(٥) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٦).

ثمّ أكد لهم أنّ هذه الأكوان على عظمتها مثلهم غير خالدة بل سائرة إلى الزوال والعدم الحتم، وأنّ ما سيحدث فيها من آيات يوم يحق عليها الزوال سيكون دليلاً على اليوم الموعود، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾(٧) ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ * وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾(٨).

---

(١) سورة الرعد، الآية ٢.
(٢) سورة إبراهيم، الآية ٣٢.
(٣) سورة طه، الآية ٦.
(٤) سورة النحل، الآية ١٢.
(٥) سورة الرحمن، الآيات ٥و٦.
(٦) سورة النحل، الآيات ٤٩ و٥٠.
(٧) سورة القيامة، الآيات ٧ و٨ و٩.
(٨) سورة الانفطار، الآيات من ١ إلى ٥.

وهكذا يجد من يتابع المعالجة القرآنيّة لما يخصّ الأكوان وظواهرها أنّ هنالك مجموعة كبيرة من السور التي حملت أسماء لها علاقة بظواهر وموجودات الأكوان منها: سورة الرعد/ الطارق/ الشمس/ النجم/ البروج/ الانشقاق/ القمر/ التكوير/ الانفطار/ فاطر/ الفجر/ الليل/ المعا رج، وغيرها من الأسماء ثمّ يجد داخل هذه السور وباقي السور القرآنيّة الأخرى آيات عديدة تتحدث عن خلق الأكوان وظواهرها، مع إشارات تبدو صريحة لسكان وعُمّار هذه الأكوان والمخلوقات الموجودة فيها وبين طبقاتها. ويجد في القرآن الكريم ألفاظاً فلكيّة وكونيّة كثيرة، منها ما خصّ واحداً من مكوّنات الكون ومنها ما شملها كلها، فالسماء وحراكها ومن فيها وما فيها وما ينزل منها ويعرج إليها وبروجها وزينتها وكشطها وانفطارها وحرسها وبنائها تكرر ذكرها (١٨٩) مرّة في ١٨٩ آية. والشمس وطلوعها وغروبها وتسخيرها وجريها وتكويرها تكرر ذكرها (٣٣) مرّة في ٣٣ آية. والقمر وبزوغه وتسخيره ونوره وجريانه وانشقاقه تكرر ذكره (٢٦) مرّة في ٢٦ آية. والنجوم الساجدة والثاقبة والمسخرة ومواقعها وانكدارها تكرر ذكرها (١٣) مرّة في ١٣ آية.والكواكب الدرّيّة والمنتثرة والزينة تكرر ذكرها (٥) مرات في ٥ آيات.والشهب المبينة والثاقبة والراصدة والحارسة تكرر ذكرها (٥) مرّات في ٥ آيات. والبروج تكرر ذكرها (٤) مرّات في ٤ آيات. والفلك تكرر ذكره مرّتين في آيتين. وبذا نجد أنّ هناك في القرآن بحدود (٢٧٢) آية شريفة تتحدّث عن الكون ومكوّناته من غير الأرض التي نسكنها وهي التي تكرر ذكرها بحدود (٤٧٠) مرّة. ليصبح مجموع المرّات التي تكرر فيها ذكر الأكوان كلها أكثر من (٧٤٢) مرّة.

ولا يخفى أنّ هناك رأياً واسع الانتشار يقول: إنّ القرآن لم يأتِ ليكون كتاب تنظير للعلوم والظواهر الطبيعيّة، وآياته التي تحدّثت عن الظواهر العلميّة والكونيّة إنما جاءت لتوضيح مقصد ما، أو للنهي عن أمر ما، أو لتصحيح معلومة ما، أو لضرب مثل ما، تماماً كما هي القصص الواردة فيه، أي: إنّ الحديث عن العلوم في القرآن يهدف إلى تقريب عظمة خلق الله تعالى وقدرته

إلى عقل الإنسان، وليس للعناية بترتيب الشؤون العلميّة، بمعنى أنّ الإشارات القرآنيّة للعلوم رغم دقتها المتناهية جاءت عرضيّة، وهو ما يتساوق ورأي الدكتور عبد الكريم سروش الذي يذهب إلى: "أننا يلزم أن نتعامل مع فكرة أنّ الدين مصدر لكلّ العلوم برؤية أكثر واقعيّة، لأنّ مناهج العلوم ومرتكزاتها مستقلة عن الدين، ولها مسالكها في إبداع المعطيات، فلا صحّة لمن يرى أنّ الدين يمكن أن يولد الفيزياء أو الفلك، فالعلم والدين متمايزان لا ينتزع أحدهما من الآخر لكنهما يتكاملان في إثراء أنسنة المعرفة"[١].

وأرى أنّ هذا الرأي الصريح والجريء لا ينتقص من مكانة الإسلام ولا يتهمه بالجهل العلميّ لأننا بصفتنا مسلمين نرى أنّ القواعد الكليّة للإسلام هي بمثابة الأصول التي تضمّ جميع أبواب المعارف وفي شتى الميادين ولاسيّما أنّ في تفرّعات الأصول القرآنيّة والحديثيّة مبانٍ متنوّعة يمكن أن نستخرج منها كلّ ما يحتاجه البشر في كلّ زمان ومكان؛ فالإسلام يعطي عادة في مثل هذه الأمور رأس الخيط ويترك للإنسان حرّيّة الغزل وطريقته اعتماداً على إبداعه الفكريّ؛ لكي لا يصبح كائناً خاملاً كسولاً.

لكني صراحة أجدني أختلفُ كثيراً مع الدكتور سروش وكلّ من يدّعي أنّ مرتكزات العلوم مستقلة عن الدين؛ لأنّ موضوع الاستقلاليّة ظاهريّ أكثر من كونه جوهريّاً، ثمّ إنه لا مانع لأن تكون للعلوم القرآنيّة قدرة استنباط النظريات العلميّة بالمتغيّرات التي يحدثها البحث في مضمون الآيات، أي إنّ العلوم الدينيّة إذا ما قرأت، ودرست، وشرحت، وفسّرت بمنهجيّة علميّة استطلاعيّة واستنتاجيّة يمكن أن تولد الفيزياء أو الفلك ليس بطريق مباشر طبعاً، وإنما بالمعرفة التفكّريّة التي تبثها فتحفز الفكر للإبداع والابتكار، والخوف لا يأتي من مخاطر أو إمكانيّة استنباط مبادئ العلوم من الكتاب العزيز؛ وإنما من

---

(١) ينظر: قراءات في الفكر الإسلامي المعاصر، د. عبد الأمير كاظم زاهد، ص١٠٦، عن مقالة د. سروش "الأكثري والأقلي في الفقه".

المستنبطين أنفسهم، فهم بشر معرّضون للوقوع بالخطأ، وخطؤهم ينعكس في النهاية على النصّ القرآنيّ بما يقرب من التكذيب، وهنا يكمن المحذور.

إنّ أصل العلوم كلها يرجع في الأساس إلى التفكر في ضمن التخصّصيّة التفرّديّة، فالعِالم الذي لفتت انتباهه تفاحة ساقطة من الشجرة إلى الأرض؛ ليكتشف بعد ذلك قانون الجاذبيّة، لم يتوصل لقانونه داخل المختبر وإنما توصل إليه داخل فكره وعقله بالتحفيز الذي أحدثته ظاهرة سقوط التفاحة إلى الأرض وهو ما يعرف علميّاً بنظريّة (تفسير الظواهر)

ومن يشتغل في المجال العلميّ يدرك أنّ النظريّات والقوانين والاكتشافات التي تُوصِّلَ إليها عن طريق التخطيط السابق هي أقلّ كثيراً من تلك التي تُوصِّل إليها صدفة عن طريق إعمال الفكر في ظروف ظاهرة طارئة تقع أمام المفكر وتجلب انتباهه! وإلاّ فإنّ هذا الحشد الكبير من الآيات التي تتحدّث عن الكون ومكوّناته وأجرامه وموجوداته لا يعقل أنها جاءت للاستعبار فحسب، بل جاءت بالتأكيد؛ لكي تحفز الفكر المسلم للبحث في ماهيّة هذه الموجودات. كما ونجد في الآيات المقصودة وغيرها دعوة صريحة للتفكر والتبصّر والبحث والاستقصاء. ونجدها تحفز الفكر ولاسيّما الفكرغير المسلم لكي يقف وينظر إلى حقائق الأمور من منظور علميّ عن طريق المقارنة والمقايسة بين حقائق القرآن والحقائق العلميّة، وهو ما سنتكلم عليه لاحقاً

وقد وجدت أنّ للنظريّة التي أطلقها الدكتور سروش جذوراً قد ضخمت تضخيماً كبيراً، وأصبحت من سمات التخلف الذي يوصم به العقل الإسلاميّ، بل من الأسباب المباشرة لهذا التخلف بحسب ادّعاءات القائمين على الدراسة الخاصّة بالموضوع الذي أبغي الحديث عنه. حيث جاء في التقرير الذي رفعه الباحث (إحسان مسعود) في منتصف تسعينات القرن الماضي إلى مجلة (نيتشر) العلميّة، ثمّ قدّمه بعد ذلك على شكل سلسلة حلقات في الإذاعة البريطانيّة الرابعة "بي بي سي" ما يتشابه في بعض جوانبه مع أفكار الدكتور سروش. ففي حديثه عن أسباب التأخر العلميّ عند

المسلمين قال الباحث: "إنّ هنالك مشاكل خاصّة بالعالم الإسلاميّ يتمثل أوّلها في المعتقدات الخاصّة بقصّة الخلق، وثانيها في الاعتقاد بأنّ القرآن هو مصدر العلوم... يتضمّن القرآن نصوصاً تصف بداية الخلق وولادة الكون، ولذلك يؤمن البعض بأنّ القرآن هو كتاب علميّ"[١].

وقد حاول الباحث دعم نتائج بحثه بالاستدلال على صحتها من حقيقة لا ننكرها طبعاً؛ لأنها تتناسب في الأساس ودرجة التطوّر العلميّ للحقبة التي يشير إليها الباحث حيث قال: "ومن المثير أنّ العلماء المسلمين الذين عاشوا في الفترة بين ٧٠٠ و١٥٠٠م لم يقوموا بالبحث عن المعرفة العلميّة في القرآن، بل كانوا مشغولين بالبحث والتساؤل والاستكشاف والابتكار"[٢] ولسنا هنا بصدد امتحان هذه الآراء فهذا ليس مجالها ولاسيّما أنّ هنالك بين العلماء الغربيّين من فندها من دون أن يتعمد ذلك، ومنهم الأستاذ (جورج باسللا) أستاذ التاريخ في جامعة (ديلاوير) الذي قال في كتابه (الحياة المتمدنة في الكون): "إنّ البحث عن الحياة الذكيّة إنما هو مشروع يقوم على **الاعتقاد** أكثر من كونه علماً أصيلاً" على أساس أنّ البحث عن المخلوقات في الأكوان كان ـ سابقاً وما زال ـ جزء مهمّ منه إلى وقت قريب قائماً على **الحماسة الدينيّة** أكثر من أيّ شيء آخر. ثمّ أنّ المحفز الدينيّ (الاعتقاد الدينيّ) كان في الغالب من أكبر المحفزات والدوافع التي شجعت العلماء على الخوض في تجربة البحث. أما الإيمان والاعتقاد العلميّ البحت فقد جاء في وقت متأخر.

وعليه ندرك ـ ولو في حدود الإسلام وحده ـ كم أسهمت العقيدة الدينيّة الإسلاميّة بالتكراريّة القرآنيّة في دفع المسلمين للتوسّع في دراسة الظواهر الكونيّة في العصور الأولى؛ ولاسيّما أنّ هذه الظواهر ترتبط بوجود الإنسان

---

(١) موقع بي بي سي على الشبكة، مقال نشر يوم ١٦/ ٢/ ٢٠٠٩.
(٢) بي بي سي، المصدر نفسه.

على الأرض، وبمصيره النهائيّ الذي يرى المسلمون أنه سيكون في الكون الآخر بعيداً عن الأرض التي يقيمون عليها.

وإذا أضفنا إلى حشد المعلومات القرآنيّة ما وصلنا عن اهتمامات النبيّ ﷺ والأئمّة الأطهار عليهم السلام بالعلوم عامّة وعلم الفلك خاصّة نجد "أنّ ما خلفه النبيّ الأعظم وما خلفه آل بيته الكرام من الروايات التي تتحدّث عن الكون والسماء والأرض والأجرام السماويّة هي مادّة علميّة سبقت عصرها"[١] وهو ما أشار إلى حقيقته السيّد هبة الدين الشهرستاني بقوله: "وأمّا أوصياء النبيّ عليهم أفضل الصلوات والتسليمات فقد ذكروا وجود أقمار أخرى غير هذا القمر المحسوس قبل أن يحدث في العالم رأي بتعدّد الأقمار أكثر من ألف سنة، فهم السابقون في هذا الرأي الجليل وما كان من هذا القبيل على جميع العلماء طرّاً"[٢].

من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام أخذ المسلمون علومهم الفلكيّة واستنتجوا مجموعة الحقائق الفلكيّة العلميّة التي ظلت متداولة دهراً طويلا ساعدهم في ذلك دخول النظريّات التي كانت تؤمن بها الحضارات السابقة إلى المجتمع المسلم مع ما دخل من علوم هذه الحضارات في زمن الدولتين الأمويّة والعباسيّة؛ سواء بنحو عرضيّ أو متعمّد مقصود. وبإضافة العلم الوافد إلى الخزين الموجود أنتج التراكم الحاصل ما يعرف بعلم (الهيأة) أي: علم الفلك الإسلاميّ.

وتبعاً لذلك تنوّعت أسئلة المسلمين وتوسّعت حول الكون وسكانه، منها ما يخصّ عدد الأكوان وعدد الأرضين والسماوات، والمخلوقات الموجودة فيها وبينها. ولم يعدم العلم والعلماء حيلة إيجاد الأجوبة لهذه الأسئلة، وفعلاً كانت الأجوبة قريبة من الصواب أو حتى مصيبة في بعض الأحيان مثل قولهم

---

(١) العلوم الفلكيّة عند أهل البيت، د. مازن المؤمن، ص١١٣.
(٢) الهيئة والإسلام السيد هبة الدين الشهرستاني، ص٢٣٧.

بوجود سبع سماوات وسبع أرضين المأخوذ عن القرآن وأحاديث النبيّ ﷺ والأئمّة (عليهم الصلاة والسلام)، ومخطئة أو مبالغ فيها في أحيان أخرى مثل قولهم إنّ الأحد عشر كوكباً الموجودة في مجرّتنا كلها مأهولة بالسكان، من دون دليل ناهض.

أمّا العلم الحديث فقد جاء ليقول إنّ هنالك عدداً غير معروف من الأكوان، وأنّ بعضها وليس كلها ملائماً لعيش أنواع معيّنة من المخلوقات، ولذا إنّ وجود مخلوقات في الفضاء البعيد ليس مستبعداً ألبتة. وعليه كانت هناك ثلاث نظريّات تعنى بشأن الأكوان والمخلوقات الساكنة فيها؛ هي:

الأولى: نظريّة إسلاميّة بحت تعتمد على ما جاء في القرآن والسنة وروايات أهل البيت الكرام، ونجد هذه النظريّة تؤمن بتعدّد الأكوان ووجود المخلوقات في بعض منها، وهذا البعض يمثل خمسة أسباع الكون، أما الخالية منها فتمثل السبعين الباقيين فقط.

الثانية: نظريّة علميّة إسلاميّة جاء بها العلماء الذين اشتغلوا بعلم الهيأة، وهي تؤمن أيضاً بتعدّد الأكوان، ولكنها تؤمن أنّ كلّ الأكوان مأهولة بالسكان ومن دون استثناء، ذلك لأنّ هذه النظريّة قامت بالأساس على الموروث من العلوم الإسلاميّة؛ فضلاً عن ما اطلعت عليه من علوم الأمم الأخرى زائداً فرضيّات العلماء أنفسهم، حيث قامت هذه الفرضيّات على ما جاءت به المرجعيّات العقائديّة للعلماء أنفسهم بما فيها المرجعيّات التي أمرت أتباعها بالجمود على النصّ وعدم تجاوزه.

الثالثة: نظريّة علميّة بحت؛ وهي مجموعة النظريّات المادّيّة التي جاء بها علماء الغرب وتقوم على أسس المعطيات العلميّة التي وفرتها العلوم والأجهزة الحديثة كالأقمار والمسابير والمناظير الجبارة والإحصاءات والمقاربات؛ فضلاً عن موروثهم من العلوم الفلكيّة التي وردت في كتبهم المقدّسة ولاسيّما التوراة. وقد وصلت هذه العلوم إلى مستوًى متقدّم في ثلاثينات القرن الماضي واستمرّت بالتطوّر.

رغم أنّ العقول الغربيّة التي وضعت هذه النظريّة تؤمن بالمادّيّ الملموس لا بالروحانيّ الغيبيّ إلا أنها أكدت تعدّد الأكوان وإمكانيّة وجود مخلوقات حيّة في بعضها. وهم منذ أن بدأت بحوث (فان دركامب) في الثلاثينات وحتى تسعينات القرن المنصرم لم يكونوا يملكون دليلاً علميّاً على وجود كواكب أخرى غير تلك التي رصدوها، ولكنهم بعد هذا التاريخ بقليل وجدوا أدلة قاطعة على وجود الكثير من الكواكب والمجرّات، وفي أثناء عشر سنوات فقط اكتشفوا (١٨٠) كوكباً خارج مجموعتنا الشمسيّة. وعليه قال (أوفر لاهاي) رئيس مجموعة الفيزياء الفلكيّة في كليّة لندن الجامعة: "لدينا الآن رؤية دقيقة عن الأشياء التي يتكوّن منها كوننا"[١].

أمّا نحن المسلمين فندرك عقائديّاً من خلاصة ما لدينا من روايات أنّ هنالك في الأكوان حركة فعليّة موازية للحركة القائمة على الأرض؛ سواء من الجانب الوجوديّ أو العباديّ، وأنّ هذا الحِراك له علاقة مباشرة بمرحلة الظهور المهدويّ، وبمرحلة ما قبل الساعة، وهذه المرحلة التاريخيّة سوف تبتدئ مع ظهور الإمام المهديّ (عجّل الله فرجه) الذي أوكل الله له مهمّة ترتيب الأكوان أسوة بالأرض قبل الدينونة.

ولمّا كان الله تعالى قد أرسل إلى هذه الأكوان ومخلوقاتها من قبلُ رسلاً وأنبياء جاءوهم برسالات مختلفة ومتنوّعة تبعاً لحديث "آدم مثل آدمكم ونوح مثل نوحكم..." فإنّ المهديّ سوف يوحدهم مع سكان الأرض الذين أرسل الله لهم أيضاً رسلاً وأنبياء مختلفين جاءوهم برسالات مختلفة.

---

(١) موقع space. com مقالة للكاتب ديفيد دارلنغ، ترجمة علاء غزالة.

الخطاب القرآنيّ الكونيّ لغير المسلم

لابدّ من التوقف قليلاً عند موضوع مهمّ لنبحث به سبب مخاطبة الكثير من الآيات القرآنيّة الكونيّة لغير المسلم، لنعرف سبب توجيه الخطاب القرآنيّ لهؤلاء من دون غيرهم. ففي القرآن الكريم ـ كما أسلفنا ـ آيات كثيرة تتحدّث عن العوالم الخارجيّة بنحو العموم، ولكن ما يجلب الدهشة والاستغراب أنّ أغلب هذه الآيات تتوجّه بخطابها إلى الآخر وإلى المشككين بالقرآن من غير المسلمين بما فيهم عرب قريش المشركين قبل إسلامهم، وكأنّ القرآن يريد أن يخبرنا أنّ العلوم الموجودة في آيات الخطاب هذه سيتوصل إلى فكّ رموزها المشركون، ومن هم ليسوا مسلمين دون غيرهم بما اكتسبوه من علم؛ ولذا جاء في الآية المشرفة قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

فقد قرن الله سبحانه رؤيتهم للآيات بتبيان الحق ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[2] من أجل إحداث العصف الذهنيّ؛ وهو ما توضحه آية أخرى ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الحج، الآية، ٥٤.
(٢) سورة فصلت، الآية ٥٣.
(٣) سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

وذلك طبعاً ليس لإثبات صحّة معتقدهم بل لإثبات أنّ صحّة نظريّاتهم يجب أن توقظ ضمائرهم وضمائر غيرهم، ولكي يطرحوا نتائج بحثهم على أنّها مسلمات تأخذ بأيديهم إلى الهداية تبعاً للآية الشريفة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ ويأخذ بها المسلمون قبل غيرهم فيزدادوا إيماناً.

ولمّا كان المسلمون قد اختلفوا بشأن المهدويّة وفيهم من ينكر أن يكون الله قد أعطى للإمام المهديّ كلّ هذه الكرامات التي تحدّثنا عن بعضها؛ فإنّ ما يأتي عن طريق هؤلاء العلماء سوف يكون طرحاً موثوقاً من جانب مستقلّ لا علاقة له بهذا الاختلاف البينيّ الإسلاميّ الإسلاميّ وحينئذٍ على الطرف الإسلاميّ الرافض أن يؤمن بصحّة ما جاء به الطرف الإسلاميّ المؤيّد للأطروحة الإلهيّة استناداً للنصوص المقدّسة وما جاء في نتائج هؤلاء العلماء استناداً إلى نتائج دراستهم العلميّة، مع أنه من المعيب أن نستند إلى نتاج فكر غيرنا لإثبات صحّة جوانب من عقيدتنا.

ضمن هذا النسق جاء الخطاب القرآنيّ واضحاً صريحاً من أجل تبيان الحقّ للجميع: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[1] حيث كانت هذه الآيات تتنوّع في توجيه مداركهم إلى ما أبدعوا فيه من العلوم؛ لكي يربطوا بين العلم وما جاء عنه في محكم التنزيل ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[2].

وكان هدف الآيات إحداث عصف ذهنيّ فيهم يتماهى ومقدرتهم العلميّة المكتسبة ونتائج هذه المقدرة لاستيضاح ما ورد بشأن هذه النتائج في القرآن الكريم بما سيدفعهم بالمحصلة لإثبات صحّة ما جاء في القرآن الذي يدّعون أنه ليس كتاباً سماويّاً. ولذا جاءت الآيات الأخرى لتوجه لهم الخطاب توجيهاً مباشراً كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ

(١) سورة النسا، الآية ٨٢.
(٢) سورة ق، الآية ٦.

أَقْفَالُهَآ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾[٢] ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾[٣] ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[٤].

فبهذه المقارنة وهذا التساؤل يأتي قوله سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ﴾[٥] ويأتي قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ * فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[٦].

ومن هذه المرحلة المتقدمة انطلق الخطاب القرآنيّ ليلامس شغاف قلوبهم ليدلهم على الله سبحانه كما في: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[٧] وكما في قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ * ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٨].

---

(١) سورة محمّد، الآية ٢٤.
(٢) سورة النازعات، الآية ٢٧.
(٣) سورة الأنبياء، الآية ٣٠.
(٤) سورة الحديد، الآية ٥٧.
(٥) سورة فصلت، الآية ٥٣.
(٦) سورة فصلت، الآيات ٩ ـ ١٢.
(٧) سورة فصلت، الآية ١١.
(٨) سورة غافر، الآيات ـ ٦٤.

وكأنّ القرآن الكريم أراد بهذه الآيات أن يشحذ هممهم ويستفز مكامن الخير في نفوسهم عسى أن تقودهم علومهم إلى الإيمان، وتقود محصلات دراساتهم من آمن بدين الإسلام ليزداد إيماناً ويقيناً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

وفي عودة إلى أصل الموضوع أقول: لمّا كان ناتج النظريّة الإسلاميّة هو ما يهمّنا في هذا الشأن؛ فإنّ إيراد بعض الروايات المختلفة من الممكن أن يوضح الرأي الحقيقيّ للإسلام في الأمر، ومن ذلك ما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله لأصحابه: "ذخر لصاحبكم الصعب. فقالوا: ما الصعب؟ قال: من سحاب فيه رعد وبرق وصاحبكم يركبه، أما إنه سيركب السحاب ويرقى في الأسباب، أسباب السماوات السبع والأرضين". وما جاء في الصواعق المحرقة لابن حجر أخرج الطبراني عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قوله: "المهديّ من ولدي وجهه كالكوكب الدرّيّ..... يرضى بخلافته أهل السماء وأهل الأرض والطير في الجوّ" وفي رواية ثانية: "يحبّه ساكن الأرض وساكن السماء"[2].

وحتماً ليس المقصود بأهل السماء الملائكة فتكليف الملائكة من نوع خاصّ بهم وحدهم، وهم لا يمكنهم الرضا والرفض من تلقاء أنفسهم، وإنما المقصود بذلك سكان الأكوان من المخلوقات المكلفة الأخرى. ثمّ إنّ الطير كذلك لا تملك عقلاً يهديها إلى الزعل والرضا بمفهومه الحرفيّ، وهي حتى لو زعلت أو رضيت لا يشعر بذلك أحد من الناس إلا إذا كان يمتلك ذخيرة كلّ الأنبياء ومنهم مثلا النبيّ سليمان عليه السلام الذي كان يمتلك بعض ذخائر

---

(١) سورة البقرة، الآيات ٢١ ـ ٢٢.

(٢) الصواعق المحرقة، ابن حجر، ص١٦٣ ـ ١٦٤.

الأنبياء فكان يفهم لغة الطير ومشاعرها. والتوضيح الأدقّ نجده في الحديث الوارد في فرائد السمطين للجويني عن الإمام عليّ عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: "المهديّ من ولدي يكون له غيبة وحيرة تضلّ فيها الأمم يأتي بذخيرة الأنبياء فيملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً" ففي هذا الحديث نكتة لطيفة وهي ورود اسم الأنبياء معرفاً بالألف واللام بقصد الإشارة لمدّخرات جميع الأنبياء والمرسلين، سواء لنا نحن البشر، أم للأمم والأقوام الأخرى من غير البشر الأرضيّين، لأنه كما سيتبيّن لنا لاحقاً أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله يعرف أنّ الله سبحانه أرسل كذلك إلى الأمم والمخلوقات الكونيّة الأخرى من غير البشر رسلاً وأنبياءَ.

أنواع النصرة التي ذكرناها من قبلُ؛ فضلاً عن الوعد الإلهيّ الحتميّ بالظهور المهدويّ وحتميّة ظهور دين الإسلام على الأديان كلها تدفعنا للسؤال عن حاجته (عجّل الله فرجه) إلى ركوب السحاب لو كان عمله مرتبطاً بالأرض وحدها ولاسيّما أننا سنعرف من الأحاديث التي سترد لاحقاً أنّ الأرض تطوى له فيقطع المسافات بسرعة الضوء على شاكلة الذي قال لنبيّ الله سليمان عليه السلام ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ بل إنه بحكم موقعه أفضل من آصف بن برخيا صاحب سليمان آلاف المرّات ممّا يعني أنّ قوّته سوف تكون أكبر من قوّة صاحب سليمان أضعافاً مضاعفة؛ لأنّ صاحب سليمان لم يحتج إلى استخدام هذه الميزة إلاّ في هذا الموقف الخاصّ، وربّما مواقف مشابهة أخرى لم يذكرها القرآن لنا، أمّا الإمام المنتظر وبحكم مهامّه وموجبات التنقل الأخرى فإنه سوف يحتاج إلى استعمال هذه الميزة احتياجاً يوميّاً مستمرّاً؟ والأسباب نفسها تدفعنا للسؤال عن الرقيّ في الأسباب، وعن الأسباب التي يتمّ الرقي بها، ولِمَ يقرن الرقي بها إذا ذكرت؟ ثمّ السؤال الأهمّ، ماذا هنالك في السماوات السبع والأرضين السبع يحتاج لأن يرقى إليه الإمام المهديّ؟ أي إنّنا شئنا ذلك أم أبيناه سنجد أنفسنا واقفين أمام وجوب إثبات منهجين:

الأوّل: غايته إثبات فرضيّة وجود قدرة إعجازيّة خارقة عند الإمام المهديّ عليه السلام

والثاني: غايته إثبات صحّة الفرضيّات الآتية المتعلقة بالمهمّة الكونيّة:

* فرضيّة تعدّد الأكوان.
* فرضيّة وجود مخلوقات في هذه الأكوان.
* فرضيّة أنّ هذه المخلوقات الفضائيّة مكلفة بالتكاليف الشرعيّة.
* فرضيّة أنّ الله سبحانه أرسل إلى هذه المخلوقات رسلاً وأنبياءَ.
* فرضيّة أنّ من لطف الله سبحانه أن يشملهم بالفيض المهدويّ كما يشمل سكان الأرض به ليظهر دين الإسلام على أديانهم.

وإثبات صحّة هذه الفرضيّات ـ وهو ما سنعمل عليه لاحقاً ـ يأتي عن طريق إثبات ورود إشارات مستفيضة عن هذه الفرضيّات في القرآن الكريم وفي الروايات الصحيحة التي جاءتنا عن النبيّ وأهل البيت (عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام) وجاءتنا عن العلماء الفضائيّين والفلكيّين من جهة. الحديث عن هذه الفرضيّات وصحّتها يأخذ مدًى متشعباً سيرد عليكم في أثناء حديثنا عن الأكوان وسكانها في الفصول القادمة من الكتاب، وسنتكلم بداية في الفصل القادم على قدرات الإمام المهديّ الإعجازيّة.

الفصل السادس

قدرات الإمام المهديّ الإعجازيّة وعلاقتها بالكونيّة

قدرات الإمام الإعجازيّة

فضلاً عن أنواع النصرة التي أعدّها الله تعالى للإمام المهديّ لتمكينه من غزو الفضاء، وفتح المجرّات؛ ليظهر الإسلام فيها وهي التي تحدّثنا عنها مفصّلاً في الفصول السابقة، مَنَّ الله سبحانه عليه كذلك بقدرات إعجازيّة فائقة عظيمة فيها الكثير من الدلالات على عظم المهمّة الملقاة على عاتقه؛ ومنها مهمة فتح الأكوان، ومن هذه القدرات الخارقة:

ركوب السحاب

ركوب السحاب أو تسخيره إلى المهديّ المنتظر (عجّل الله فرجه) يعني استعماله للتنقل في الفضاء؛ وهو في الواقع إشارة إلى التنقل جوّاً سواء كان بوساطة السحاب وبه معجزة خارقة، أو بوساطة المركبات الفضائيّة التي لم تكن معروفة من قبلُ؛ فعبّروا عنها بالسحاب لتقريب الصورة إلى الأذهان، وهو الاحتمال الأكثر قبولاً، أو ربّما بوساطة ربّانيّة أخرى نجهل كنهها، قد تكون عن طريق الانتقال بالزمان والمكان انتقالاً لا يمكن لعقولنا القاصرة أن تتصوّره، كما كانت عقول آبائنا وأجدادنا قاصرة عن إدراك إمكانيّة صعود الإنسان إلى الفضاء والهبوط على سطح القمر، وإمكانيّة التوصّل إلى صنع المركبات التي تسير بسرعة تزيد على سرعة الصوت بعدّة مرّات، وحتى الطيران في الفضاء بواسطة الأجنحة المصنعة كما فعل الطيّار السويسري (كون روسي) وهو طيار عسكريّ سابق وقائد طائرات الأيرباص بالخطوط الجويّة السويسريّة حاليّاً، الذي نجح في صنع محرّك يعمل بالوقود ثبته على ظهره

على هيأة جناح وحلق به في الفضاء لمدّة عشر دقائق بسرعة تزيد على ثلاثمئة كيلومتر في الساعة[١].

ولذا كنى الأئمّة عليهم السلام عنه: بالسحاب لأنها مسخرة لتتنقل بهم كالسحاب في السماء أو الفضاء الخارجيّ كما يتنقل السحاب في السماء. أمّا قول الشهيد مطهريّ في (التسخير): "إنّ المقصود هنا هو كون هذه الأشياء قد خلقت ليستغلها الإنسان ويستفيد منها"[٢] وإطلاق السيّد الطباطبائي في تفسيره على التسخير اسم "نظريّة الاستعمال" التي فسّرها على أنها تعني: "أننا نرغب بتوظيف الأشياء لمنفعتنا وتحكيم قدراتنا لتسخيرها لخدمتنا"[٣] فليس المقصود به كلّ أنواع التسخير، وإنما قصدوا الجزئيّة من حيث تسخير الله سبحانه لبعض مخلوقاته لتكون في منفعة مخلوقات أخرى ضمن النسق الحياتيّ العامّ لهذه المخلوقات على أنّها جزء من رحمة الله كما في قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾[٤] وقوله سبحانه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ وقوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[٥] وقوله ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾[٦].

فهذا التسخير يختلف في نوعه عن التسخير الاختصاصيّ أو الإعجازيّ الذي هو مدار بحثنا في هذا الباب، وهو الذي ينقسم إلى قسمين مهمّين:

* الأوّل مختصّ بالنصرة والإعجاز كقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾[٨].

---

(١) شبكة سي أن أن الإخباريّة ١٦ / ٥ / ٢٠٠٨ الموقع الالكتروني.
(٢) الرؤيّة الكونيّة التوحيديّة، الشهيد مرتضى مطهري، ص٦١.
(٣) تفسير الميزان، السيد الطباطبائي،.
(٤) سورة إبراهيم، الآية ٣٢.
(٥) سورة النحل، الآية ١٤.
(٦) سورة النحل، الآية ١٢.
(٧) سورة ص، الآية١٨.
(٨) سورة الأنبياء، الآية٧٩.

* الثاني يختصّ بالغضب الإلهيّ على الأمم العاصية العاتية كقوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[١].

أمّا التسخير الاعجازيّ فهو أحد آليّات النصرة التي أعدّها الله تعالى للإمام المهديّ لكي يحقق به مشروعه العظيم في عوالم الأكوان كلها.

الرقيّ في الأسباب

ثلاثة مصطلحات ترتبط فيما بينها في علاقة متينة، هي على التوالي: الرقيّ، والأسباب، والسلطان. وبمجموعها تنشأ رابطة تتصل بمهمّة (الرقيّ في الأسباب) أحد مكوّنات الحركة الكونيّة المهدويّة.

فالرقيّ هو: الصعود إلى الأعلى، قال الراغب الأصفهاني: "رقيت في الدرج والسلم أرقى رقيّاً"[٢].

والأسباب: جمع سبب، وهو عند الراغب: "الحبل الذي يُصعد به النخل، وجمعه أسباب، وسُمّي كلّ ما يُتوصلُ به إلى شيء سبباً"[٣].

والسلطان جاء عنه في كتاب الله العزيز: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ فَبِأَىِّ﴾[٤].

قال الراغب الأصفهاني: "السلاطة: التمكن من القهر، يقال: سلطتُهُ فتسلط.. ومنه سمّي السلطان، والسلطان يقال في السلاطة.. وسُمّي الحجّة سلطاناً"[٥].

عن معنى السلطان قال القرطبيّ في تفسيره: "والسلطان: العذر، قال ابن عباس: إن استطعتم أن تعلموا ما في السماوات وما في الأرض فاعلموه،

---

(١) سورة الحاقة، الآية ٧.
(٢) مفردات القرآن، الراغب الأصفهاني، كتاب الراء، ص٣٦٣.
(٣) مفردات القرآن، الراغب الأصفهاني، كتاب السين، ص٣٩١.
(٤) سورة الرحمن، الآية ٣٣.
(٥) مفردات القرآن، الراغب الأصفهاني، كتاب السين، ص٤٢٠.

ولن تعلموه إلا بسلطان **أي ببينة** من الله تعالى. وعنه أيضاً أنّ معنى "لا تنفذون إلا بسلطان": لا تخرجون من سلطاني وقدرتي عليكم. قال قتادة: لا تنفذون إلا **بمُلك** وليس لكم ملك. وقيل: لا تنفذون إلا إلى سلطان"[١].

وقال الطبري: "قال بعضهم: معنى ذلك: إن استطعتم **أن تجوزوا** أطراف السموات والأرض، **فتعجزوا ربكم** حتى لا يقدر عليكم، فجوزوا ذلك، فإنكم لا تجوزونه إلا بسلطان من ربكم. وقال آخرون: بل معنى ذلك: **أن تنفذوا** من أقطار السموات والأرض، فانفذوا هاربين من الموت، فإنّ الموت مدرككم. وقال آخرون: بل معنى ذلك: إن استطعتم أن **تعلموا** ما في السموات والأرض فاعلموا. وقال آخرون: معنى قوله: ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ لا تخرجون من سلطاني، وأمّا الأقطار فهي جمع قطر، وهي الأطراف. وأمّا قوله: ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ قال بعضهم: معناه: **إلا ببينة**، وقال آخرون: **إلا بحجّة** وقال آخرون: إلا **بملك** وليس لكم ملك وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال معنى ذلك: إلا بحجّة وبيّنة، لأنّ ذلك هو معنى السلطان في كلام العرب"[٢].

من دلائل ارتباط هذه المصطلحات الثلاثة بالكونيّة نرى أنّ النبيّ الأكرم ﷺ لم يتطرّق إليها في أحاديثه ـ على كثرتها ـ إلا في حالتين، الأولى: في حديثه عن واقعة المعراج، والثانية: في حديثه عن الإمام المهديّ، دلالة على أنّ الرقيّ هو الصعود الذي سيمارسه الإمام المهديّ للرقيّ إلى العوالم الأخرى كما مارس هو الصعود في المعراج.

ثمّ إنّ القرآن قرن الرقيّ بالصعود إلى السماء العليا، ففي كلّ الآيات التي ورد فيها لفظ (الأسباب) جمعاً ومفرداً فسّر على أنه: الطريق أو المسلك بين الأرض والسماء كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ

(١) تفسير القرطبي، سورة الرحمن، الآية ٣٣.
(٢) تفسير الطبري، سورة الرحمن، الآية ٣٣.

فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾[١] أي بطريق أو بمسلك من مكانه الذي هو فيه إلى السماء التي فوقه. قال الطبري: "اختلف أهل التأويل في المعني فقال بعضهم: عني بها نبيّ الله ﷺ فتأويله على قول بعض قائلي ذلك: من كان من الناس يحسب أن لن ينصر الله محمّداً في الدنيا والآخرة، فليمدد بحبل ـ **وهو السبب** ـ إلى السماء: يعني **سماء البيت**، وهو سقفه، ثمّ ليقطع السبب بعد الاختناق به، فلينظر هل يذهبنّ اختناقه ذلك وقطعه السبب بعد الاختناق ما يغيظ. وقال آخرون: من كان يظنّ أن لن ينصر الله نبيّه ﷺ ويكابد هذا الأمر ليقطعه عنه ومنه، **فليقطع ذلك من أصله** من حيث يأتيه، فإنّ أصله في السماء، فليمدد **بسبب إلى السماء**، ثمّ ليقطع عن النبيّ ﷺ الوحي الذي يأتيه من الله. وقال آخرون: معنى النصر ها هنا **الرزق**. وقال آخرون: من كان يظنّ أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة، فليمدد **بسبب إلى سماء البيت** ثمّ ليختنق، فلينظر هل يذهبنّ فعله ذلك ما يغيظ، أنه لا يرزق"[٢].

والأمر ذاته يتكرّر في حوار فرعون مع هامان، كما في قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾[٣] حيث قال ابن كثير: "قال سعيد بن جبير وأبو صالح: أبواب السماوات وقيل طرق السماوات"[٤] وقال الطبري: "اختلف أهل التأويل في معنى الأسباب في هذا الموضع، فقال بعضهم: أسباب السماوات: **طرقها**. وقال آخرون: عني بأسباب السماوات: **أبواب السماوات**. وقال آخرون: بل عني به **منزل السماء**. وقد بيّنا فيما مضى من قبلُ، **أنّ السبب: هو كلّ ما تسبّب به إلى الوصول إلى ما يطلب من حبل وسلم وطريق وغير ذلك**"[٥].

---

(١) سورة الحج، الآية ١٥.
(٢) تفسير الطبري، سورة الحج، الآية ١٥.
(٣) سورة غافر، الآيات ٣٦ ـ ٣٧.
(٤) تفسير ابن كثير، سورة غافر، الآيات ٣٦ ـ ٣٧.
(٥) تفسير الطبري، سورة غافر.

وكذلك في قوله تعالى ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾[١] قال الطبري: "وإن كان لهم ملك السموات والأرض وما بينهما، فليصعدوا في أبواب السماء وطرقها، فإن كان له ملك شيء لم يتعذر عليه الإشراف عليه، وتفقده وتعهده. عن أنس، قال: الأسباب: **أدق من الشعر، وأشدّ من الحديد، وهو بكلّ مكان، غير أنه لا يرى. وأصل السبب عند العرب: كلّ ما تسبب به إلى الوصول إلى المطلوب من حبل أو وسيلة، أو رحم، أو قرابة، أو طريق، أو محجّة وغير ذلك**"[٢].

وقال القرطبي: "أي فليصعدوا إلى السموات. يقال: رقي يرقى وارتقى إذا صعد. وقيل: الأسباب أبواب السموات التي تنزل الملائكة منها، قاله مجاهد وقتادة. قال زهير: ولو رام أسباب السماء بسلم، وقيل: الأسباب **السموات نفسها**، أي فليصعدوا سماء سماء. وقال السدّي: "في الأسباب" **في الفضل والدين**. وقيل: أي فليعلوا في **أسباب القوّة** إن ظنوا أنها مانعة. وقيل: **الأسباب الحبال**، يعني إن وجدوا حبلا أو سبباً يصعدون فيه إلى السماء فليرتقوا"[٣].

الرقيّ في الأسباب تحقق تاريخيّاً لبعض أولياء الله كما يبدو من ظاهر الروايات، ومنهم ذو القرنين كما في حديث القرآن عن يأجوج وماجوج وهو قوله سبحانه وتعالى في سورة الكهف: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۞ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[٤] الذي قال القرطبي بشأنه: "قال عليّ (رض): "سخر له السحاب، ومدّت له الأسباب، وبسط له في النور، فكان الليل والنهار عليه سواء"[٥].

---

(١) سورة ص، الآية١٠.
(٢) تفسير الطبري، سورة ص، الآية ١٠.
(٣) تفسير القرطبي لآيّة نفسها.
(٤) سورة الكهف الآيات ٨٤ ـ ٨٥ وتكررت في الآيات ٨٩ و٩٢.
(٥) تفسير القرطبي، سورة الكهف.

وفي الحديث عن جابر بن عبدالله الأنصاريّ قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنّ ذا القرنين كان عبداً صالحاً جعله الله حجّة على عباده... وفيكم من هو على سنته، وإنّ الله عزّ وجلّ مكن لذي القرنين في الأرض وجعل له من كلّ شيء سبباً، وإنّ الله تبارك وتعالى سيجري سنّته في القائم من ولدي"(١).

وفي الحديث أيضاً: "سأل رجل عليّاً عليه السلام، كيف استطاع أن يبلغ المشرق والمغرب؟ قال: سخر له السحاب، ومدّ له في الأسباب، وبسط له النور، فكان الليل والنهار عليه سواء"(٢).

ومعنى هذا أنّ الله سبحانه آتاه أسباب القوّة في الأرض ليتّبع سبباً داخلها وخارجها يقع في السماوات التي يسكن فيها هؤلاء القوم، عن هشام بن جعفر بن حماد عن عبدالله بن سليمان وكان مقرئاً للكتب قال: "فأوحى الله جلّ جلاله إليه يا ذا القرنين أنت حجّتي على جميع الخلائق ما بين الخافقين من مطلع الشمس إلى مغربها"(٣).

وإذا كانت مهمّة ذي القرنين الفضائيّة محدّدة بهدف واحد وهو تحصين الخلائق وحمايتهم من شرور يأجوج وماجوج إلى أن يحين وقت خروجهم بأمر الله تعالى، فإنّ المهمّة الرسميّة العالميّة الكونيّة للمنقذ المنتظر غير محدّدة بهدف بعينه، ولها أهداف عظيمة وجليلة تتجاوز هدف ذي القرنين المحدّد، ولذلك جاء عن الإمام زين العابدين عليه السلام قوله: "أما إنّ ذا القرنين قد خيّر بين السحابين فاختار الذلول وادّخر لصاحبكم الصعب فقيل: وما الصعب؟ فقال: ما كان من سحاب فيه رعد وصاعقة وبرق وصاحبكم يركبه، أما إنه سيركب السحاب ويرقى في الأسباب أسباب السموات السبع والأرضين السبع، خمسٌ عوامرُ واثنتان خربتان"(٤).

---

(١) كمال الدين، الشيخ الصدوق، الجزء٢، ص٣٦٥.
(٢) كمال الدين وإتمام النعمة، الشيخ الصدوق، الجزء٢، ص٣٦٤.
(٣) كمال الدين، الجزء٢، ص٣٦٧.
(٤) البحار ٥٢/ ٣٢١.

الحظ هنا الربط التشبيهيّ بين المهامّ المهدويّة ومهمّة ذي القرنين فهي مهامّ لا تنجز عن طريق طيّ الأرض؛ لأنها خارج نطاق الأرض، ولا تنجز بالمركبات الفضائيّة العاديّة أو المعروفة الآن للبشر؛ لأنّ ما توصّلوا إليه وما سيتوصّلون إليه يعجز عن الوصول إلى الأكوان كلها. بل تنجز هذه المهامّ الجبّارة عن طريق ركوب السحاب وتسخيرها؛ أي: التنقل جوّاً بوسائط لا ندركها. وهذا التنقل لا يأتي بخطوط أفقيّة منحنية كالتنقل بالطائرات المعروفة، وإنما بالرقيّ؛ أي: الصعود العموديّ كما تنطلق الصواريخ الفضائيّة، وإذا كانت الصواريخ تعود وتأخذ خطّاً منحنياً في حدود معيّنة من الفضاء الخارجيّ؛ فإنّ الرقي الذي نتحدّث عنه يستمرّ بشكله العمودي المتعرّج وصولاً إلى مديات لا تدركها عقولنا المحدودة. فالرقي في الأسباب مرتبط بالعموديّة وليس بالأفقيّة وهو ما يؤكده قوله سبحانه وتعالى في سورة غافر: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾[1] فهذا الجبار المخدوع لا يملك إمكانيّة ركوب السحاب للرقيّ في السماء لرؤية ربّ موسى ولذلك بنى الصرح العالي الذي يرتفع عموديّاً في السماء ظنّاً منه أنّ ذلك سوف يوصله إلى غايته. ومعنى الرقيّ ليس كما ذهب إليه المفسّرون الذين ذكرنا أقوالهم، وليس كما ذهب إليه محمّد عيسى داوّد الذي قال: "ومعنى رقيّ المهديّ في الأسباب كما ينصرف إلى فتوح علميّة واكتشاف كنوز بهذه الجبال"[2] يقصد جبال نيوزلاندا. فهو في ادّعائه هذا لم يشذ عن سابقيه من الباحثين الذين ربطوا المهدويّة بمحور الأرض فقط.

كذلك إنّ مهمّة ذي القرنين كانت نوعاً ما لا تحتاج إلى الأسلحة المتطوّرة تساوقاً وطبيعة الحالة الكونيّة آنذاك حيث كانت المخلوقات تمتلك أنواعاً محدّدة من الأسلحة البدائيّة غير المتطوّرة لا كما يتوقع أن تكون عليه في زمن المهديّ بدلالة أنّ يأجوج ومأجوج كما ورد في الحديث كانا يصبّان جامّ

---

(١) سورة غافر، الآية ٣٦.

(٢) المفاجأة، محمّد عيسى داوّد، ص٤٧٦.

غضبهما على الأمم التي استطابوا معاداتها واكتفوا بذلك، ولو كانت لديهم أسلحة لاستعملوها ولما اكتفوا بالغضب والأذى المحدود، ولذلك كانت مركبات ذي القرنين عاديّة، أمّا مركبات المهديّ فإنها مجهّزة بالأسلحة المتطوّرة (ما كان من سحاب فيه رعد وصاعقة) فلو كان الإمام قد قال رعد وبرق؛ فمعنى ذلك التشبيه بالرعد والبرق المعروفين (صوت وضوء)من دون تأثير فعليّ، ولكنه قال (رعد) دلالة على صوت انطلاق الأسلحة و(صاعقة) وهي القذيفة التي تنزل فتحرق وتصيب بالضرر وتتسبب بالقتل. وهذا كله لا يمنع أن تكون مهمّة ذي القرنين مهمّة كونيّة، بل إنّ النصّ القرآنيّ في الآية الباركة يثبت أنّ المقصود ليس مشرق الأرض ومغربها حتماً، بل مشارق ومغارب مختلفة عنها، يشير إلى ذلك استعمال النصّ القرآنيّ للجمع مرّة (مشارق / مغارب) وللتثنية مرّة أخرى (مشرقين /مغربين) عند ذكرها في سياق الآيات، بمعنى أنها أكثر من مشرق وأكثر من مغرب وهي المشارق والمغارب التي أشارت إليها الآيات القرآنيّة في قوله تعالى ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾[1] وقوله تعالى ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾[2].

ومن يدّعي أنّ المقصود من وراء استخدام صيغة الجمع إنما هو مشرق كلّ بلد على حدة؛ أي: جهته الشرقيّة أو ما يعرف باختلاف آفاق الأقاليم لا يصيب كبد الحقيقة، لأنّ الآيات واضحة المقصد.

مركبات الرقيّ

هنا قد يسأل سائل ويقول: إذا كان العالم الحاضر قد عرف المركبات الفضائيّة التي ربّما سوف يستعملها الإمام المهديّ أو أنه سوف يصنع مثلها أو ربّما أفضل منها، فمن أين وجد ذو القرنين مركبات فضائيّة ليمتطيها صعوداً؟

وأقول جواباً: إنّ ذا القرنين القرآنيّ عاش كما تقول الروايات في زمن

(١) سورة الرحمن، الآية ١٧.
(٢) سورة المعارج، الآية ٤٠.

النبيّ إبراهيم عليه السلام وجاء في الأخبار التي رواها الحاكم في مستدركه والبيهقي في حديث النبيّ صلى الله عليه وآله صحّحه الألباني في الصحيح الجامع برقم ٥٥٢٤ قال النبيّ صلى الله عليه وآله: "ما أدري أ تبّع نبيّاً كان أم لا، وما أدري ذو القرنين نبيّاً كان أم لا" في حين جاء عن الإمام عليّ عليه السلام بحسب المعلومة التي استقاها من النبيّ الأكرم قوله: "لا نبيّاً ولا ملكاً، بل عبدٌ أحبّ الله فأحبّه، ونصح لله فنصح له" وعن أبي جعفر عليه السلام: "إنّ ذا القرنين لم يكن نبيّاً ولكنه كان عبداً صالحاً أحبّ الله فأحبّه الله، وناصح لله فناصحه الله"[١].

علاقة ذي القرنين بالأكوان خارج الأرض تبدو محتملة بالنصّ القرآنيّ وحديث القرآن عنه وعن تنقلاته المغلفة بالألغاز والأسرار، وهو ما دفع المسلمين الأوائل للسؤال عنه وعنها بكثرة، لا في زمن النبوّة وحده؛ بل حتى في زمن حكم الإمام عليّ عليه السلام؛ فقد جاء عن الإمام عليّ أنّ رجلاً سأله: "أرأيت ذا القرنين كيف استطاع أن يبلغ المشرق والمغرب؟ قال عليه السلام: سخر الله له السحاب ومدّ له الأسباب وبسط له النور؛ فكان الليل والنهار عليه سواء"[٢]. فالسؤال بحدّ ذاته يدلّ على أنّ الإمام كان قد تحدّث إليهم عن الأمور الإعجازيّة التي جاء بها ذو القرنين وإلاّ فإنّ بلوغ المشرق والمغرب الأرضيّين ليس بالأمر المستحيل حتى في مقاييس ذلك الزمان.

ويجد من يتابع قصّة ذي القرنين أنّ تحرّكه كان تحرّكاً كونيّاً مؤكّداً، وقد توضح الرواية الآتية بعض جوانب هذا الرأي، وهي رواية طويلة اجتزأنا منها ما يخدم الموضوع. الرواية في كمال الدين وإتمام النعمة عن عبدالله بن سليمان وكان قارئاً للكتب قال: "حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجد عندها الأمّة التي ذكرها الله تعالى في كتابه ففعل بهم ما فعل بمن مرّ به من قبلهم حتى فرغ ممّا بينه وبين المغرب ووجد جمعاً وعدداً لا يحصيهم إلاّ الله وبأساً

(١) كمال الدين وإتمام النعمة، الشيخ الصدوق، ج٢، ص٣٦٩.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٦٤.

وقوّة لا يطيقه إلا الله عزّ وجلّ وألسنة مختلفة وأهواء متشتتة، وقلوباً متفرّقة. ثمّ مشى على الظلمة ثمانية أيّام وثماني ليال وأصحابه ينظرونه حتى انتهى إلى الجبل الذي هو محيط بالأرض كلها؛ فإذا هو بملك من الملائكة قابض على الجبل... فقال له الملك: كيف قويت يا ابن آدم على أن تبلغ إلى هذا الموضع ولم يبلغه أحد من ولد آدم قبلك؟"[1].

فأين هي الأرض التي تعمّها الظلمة بهذا الشكل؟ وأين هذه الجموع من المخلوقات التي لا يحصيها إلا الله تعالى؟

وأين هو الجبل المحيط بكلّ الأرض وهل هو جبل حقّاً، ولِمَ لا نراه ونعرفه؟ وهل بلوغ ذلك المكان من (الأرض) يحتاج إلى قوّة خارقة يتعجّب المَلك القابض على الجبل منها؛ حتى يسأل من ذي القرنين عن مصدر القوّة التي مكنته من الوصول إلى مكان أرضيّ لم يبلغه بشر من قبلُ؟

ولِمَ تعجّب الملك أيضاً من وصول آدميّ إلى ذلك المكان لو لم يكن وصول الآدميّ معجزة خارقة لنواميس الحال؟

ولو كانت المخلوقات المليونيّة التي تسكن ذلك المكان من نسل آدم، هل كان الملك سيقول له: لم يبلغه أحد من ولد آدم قبلك؟

إنّ ذا القرنين كان من آيات الله، وليس عصيّاً على الله تعالى أن يرسل له واسطة من نوع خاصّ يتنقل بها لإنجاز بعض المهامّ أسوة بما جاء في روايات وقصص الإسراء والمعراج التي تقول إنّ الله تعالى أرسل لرسوله الكريم ﷺ آلة البراق التي لها أضواء وأجنحة متحرّكة وصوت أزيز كأزيز المحرّك، ليرقى عن طريق الجلوس بداخلها وليس فوقها إلى السماوات العلى، فما الضير أن يكون قد أرسلها أو أرسل ما يشبهها إلى ذي القرنين من قبلُ؛ وهو بهذه الصفات؟ وسيتبيّن لكم في الفصول القادمة أنّ الكثير من العلماء الغربيّين

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة، ص٣٦٨.

يعتقدون أنّ الحضارات القديمة كانت تعرف المركبات الفضائيّة وتستخدمها في بعض المهامّ المستحيلة.

ثمّ لا ننسى أنّ ثمة الكثير من النقول والمصادر المختلفة التي فيها أكثر من إشارة إلى وجود هذه المركبات، وبعض هذه الإشارات لا يزال معمولاً بمضمونها في عصرنا الراهن مثل إيمان الصابئة المندائيّين بالسفن التي تنقل الأرواح إلى السماء، وهي التي أشارت إلى وجودها كتبهم الدينيّة التي يستقون عقائدهم منها.

ومن يتفحّص الرسومات الموجودة في كتب الصابئة الدينيّة مثل كتاب (ديوان أباثر)[١] سيجد صوراً لمخلوقات شبيهة بالصور التي تخيّلها العلماء الغربيّون المعاصرون لسكان الكواكب المحتملين. كما ويجد رسومات لما يطلقون عليه اسم (ناقلات الأرواح) أو ما يعرف بسفن الكواكب، مرسومة على أشكال السفن الفضائيّة على هيأة الشمس والقمر والزهرة[٢] وكأنهم كانوا على اتصال بهذه المخلوقات التي كانت تزورهم بواسطة هذه المركبات.

يقول أحد المندائيّين واسمه عبد الرزاق شمخي: "يعرف المندائيّون ما يعرف بسفن الكواكب. وقد تضمّنت هذه الكتب رسوماً وتخطيطاتٍ لأشكال من هذه السفن على هيأة الشمس والقمر والزهرة.

وتقول الليدي دراور: الشمس (شامش) كسائر الأرواح الفلكيّة في دورته عبر الفلك، واعتباره قوّة للخير لا للشرّ.... تشير الكتب والرسومات المندائيّة إلى ناقلات الأرواح، حيث سفرها بعد الموت إلى المطراثي (مكان تطهير

---

(١) مخطوطة صعود النفس ويحتوي على شرح للمسقثا ولصعود وعروج وأرتقاء نشمثا أي النفس إلى السماء بعد الانتقال من العالم الفني إلى أرض تيبل أي الحياة الدنيا إلى العالم الثاني عالم الأنوار آلما اد أنهورا. ينظر: موسوعة العلوم المعرفيّة للصاءئة المندائيين في الرابط http://www.edmilia.tk

(٢) مجلة التراث الشعبي العراقيّة، مقالة بعنوان منمنمات الصابئة المندائيين في العراق للفنان ماهود أحمد.

الأرواح من الذنوب) لتحديد مصيرها، ومرورها على الملاك أباثر النورانيّ المسؤول عن تحديد وزن الروح وتحديد منزلتها إن كانت في جنة أو نار، فهو بمثابة الصراط المستقيم. وهي لا تشبه سفن الأفلاك، فهيكلها أكثر إنسيابيّة في التكوين، فهي مثل الهلال في وضع أفقيّ". وأنّ حقيقة الملاحين (الأشخاص) في هذه السفن هم اثري نورانيّين معيّنين كبحارة بجانب شامش في زورق الشمس ولهم أسماء مختلفة"[١].

وديانة الصابئة المندائيّين وهي من أقدم الديانات المعروفة كما يدّعي أتباعها تكلمت كذلك عن معراج أو صعود (دنانوخت) وهو النبيّ إدريس عليه السلام إلى السماء السابعة التي وصلها برحلة طويلة تمّت بالتنقل عبر الكواكب، من كوكب إلى آخر ومن عالم نوريّ إلى آخر[٢] وهناك مؤشرات واضحة في كتبهم أنّ(دنانوخت) قام برحلته عن طريق التنقل من كوكب إلى آخر للوصول على السماء السابعة بواسطة مركبة فضائيّة، نعم. مركبة فضائيّة بالنصّ، وليس بواسطة السحاب أو ما شابه.

وقد تحدّث عن سفرته الفضائيّة التي استمرّت ستين يوماً قائلا: وعندما كنت أتحدث إلى أبنائي حملني الرجلان إلى السماء وأنزلاني في السماء الأولى وأطلعاني على النجوم ونظمها

تقول كتب الصابئة: "دَنانوخت شخصيّة فريدة مميّزة ذُكرت في أغلب الأديان ومنها المندائيّة. يُسمّى في الـ "كَنزا ربا" (دَنانوخت) بمعنى "نواة الدين"، وفي التوراة (أخنوخ) أي "خاثر في الدين" أمّا في القرآن فيُسمّى "إدريس". هو أوّل من تكلم في الأمور السماويّة أي علم الفلك والنجوم والتقويم... وقد اختفى مِن على هذه الأرض لأنّ اللهَ أخذه إليه ويراد بذلك أنه

(١) موقع الجمعيّة الخيريّة المندائيّة في الدنمارك http://mandaean.dk/node/17
(٢) الأديان والمذاهب، رشيد الخيون، ص٢٧.

انتقل حيّاً بغير انحلال الجسد، لبس الجسد العديم بقوّة الله، وجاء في سفر يشوع بن سيراخ "١٦:٤٤" أخنوخ أرضى الربّ فنقل وسينادي الأجيال إلى التوبة. والحقيقة أنّ أخنوخ انتقل برفقه أحد الـ (أُثري) إلى المطهرات وعاد إلى الدنيا ودعا الناس إلى الإيمان الحقيقيّ بالحيّ الأزليّ، ثمّ مات وصعدت نفسه إلى عالم النور كما جاء في الـ "كَنزا ربا" عاد (دَنانوخت) إلى الدنيا، فوجد الناس الذين اعتبروه ميتاً يبكون عليه"[١].

نجد كذلك في الديانة اليهوديّة أنّ التوراة تكلم على المركبات الفضائيّة في حديثه عن النبيّ حزقيال الذي صعد إلى السماء بكائن أسطوريّ وعاد بواسطته إلى الأرض، وقد وصفت التوراة في (سفر حزقيال) هذه المركبة استناداً إلى وصف بطلها حزقيال لها في قوله: "كان في سنة الثلاثين في الشهر الرابع في الخامس من الشهر وأنا بين المسبيّين[٢] عند نهر خابور أنّ السماوات انفتحت فرأيت رؤى الله * فنظرت وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال سحابة عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعان ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار * ومن وسطها شبه أربعة حيوانات وهذا منظرها لها شبه إنسان * ولكلّ واحد أربعة أوجه ولكلّ واحد أربعة أجنحة * وأرجلها أرجل قائمة وأقدام أرجلها كقدم رجل العجل وبارقة كمنظر النحاس المصقول * وأيدي إنسان تحت أجنحتها على جوانبها الأربعة ووجوهها وأجنحتها لجوانبها الأربعة * وأجنحتها متصلة الواحد بأخيه لم تدرِ عند سيرها كلّ واحد يسير إلى جهة وجهه * أمّا شبه وجوهها فوجه إنسان ووجه

(١) موضوع بعنوان (كتاب الحكيم دَنانوخت) للدكتور قيس مغشغش السعدي، نشره موقع الجمعيّة المندائيّة الخيريّة في الدنمارك http://www.mandaean.dk/node/327

(٢) سنة ٥٩٧ قبل الميلاد كتب حزقيال على مدى اثنين وعشرين عاما سفره في ثمانيّة واربعين اصحاحا عندما كان من بين سبي القدس الذي ساقه نبوخذ نصر أو بختنصر إلى العراق وأسكنهم بابل.

أسد لليمين لأربعتها ووجه ثور من الشمال لأربعتها ووجه نسر لأربعتها * فهذه أوجهها أمّا أجنحتها فمبسوطة من فوق لكلّ واحد اثنان متصلان أحدهما بأخيه واثنان يغطيان أجسامها * وكلّ واحد كان يسير إلى جهة وجهه إلى حيث تكون الروح لتسير تسير لم تدرِ عند سيرها * أمّا شبه الحيوانات فمنظرها كجمر نار متقدة كمنظر مصابيح هي سالكة بين الحيوانات وللنار لمعان ومن النار كان يخرج برق * الحيوانات راكضة وراجعة كمنظر البرق * فنظرت الحيوانات وإذا بكرة واحدة على الأرض بجانب الحيوانات بأوجهها الأربعة * منظر البكرات وصنعتها كمنظر الزبرجد وللأربع شكل واحد ومنظرها وصنعتها كأنها كانت بكرة وسط بكرة * لمّا سارت سارت على جوانبها الأربعة لم تدرِ عند سيرها * أمّا أطرها فعالية ومخيفة وأطرها ملآنة عيوناً حواليها للأربع * فإذا سارت الحيوانات سارت البكرات بجانبها وإذا ارتفعت الحيوانات عن الأرض ارتفعت البكرات * إلى حيث تكون الروح لتسير يسيرون إلى حيث الروح لتسير والبكرات ترتفع معها لأنّ روح الحيوانات كانت في البكرات * فإذا سارت تلك سارت هذه وإذا وقفت تلك وقفت وإذا ارتفعت تلك عن الأرض ارتفعت البكرات معها لأنّ روح الحيوانات كانت في البكرات * وعلى رؤوس الحيوانات شبه مقبب كمنظر البلور الهائل منتشراً على رؤوسها من فوق * وتحت المقبب أجنحتها مستقيمة الواحد نحو أخيه لكلّ واحد اثنان يغطيان من هنا ولكلّ واحد اثنان يغطيان من هناك أجسامها * فلمّا سارت سمعت صوت أجنحتها كخرير مياه كثيرة كصوت القدير صوت ضجة كصوت جيش ولمّا وقفت أرخت أجنحتها * فكان صوت من فوق المقبب الذي على رؤوسها إذا وقفت أرخت أجنحتها * وفوق المقبب الذي على رؤوسها شبه عرش كمنظر حجر العقيق الأزرق وعلى شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق * ورأيت مثل منظر النحاس اللامع كمنظر نار داخله من حوله من منظر حقويه إلى فوق ومن منظر حقويه إلى

تحت رأيت مثل منظر نار ولها لمعان من حولها * كمنظر القوس التي في السحاب يوم مطر هكذا منظر اللمعان من حوله هذا منظر شبه مجد الربّ ولمّا رأيته خررت على وجهي وسمعت صوت متكلم"[١] وهذا وصف حقيقيّ لمركبة فضائيّة مصنوعة من المعدن وليس لحيوان أو ملك أو جنّ.

هناك أيضاً لدى أتباع الديانة الزرادشتيّة نصّ يِدّعي أنّ زرادشت قام برحلة جويّة في الفضاء الخارجيّ ووصل إلى كوكب (سِماك) بواسطة كائن أسطوريّ يشبه الكائن الذي استعمله حزقيال ثمّ عاد بواسطته إلى الأرض ثانية.

وفي الثقافة المصريّة القديمة نجد في متحف الفاتيكان بروما وتحديداً في القسم المصريّ ورقة برديّ مكتوباً فيها: "في الشهر الثالث من السنة الثانية والعشرين رأى الكاتب دائرة من النار في السماء ليس لها صوت ولها طول وعرض الزورق الكبير وخاف ومعه آخرون وذهب إلى فرعون واجتمع فرعون ومعه كثير من الجنود ورأوا كرة النار وخافوا وفي اليوم التالي تكاثرت كرات النار في السماء".

أمّا في الثقافة العراقيّة القديمة فنجد في اللوح السابع من ملحمة كلكامش قوله: "وقال لي: انظر وراءك إلى الأرض كيف تبدو لك انظر إلى البحر كيف تراه.... وطار في الهواء أربع ساعات أخرى ثمّ قال لي: انظر إلى الأرض مرّة أخرى.... ثمّ ارتفع في الجوّ أربع ساعات أخرى وقال لي: انظر إلى الأرض"

وفيما يخصّ ثقافتنا العراقيّة القديمة أيضاً "اكتشف العالم ستيجن في المتحف البريطاني رقماً مسماريّاً مدوّراً هو استنساخ لنصّ سومريّ وجد في مكتبة آشور بانيبال في نينوى، كان لغزاً كبيراً عجز العلم عن فكّ سرّه ومضمونه يخصّ طريق رحلة فضائيّة للإله (أنليل) تحتوي تعليمات للملاح الكونيّ بشأن الإقلاع عن الأرض والهبوط عليها، وهناك مخطط لمثلثين متصلين بخط منحرف له زاوية قائمة على وجه التقريب ـ يقول العالم ستيجن ـ

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر حزقيال، الإصحاح الأول من ١:٤ إلى ١:٢٨.

إنه يشير إلى طريق الطيران، فالكتابة إلى جانبه تقول إنّ ـ إنليل ـ يدير الكواكب، ونقطة بدء الرحلة الفضائيّة يمثلها المثلث في الجهة اليسرى الذي يبيّن الحدود البعيدة للنظام الشمسيّ، ونجد هدف الرحلة إلى الأرض، في الجهة اليمنى حيث تلتقي الأجزاء في نقطة الهبوط[١].

والظاهر ممّا تقدّم، ؛ فضلاً عن الأحاديث التي كانت بين يدي المسلمين عن الإمام المهديّ أنّ المسلمين أنفسهم كانوا يملكون كمّاً لا بأس به من المعلومات عن هذا الأمر حتى إنّ بعض من ادّعى المهدويّة تأريخيّاً وهم أكثر من واحد أكدوا هذا الجانب لدعم مواقفهم وكأنهم كانوا على يقين من علاقة الكونيّة بالمهدويّة، فعلى سبيل المثال نجد أنّ أحمد بن عبدالله بن هاشم أبا العباس المعروف بالملثم الذي ادّعى المهدويّة سنة ٦٨٩ هجريّة، ادّعى أنه عُرج به إلى السماوات السبع، ثمّ إلى سدرة المنتهى، ثمّ إلى العرش ومعه جبرائيل وجمع من الملائكة[٢] ومع أنه لم ترد في النصّ إشارة إلى الواسطة التي انتقل بها، إلا أنّ ذلك لا يعني أنه لم يتطرّق لموضوعها في خصوصيّات حديثه مع أتباعه عن هذه الرحلة المزعومة، ولاسيّما أنه كان يحدّثهم عن كراماته كما سيمرّ علينا عند حديثنا عن الكرامات.

أعود وأقول: لقد أكد العلم الحديث وجود أكوان أخرى غير المنظومة الشمسيّة المعروفة، ولكن هذا العلم رغم تطوّره لا يزال بين الشكّ واليقين فيما يخصّ وجود مخلوقات حيّة في هذه الأكوان. ورغم أنّ العلم الحديث لم ينجح إلى الآن في إثبات وجود حياة أخرى في الأكوان بسبب محدوديّة المعلومات التي يمتلكها نسبة إلى حجم الأكوان المترامي واللامحدود، إلا

---

(١) ينظر: صحيفة المثقف، صادق الصافي، تحت عنوان (السُومَريوْن.. رواد طريق الفضاء وعلم الكواكب) الرابط

http://www.almothaqaf.com/index.php?option=com_content&view=article&id=41177:2010-12-10-01-34-04&catid=34:2009-05-21-01-45-56&Itemid=53

(٢) ينظر العرف الوردي للسيوطي، ص٢٤.

أنّ ذلك لا يعني انعدام مخلوقات تسكن فيها، بل قد يثبت التطوّر العلميّ في المستقبل القريب جدّاً وجود مثل هذه المخلوقات في أكثر من مكان في الكون، وقد لا يكون ذلك بعيداً نسبة للتطوّر الهائل والتسارع الكبير الذي تمرّ به علوم الفضاء.

وما يدرينا فقد يكون علماء الفضاء تسلموا إشارات معيّنة من هذه المخلوقات أو اتصلوا بها بطريقة ما أو حدث تزاور بينهما عن طريق نزول المخلوقات الفضائيّة إلى الأرض كما في قصص الصحون الطائرة وغيرها، ولكنهم أجلوا الحديث في هذا الأمر بسبب بعض الضغوط الموجهة عليهم، أو ربّما بسبب منعهم عن الحديث عنها من جهة ما لا نستطيع تحديدها.

طيّ الأرض

إنّ الأحاديث والروايات التي مرّت عليكم بيّنت تبييناً لا غبار عليه أنّ الله سبحانه أراد للأطروحة المهدويّة أن تكون ليس للأرض وحدها وإنما لكل العوالم لأن مجرد الإشارة مثلا إلى ركوبه (عجّل الله فرجه) السحاب ورقيه في الأسباب يؤكد هذه الكونيّة ولاسيّما نحن نعرف أنه لا يحتاج إلى التنقل جوّاً لإنجاز مهامّه الأرضيّة في وقت يملك فيه قدرة طيّ الأرض وكرامتها، ؛ فضلاً عن امتلاك أصحابه الخلص لهذه الخاصيّة الفريدة مثلما يملكون قدرة المشي على وجه الماء، كما في حديث الإمام الباقر عليه السلام: "ويبعث جنداً إلى القسطنطينيّة فإذا بلغوا الخليج كتبوا على أقدامهم شيئاً ومشوا على الماء"[1] وهنا سنتحدث قليلا عن طيّ الأرض، وهل ادّعاه أحد غيرنا لرموزهم أم هو من مخترعات غلاة الشيعة كما يدّعي بعضهم، أم إنه حقيقة قرآنيّة يمنّ الله بكرامتها على من يختاره مُخَلِّصا؟

إنّ طيّ الأرض واحد من الوسائل والمدّخرات التي ادّخرها الله تعالى

(١) غيبة النعماني، ص٢٤٤.

للإمام المهديّ المنتظر لتعينه على تحقيق الوعد الإلهيّ في آخر الزمان، وطيّ الأرض من المسلمات التي تؤمن بها غالبيّة العقائد الدينيّة بشيء أو بآخر على أنها من طرق الإعجاز الداعم لدعوات الأنبياء وكرامات الصالحين. ثمّ إنّ الإيمان بحقيقة امتلاك بعض الأشخاص لكرامة طيّ الأرض ليس مقصوراً على المسلمين وحدهم، ففي الفكر المسيحيّ مثلا نجد تلميحات واضحة له، حيث نجد في الإنجيل: "ولما جاء المساء نزل تلاميذه إلى بحر الجليل فركبوا قارباً وعبروا به إلى كَفر ناحوم وأظلم الليل قبل أن يلحقهم يسوع، وهبّت عاصفة شديدة فهاج البحر، وبعدما قطعوا ثلاثة أميال أو أربعة رأوا يسوع يدنو من القارب ماشياً على البحر فخافوا فقال لهم: أنا هو فلا تخافوا. وأرادوا أن يصعدوه إلى القارب **فوصل القارب في الحال إلى الأرض** التي كانوا يقصدونها"[(١)].

أمّا في الفكر الإسلاميّ فيستفاد من نقول المدرستين الإسلاميّتين المتوافرة لدينا أنّ طيّ الأرض نوعان:

النوع الأوّل:

تقريب الأماكن القصيّة البعيدة لصاحب الكرامة من دون الالتفات لمقدار المسافة الفاصلة بين النقطتين بحيث يراها بموجوداتها وحياتها وتضاريسها وسمائها وهو جالس في مكانه، كما ورد في كتب الحديث ومنها صحيحا البخاري ومسلم عن ثوبان أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إنّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإنّ أمّتي سيبلغ ملكها ما زوي لي"[(٢)].

فورود كلمة (الأرض) معرفة بالألف واللام يقصد به كلّ الأرض وليس جزءاً معيّناً أو منطقة معيّنة مجهولة منها، يؤكد ذلك ورود كلمتي (مشارقها ومغاربها) أي: كلّ الأرض من المشارق إلى المغارب.

---

(١) الإنجيل، متى ١٤: ٢٢ ـ ٢٧، مرقس ٦: ٤٥ ـ ٥٢.
(٢) صحيح مسلم حديث ٢٨٨٩، ص١٢١١ باب الفتن.

وقد أطلق ابن كثير على هذا النوع من طيّ الأرض تسمية سابقة لزمانه ومتقدّمة عليه هي (الانتقال عبر الزمن) تبعاً للرواية التي تقول إنّ عمر بن الخطاب (رض) حذر قائد جنده (سارية) من كمين أعدّه له الأعداء برغم بعد المسافة بينهما. حيث قال: "والانتقال عبر المكان في الزمن ذاته يحدث أحياناً لمن وهبهم الله شفافيّة روحيّة وإيماناً صادقاً ومثال على ذلك أنّ الخليفة العادل عمر بن الخطاب (رض) شاهد ما يحدث في ساحة المعركة بين جنود المسلمين وجنود الشرك وهو يجلس في مكانه في المسجد وصاح صيحته المشهورة (الجبل يا سارية الجبل) فسمعه المجاهدون وهم في ساحة المعركة وقد أنقذتهم هذه الصرخة من كمين كان يعدّه المشركون لهم. أمّا الانتقال عبر الزمن من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل فليس هناك روايات موثوقة على حدوثه"[١].

النوع الثاني:

انتقال صاحب الكرامة من بقعة إلى أخرى من دون الالتفات إلى المسافة الفاصلة بينهما، وهو في أحد أنواعه يحدث بزمن لحظوي لا يمكن تخيّله أو تصوّره، ولا توجد أجهزة لها قدرة قياسه، وينقسم هذا النوع من طيّ الأرض إلى قسمين اثنين:

القسم الأوّل: تقول الروايات عنه: إنّ النبيّ ﷺ كان يمارسه يوميّاً كما توحي الأحاديث التي وردت في بعض كتب الحديث ومنها ما أورده الشيخ محمود بعيون الرنكوسي عن أبي هريرة قال: "ما رأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ كأنما الأرض تطوى له، إنّا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث" أخرجه أحمد والترمذي وابن سعد وصحّحه أحمد شاكر في تعليقه على المسند. وقوله الآخر الذي أورده عن أحمد وابن سعد وقال: صححه أحمد شاكر: "كنت مع رسول الله ﷺ في جنازة، فكنت إذا مشيت سبقني

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، جزء ٧، ص١٤٦.

فأهرول، فإذا هرولت سبقته. فألتفتُ إلى رجل إلى جنبي فقلتُ: تطوى له الأرض وخليل إبراهيم" وعن آخرين منهم يزيد بن مترد وقال: أخرجه ابن سعد "كان النبيّ ﷺ إذا مشى أسرع حتى يهرول الرجل وراءه فلا يدركه"(١) الحظ هنا أنّ أبا هريرة قال: (فإذا هرولت سبقته) ولكنه قال في الحديث الثاني: (حتى يهرول الرجل وراءه فلا يدركه)

القسم الثاني: هو الطيّ الخارق للنواميس الطبيعيّة، والانتقال بزمن غير محسوس أو محسوب من مكان إلى آخر، وقد أشار إليه القرآن الكريم في مواضع منها قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾(٢).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾(٣).

فهذا الانتقال وهذا الإتيان خارج نطاق الإدراك العامّ للمخلوقات، حتى على مستوى الجنّ؛ لأنّ الجنّ مع مقدرتهم الخارقة على التنقل اللحظويّ تبعاً لأثيريّة أجسامهم، إلا أنّ أكثرهم قدرة وتحمّلا وسرعة وقوّة وتبجّحاً بالنفس عدّ الوقت المطلوب للإتيان بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين بما لا يقلّ عن ست ساعات، كما في قوله سبحانه وتعالى ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾(٤) حيث جاء في الروايات أنّ نبيّ الله سليمان كان يقيم في مجلسه ست ساعات يوميّاً.

وتبعاً للأحاديث الصحيحة الواردة عن الرسول الأكرم ﷺ وعن أهل بيته الأئمّة الأطهار عليهم السلام نجد أنّ الله تعالى خصّ الإمام المنتظر بهذه الكرامة بكلّ تفرّعاتها، والأحاديث في ذلك مستفيضة ممّا يعني أنّ انتقاله (عجّل الله فرجه)

---

(١) القضاء الرباني، الشيخ محمود بعيون الرنكوسي.
(٢) سورة الإسراء، الآية ١.
(٣) سورة النمل، الآية ٤٠.
(٤) سورة النمل، الآية ٣٩.

في الأرض لا يتمّ كما هو الانتقال والحركة عند الآخرين من البشر وغيرهم سيراً على الأقدام أو بالواسطة التقليديّة (حيوانات/ آليّات) لأنّ المسافات تطوى له فينتقل بسرعة فوق ضوئيّة تفوق سرعة جلب عرش بلقيس (قبل ارتداد الطرف) دليلنا على ذلك ما جاء عن الإمام عليّ الرضا عليه السلام في قوله: "وهو الذي تطوى له الأرض ولا يكون له ظلّ"[١] وفقدان الظلّ دلالة على السرعة القصوى لأنّ الأجسام التي تمرّ بسرعة فائقة لا ترى ظلالها.

كما جاءعن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قوله: "وستطوى الأرض لصاحب هذا الأمر"[٢].

وجاء أيضاً عن الإمام محمّد الجواد عليه السلام قوله: "وهو الذي تطوى له الأرض ويذلّ كلّ صعب"[٣].

ونحن ندرك أنّ تخصيص الله تعالى هذه الكرامة لبعض عباده المنتجبين يدخل في باب الأسباب والمسبّبات ويخضع للسنن الكونيّة، ولذا لابدّ من وجود قواعد لهذا المعنى كما يقول السيّد مرتضى الشيرازي[٤]. لكن هنالك بعض المسلمين أبَوْا الالتزام بحقيقة وجود هذه القواعد فقالوا: إنّ من مغالاة الشيعة بأئمّهم أنهم ادّعوا لهم كرامة طيّ الأرض، كما يُروى عن الخليفة المتوكل العبّاسيّ الذي قيل إنه زار قبر الصحابيّ سلمان المحمّدي (رض) حينما كان عائداً من إحدى سفراته فقال: "إنّ غلاة الشيعة يقولون: إنّ عليّاً طوى الأرض وحضر من المدينة إلى المدائن ليلة مات سلمان فقام بتغسيله والصلاة عليه وإنزاله في لحده ثمّ عاد إلى المدينة" في إشارة إلى القصّة المعروفة في حديث جابر بن عبدالله الأنصاريّ الذي كان ابن شهر آشوب من ضمن من أوردها عن حبيب بن حسن العتكي عن جابر الأنصاريّ قال:

---

(١) بشارة الإسلام، ص١٦١ ويوم الخلاص، ص٤٣.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) البحار، ٥٢/ ٢٨٣.
(٤) محاضرة بعنوان الصبر والجهاد المتواصل ألقاها في طلاب حوزة كربلاء المقدسة.

"صلى بنا أمير المؤمنين صلاة الصبح ثمّ أقبل علينا فقال: معاشر المسلمين عظم الله أجركم في أخيكم سلمان.فقالوا في ذلك، فلبس عمامة رسول الله ودرعه وأخذ قضيبه وسيفه وركب على العضباء وقال لقنبر: عدّ عشراً، قال: ففعلت فإذا نحن عند باب سلمان. قال راذان: فلمّا أدرك سلمان الوفاة فقلت له: من المغسّل لك؟ قال: من غسّل رسول الله. فقلت: نحن في المدائن وهو في المدينة؟ فقال: ياراذان إذا شددت لحيتي تسمع الوجبة، قال: فلمّا شددت لحيته سمعت الوجبة وأدركت الباب وإذا أنا بأمير المؤمنين فقال: يا راذان قضى أبو عبدالله سلمان؟ قلت: نعم يا سيدي. فدخل وكشف الرداء عن وجهه فقال له: مرحباً يا أبا عبدالله، إذا لقيت رسول الله فقل له ما مرّ على أخيك من قومك. ثمّ أخذ في تجهيزه، فلمّا صلى عليه كنا نسمع من أمير المؤمنين تكبيراً شديداً وكنت رأيت معه رجلين"[1].

إلا أنّ هذا الاتهام لا يقلل من أهمّيّة طيّ الأرض وإعجازيّته، لأنّ حقيقة طيّ الأرض للمكلفين بمهامّ ربّانيّة ليست بالسرّ الخافي، ولا من مخترعات الشيعة، فالقرآن الكريم ذاته أشار إليه في قصّة نبيّ الله سليمان عليه السلام وبلقيس ملكة سبأ، وهذه الحقيقة القرآنيّة لا ينكرها إلا جاحد للقرآن، وهي تؤكد أنّ صاحب نبيّ الله سليمان عليه السلام آصف بن برخيا جاء بالعرش من اليمن إلى فلسطين بأقلّ من طرفة عين، أي: بجزء من أجزاء الثانية، وهي من توقيتات سرعة الضوء التي تبلغ ٣٦٠،٠٠٠كيلومتر في الثانية، والإتيان به عبر هذه المسافة الطويلة وهو عادة جسم ثقيل لا يقدر على حمله شخص واحد لا يمكن أن يحدث إلا عن طريق طيّ الأرض الإعجازيّ. هذا مع معرفة الجميع أنّ صاحب سليمان لم يكن نبيّاً ولا ملكاً مقرّباً ولا مكلفاً بأداء رسالة سماويّة أو عمل جبّار يراد من ورائه إصلاح الكون كله كما هي المهمّة المكلف بأدائها المهديّ. ثمّ إنه ليس مكلفاً بالتنقل عبر الزمان والمكان بتلك السرعة

(١) مناقب ابن شهر آشوب، ج٢، ص١٣١.

التي لا يمكن قياسها بكلّ أنواع أجهزة القياس المتطوّرة لتبليغ الكائنات والمخلوقات الكونيّة بالوعد الحق، لكنه مع ذلك كان يمتلك هذه الخاصيّة الفريدة.

كثّ إنّ كلّ الذين مارسوها فعلاً أو ادّعوها أو أُدّعيت لهم من قبلُ لم يكونوا مكلفين بواجب له مِساس بالكون كله، ولا بكلّ مخلوقاته كما هو دور الإمام المهديّ، فواجباتهم كانت بمنتهى المحدوديّة التي لا يؤثر ترك العمل بها في مصير المخلوقات والأكوان ومع ذلك أوعز الخالق للأرض أن تطوى لهم؛ فقرّب لهم البعيد لكي يكون ذلك من الشواهد على إمكانيّة طيّ الأرض بأمر الله سبحانه، في حين نجد بالمقابل أنّ الإمام المنتظر (عجّل الله فرجه) مكلف بأداء رسالة الاستخلاف الأخير ليس للأرض وحدها؛ بل لكلّ السماوات والأرضين وسكانها فكيف لا يخصّه الله بإمكانيّة طيّ الأرض للتنقل اللحظويّ من جهة إلى أخرى بأجزاء الثانية لإنجاز أكبر مهمّة موكولة لإنسان في كلّ التاريخ الكونيّ؟

وقد بشر النبيّ الأكرم ﷺ أمّته بهذه الكرامة التي خصّ الله بها المهديّ، لكي يبيّن لهم حقيقة المهمّة الموكولة للمصلح المنتظر، كما بشر بها الإمام عليّ عليه السلام حيث جاء عنه قوله في حديث له عن المهديّ(عج): "وتطوى له الأرض ولأصحابه، يرفع الله له كلّ منخفض من الأرض، ويخفض له كلّ مرتفع"[1].

ولتقريب الصورة التي جاءت في قول الإمام بحديثه عن الرفع والخفض أقول: إنّ هنالك أحاديث عن أهل البيت شرحت المقصود بهذا القول شرحاً جليّاً وواضحاً، وقد مرّت عليكم سابقاً وأعيد هنا إيراد بعضها للتأكيد، منها قول الإمام الصادق عليه السلام: "السماوات والأرض عند الإمام كيدِهِ من راحته

(١) المفاجأة محمّد عيسى داوّد، ص ٥٠٨ عن جفر الإمام عليه السلام.

يعرف ظاهرها من باطنها ويعلم برّها من فاجرها"[١]، وعن الإمامين الصادق والرضا عليهما السلام قالا: "إنّ الدنيا لتمثل للإمام مثل فلقة الجوز فلا يعزب عنه منها شيء، وأنه ليتناولها من أطرافها كما يتناول أحدكم من فوق مائدته ما يشاء"[٢].

وتبعاً لهذه المعطيات ندرك أنّ طيّ الأرض حقيقة ثابتة ويقينيّة، وليس من مخترعات الشيعة كما يدّعي المهووسون بالخلاف. وهي ستكون من الآليّات اللطيفة التي يستخدمها الإمام المهديّ في عمليّة إصلاح العوالم الأخرى بعد أن يكون قد فرغ من إصلاح الأرض بواسطتها، حيث جاء عن الإمام عليّ عليه السلام: "فيملك المهديّ الحقّ وللحق من البحر الكبير إلى البحر الصغير، ومن أدنى الأرض إلى أقصى الأرض. ويرقى في أسباب السموات والأرض"[٣].

أي: إنّ السيطرة على الأرض ستأتي في المرحلة الأولى للبعثة المهدويّة، ومن بعدُ تأتي المرحلة الكونيّة التي هي المرحلة الثانية من مراحل المهدويّة، وهي التي يمتدّ فيها الحكم المهدويّ إلى العوالم الأخرى. وقد يشترك سكان السماوات من المنتظرين مع جيش الإمام الأرضيّ في إتمام السيطرة على الأرض والأكوان.

إنّ طيّ الأرض للإمام المهديّ هو الذي سيمكنه في المرحلة الأولى من الوجود والحركة في كلّ بقاع الأرض في الوقت عينه بما يعطيه ميزة المراقبة والمباشرة والإشراف على سير عمليّات التحوّل المصيريّ، حتى إنّ أهل المشرق وأهل المغرب يرونه في الوقت نفسه اللحظة نفسها؛ كما في حديث الإمام عليّ عليه السلام: "تراه الأرض في كلّ زاوية في وقت واحد ليل نهار" ولا

(١) إلزام الناصب في إثبات الحجّة الغائب، ص ١١.
(٢) يوم الخلاص، كامل سليمان، ص ٣٢٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٥١٠.

غرابة في ذلك، بل الغرابة كلّ الغرابة أن لا تكون له مقدرة طيّ الأرض وهو مكلف بهذا الأمر العظيم.

مشاعيّة طيّ الأرض والكرامات

وإذا استثنينا الروايات التي جاءت في القرآن أو التي جاءت عن طريق أهل البيت عليهم السلام بشأن كرامة طيّ الأرض للمخلصين من عباد الله، نجد بالمقابل روايات كثيرة تدّعي وجود هذه المقدرة الخارقة عند أناس آخرين يؤدّون عن طريقها وبها خدمات خاصّة لأنفسهم ويستخدمونها لقضاء حوائجهم كالذهاب إلى الحجّ مثلاً، أو التزاور، أو في قضاء حاجة شخصيّة، أو ما شابهها من الأمور التي لا تحتاج أساسا للإعجاز؛ لأنها متاحة بسبل أخرى كثيرة، مع قليل من العناء.

وإذا كان ذلك صحيحاً ومتاحاً حتى في مثل هذه المناسبات فإنّ عدالة الله تستوجب أن يكون المهديّ المنتظر هذه الشخصيّة العظيمة التي يتفق المسلمون جميعاً على عظيم أثرها، وهي التي ينتظر المسلمون التشرّف برؤيتها منذ عصر البعثة المشرفة إلى ما يشاء الله، وهي التي أوكلت لها العناية الإلهيّة مهمّة التغيير الجذريّ للكون كله، لهي أحقّ كثيراً من هؤلاء بهذه الكرامة، ولاسيّما أنّ هنالك في الروايات من يدّعي أنّ حتى اللعين إبليس يملك مثل هذه المقدرة كما في القصّة التي تقول: "إنّ ابن السمعاني الزاهد الفقيه رُئي بعرفة في سنة لم يحجّ فيها ولم يخرج من بلده، وحينما أخبروه أنهم رأوه في مكة قال لهم: أجمعت الأمّة قاطبة على أنّ إبليس عدوّ الله يسير من المشرق إلى المغرب في افتتان مسلم أو مسألة في لحظة واحدة، فلماذا ينكر لعبد من عباد الله أن يمضي في طاعة الله بإذن الله في ليله إلى مكة ويعود)[1].

(١) المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، برهان الدين بن مفلح، ج٢ ص٣٩١.

فهل من عدالة الله سبحانه أن يجعل مثل هذه المقدرة الفذة عند اللعين إبليس ولا يجعلها عند حبيبه وآخر خلفائه على الأرض الإمام المهديّ؟ وهل من عدالة الله سبحانه وتعالى أن يجعلها عند ابن السمعاني ليستخدمها في الذهاب إلى الحجّ الذي هو متاح بعشرات الطرق الأخرى ولا يجعلها للمهديّ المنتظر؟ وكيف سينتصر الإمام المهديّ على إبليس ـ كما في روايات المدرستين المتفق عليها ـ إذا كان إبليس بهذه القوّة التي لا يملك الإمام المهديّ مثلها؟

وفي رواية أخرى أنّ الشيخ محمّد المعصوم "كان غوثاً يستغيث به الناس ويصفونه بحضرة (القيّوم) فقد سقط أحد مريديه عن فرسه في الصحراء، قال: فاستغثت بحضرة (القيّوم) فحضر بنفسه وأيقظني، وكذلك أشرف آخر من أتباعه على الغرق فاستغاث به فحضر في الحال وأنقذه. وكان يغيث الناس في أقصى الأرض وهو جالس في مكانه. فقد استغاث به رجل في سفينة كانت تغرق فمدّ الشيخ يده وانتشل السفينة وهو في بيته أمام أصحابه الذين رأوا فجأة أنّ كُمّه صارت مبللة بعد أن رأوه يمدّها في الهواء"[1].

إنّ الحديث عن كرامة طيّ الأرض والخلاف بشأنه يعيدنا إلى مقدّمة البحث وما ورد فيها من كلام عن نقطة التوازن، لأني أجد أننا في هذه المرحلة المصيريّة الحرجة التي تمرّ بها أمتنا الإسلاميّة لا نزال بعيدين جدّاً عن الوصول إلى هذه النقطة المهمّة ولاسيّما أنّ الذين يستكثرون على الله أن يمدّ الإمام المهديّ بهذه الكرامة، وينكرون استعمال المهديّ لطيّ الأرض لإنجاز مهامّه الربّانيّة لا ينكرون الروايات التي تدّعي كرامة طيّ الأرض لبعض المشهورين الذين لا يحتاجون كما قلنا لاستعمالها إلا في الأمور الساذجة التافهة، ولهم في ذلك قصص كثيرة يفخرون بروايتها عند حديثهم عن فضائل

---

(١) موقع صيد الفوائد، الرابط http://www.saaid.net/feraq/sufyah/t/6.htm عن جامع كرامات الأولياء ١/١٩٩ المواهب السرمديّة ٢١٠ ـ ٢١٣ الأنوار القدسيّة ١٩٥.

بعض الرجال، ويدّعون فيها أنّ الله أعطى كرامة طيّ الأرض لمجموعة كبيرة من هؤلاء وليس لواحد أو اثنين منهم فقط.

ومع أننا لا ننكر أن يمدّ الله سبحانه بعض عباده بالكرامات التي تحث الآخرين على مراجعة مواقفهم العقائديّة، ولا ندّعي أنّ الكرامات مقصورة على أهل بيت النبوّة وحدهم، لكننا نعترض بشدّة على من ينكر أن يكون لآل البيت أيّ كرامة ويستكثر عليهم ذلك، ويعدّ ذكرنا لكراماتهم من الغلوّ الفاحش بهم، ثمّ يروج لحكايات طيّ الأرض عند بعض الفضلاء والمتديّنين!

وقد مرّت وستمرّ عليكم روايات عن بعض ما أسبغه الله على الإمام المهديّ من المعجزات، ولمّا كنت قد وجدت في الكتب التي لا تعترف بوجود الإمام المهديّ أو تدّعي أنه (حاشاه الله) خرافة كلاماً قاسياً عن معتقداتنا بشأن الكرامات التي أعطاها الله تعالى للمنتظر بما يدخلها جميعها تحت مسمّى الغلوّ الفاحش أو المفرط المخرج من الملة، والمفضي إلى الكفر، والموقع في الشرك! فذلك هو ما دفعني لأن أبيّن للجميع أنّ ما ندّعيه من معجزات لأهل البيت وللمهديّ منهم بالذات قد جاء عن طريق لا يقبل التشكيك أو التكذيب، على خلاف تلك الروايات التي تدّعي الكرامات لكلّ من هبّ ودبّ طالما أنه أو خادمه أو أولاده أو المقرّبين منه قد ادّعوا حدوثها!.

ولكن قبل ذلك أودّ أن أبيّن أنّ موضوع الإيمان بالكرامات ليس من اختصاص المذهب الشيعيّ فقط وإنما هو في المذاهب الأخرى أكثر فشوّاً وامتداداً ولاسيّما أنّ الشيعة حصروه في الأئمّة المعصومين ونادراً ما خرج عن دائرتهم، أمّا المذاهب الأخرى فلم تضع له حدوداً. ولكنهم برغم تباين مواقفهم منه ومن الاعتقاد بأهمّيّته نسبوا الإتيان به إلى أبسط الناس.

الاعتقاد بالكرامات

فمن جهة الاعتقاد بهذه الكرامات جاء في موقع صيد الفوائد السلفيّ

الوهّابيّ قولهم: ويذكر الشيخ محمّد بن عبد الوهاب الواجب في حق أولياء الله الصالحين فيقول: "الواجب عليهم حبّهم واتباعهم والإقرار بكرامتهم، ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلال، ودين الله وسط بين طرفين، وهدًى بين ضلالتين، وحقّ بين باطلين"

وجاء في موقع الصوفيّة قولهم: قال الطحاوي في شرح الطحاويّة: ٢/ ٧٤٥ عن الأولياء: "ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصحّ عن الثقات من رواياتهم"

وقولهم الآخر: "ومن التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطيّة من المباحث المنيفة للشيخ السعدي، ص ٩٧ قوله: "ومن أصول أهل السنة والجماعة: التصديق بكرامات الأولياء وما يُجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات، كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمّة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمّة، وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة"

وفي قول ثالث: "لقد تواترت نصوص الكتاب والسنة والوقائع قديماً وحديثاً على وقوع كرامات الله لأوليائه المتبعين لأنبيائه"

والأدلة على الإيمان بحقيقة وجود الكرامات عند الأولياء كثيرة تجد بعضها في: الفتاوى ٣/ ١٥٦، وشرح الواسطيّة لخليل هراس، ص ١٧٦، والإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرامات، والألطاف للصنعاني، ص ٢٠، ولوامع الأنوار ٢/ ٢٩٤ كما أن ابن تيميّة رغم تشدده ورفضه لكثير من الأقوال والروايات ولاسيّما التي يعتقد بها المسلمون المخالفون لعقيدته قال في العقيدة الواسطيّة: "ومن أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات"

العجيب أنّ لهؤلاء الذين يستكثرون على الإمام المهديّ أن يخرج بكلّ

تلك المعجزات بحوثاً مستفيضة بخصوص المعجزة والكرامة، ولهم قواعد فقهيّة يعملون بها، ففضلا عمّا تقدّم تجد قولهم: "إنّ كلّ ما كان معجزة لنبيّ جاز أن يكون كرامة لوليّ، إلا أنه لا يشترط في المعجزة ادّعاء النبوّة، وليس للكرامة هذا الشرط، ولا فرق بين المعجزة والكرامة إلا بهذا الشرط"[١].

ومنها قولهم: "الذي عليه جمهور العلماء أنّ كلّ ما جاز أن يكون معجزة لنبيّ جاز أن يكون كرامة لوليّ، ولا فرق بين المعجزة والكرامة إلا شرط النبوّة، فالنبيّ يدّعي النبوّة وتأتي المعجزة بالتحدّي، وتُعجز الخصم، فتسمّى معجزة، أمّا الكرامة فتظهر على يد من ظهر صلاحه تابعاً للنبيّ، فحصولها ببركة متابعة النبيّ، فتسمّى كرامة"[٢].

ومنها قولهم: "وفضائل هذه الأمّة لا تحصى، بل رفع الله تعالى فضيلتها إلى أن خصّها ببعض ما خصّ به الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)[٣].

كما جاء عنهم في هذا الأمر قولهم: "وأمّا الإخبار بالمغيّبات فقد حصل لأولياء هذه الأمّة كثير منه"[٤].

ومن هذه القناعات المتحيّزة التي ترفض ادّعاء الكرامة للإمام المعصوم ولدت الروايات التي تنسب للأولياء والصوفيّين أنواع الكرامات، ومنها على سبيل المثال ما أورده عبد الحيّ في الشذرات في ترجمته لجلال الدين السيوطي الشافعي المتوفى سنة ٩١١ هجريّة كما في قوله عنه: "السند المحقق المدقق صاحب المؤلفات الفائقة النافعة" ثمّ قال بعد أن أكثر مثل هذا الثناء عليه: "إنه رأى النبيّ ﷺ بضعاً وسبعين مرّة يقظة) أي إنه رأى النبيّ ﷺ حقيقة وليس مجازاً في عالم الرؤيا ولا تبعاً لحديث "من رآني في

(١) معجزات الأنبياء كرامات للأولياء من هذه الأمّة، علي فرج العبدالله، ص١٠.
(٢) المصدر نفسه، معجزات الأنبياء، ص١٨.
(٣) المصدر نفسه، معجزات الأنبياء، ص١٦.
(٤) هذه الرواية والقصص التي سبقتها موجودة كلها في كتاب (معجزات الأنبياء كرامات للأولياء من هذه الأمّة) لعلي فرج العبدالله.

المنام فقد رآني فإنّ الشيطان لا يتمثل بي" بل يقظة كليّة برغم الفارق الزمنيّ بينهما الذي يزيد على التسعمئة عام. ثمّ ذكر له كرامة طيّ الأرض واصطحابه لخادمه معه من القرافة في مصر إلى مكة المكرمة ذهاباً وإياباً بعدة خطوات لا أكثر!

وفي رواية أخرى للقصّة نفسها عن ابن العماد الحنبلي قال: "وذكر خادم الشيخ السيوطي محمّد بن عليّ الحباك: أنّ الشيخ قال له يوماً وقت القيلولة وهو عند زاوية الشيخ عبدالله الجيوشي **بمصر** بالقرافة: **أتريد أن تصلي العصر بمكة** بشرط أن تكتم ذلك عليّ حتى أموت؟!

قال: فقلت: نعم.

قال: فأخذ بيدي وقال أغمض عينيك، فغمضتهما فرحل بي نحو **سبع وعشرين خطوة** ثمّ قال لي: افتح عينيك فإذا نحن بباب المعلاة، فزرنا أمّنا خديجة، والفضيل بن عياض، وسفيان بن عيينة وغيرهم، ودخلت الحرم فطفنا وشربنا من ماء زمزم وجلسنا خلف المقام حتى صلينا العصر وطفنا وشربنا من زمزم.

ثمّ قال لي: يا فلان ليس العجب من طيّ الأرض لنا وإنما العجب من كون أحد من أهل مصر المجاورين لم يعرفنا.

ثمّ قال لي: إن شئت تمضي معي وإن شئت تقيم حتى يأتي الحاجّ؟

قال: فقلت: أذهب مع سيدي.

فمشينا إلى باب المعلاة وقال: أغمض عينيك فغمضتهما **فهرول بي سبع خطوات** ثمّ قال لي: افتح عينيك **فإذا نحن بالقرب من الجيوشي** فنزلنا إلى سيدي عمر بن الفارض"[1] أي: إنّ طيّ الأرض للسيوطي لا يمثل مشكلة

(١) شذرات الذهب، ج٨، ص٥٤. هذا وقد ترجم عبد الحي في هذا الجزء من الشذرات للسيوطي في الصفحات (٥١_ ٥٥) وذكر مجموعة من فضائله.

بحسب قوله ولا يدعو إلى العجب! ولكن العجب كلّ العجب أن تطوى الأرض للإمام المهديّ صاحب أكبر مشروع إلهيّ!

وفي رواية أخرى تتعلق أيضاً بطيّ الأرض منسوبة إلى شخص آخر جاءت عن أبي سليمان الروميّ الذي قال: "سمعت خليلا الصياد يقول: غاب ابني محمّد فجزعت أمّه عليه جزعاً شديداً فأتيت معروفاً [الكرخي]

فقلت: أبا المحفوظ.

قال: ما تشاء؟

قلت: ابني محمّد غاب وجزعت أمّه عليه جزعاً شديداً، فادعُ الله أن يردّه عليها؟ فقال: اللهمّ إنّ السماء سماؤك والأرض أرضك وما بينهما لك فآت به؟

قال خليل: فأتيت باب الشام فإذا ابني محمّد قائم منبهر!

قلت: محمّد!

قال: **يا أبت كنت الساعة بالأنبار!**"[1].

فبربّكم هل عودة ابن مفقود لا يُدرى إن كان قد ذهب للتجارة أو في طلب متع الدنيا الأخرى أو لقضاء حاجة أفضل عند الله من نشر الإسلام وإظهاره على الدين كله في العوالم كلها؛ لكي يعطي الله كرامة طيّ الأرض للشيخ معروف ـ على جليل قدره وعلوّ همّته وفضله الكبير. فيعيد بواسطتها شخصاً مفقوداً إلى أهله ولا يعطيها للإمام المهديّ؟

وذكر الشيخ محمود الرنكوسي من كرامات أستاذه ومعلمه محمّد أبو الخير الميداني الذي مات في ١٤ / ٣ / ١٩٦١ بالقول: "ومنها [أي كراماته] طيّ الطريق له. فقد حدثنا بأنه كان في رمضان **وبقي للمغرب دقائق** وشرعوا في تهيئة مائدة الإفطار فرأى الشيخ رحمه الله بطيخة كبيرة فاشتهاها

---

(١) حليّة الأولياء، أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني المتوفى سنة ٤٣٠، ج٨، ص٣٦٢.

لمرشده وشيخه الشيخ عيسى الكردي رحمه الله وكان بين البيتين مقدار **ساعة زمنيّة**، فأخذ البطيخة من غير أن يشعر به أحد من أهل البيت وخرج من البيت قاصداً بيت أستاذه ودفعها إليهم **ثمّ رجع ودخل بيته قبل أن يؤذن المغرب**"[١].

فهل نقل بطيخة بواسطة طيّ الأرض أهمّ عند الله من الشأن المهدويّ؛ لكي ينعم على هذا الشيخ بهذه الكرامة ولا ينعم بها على الإمام المهديّ؟

ومن كرامات هذا الشيخ أيضاً التي ينقلها لنا الرنكوسي: "إضاءة الطريق له ليلاً فإنه رحمه الله كان يذكر كثيراً لإخوانه بأنه كان إذا مشى ليلا في الظلام قاصداً بيت أستاذه ومرشده يرى شخصاً يحمل قنديلاً من النور يمشي بين يديه حتى يوصله".

كما ونقل عنه تمكنه من علم الغيب فقال: "ومنها اطلاعه على بعض المغيّبات فإنه أعطاني رسالة كي أضعها في البريد فوضعتها في جيبي ثلاثة أيّام ناسياً لها فدخلت على الشيخ رحمه الله في اليوم الثالث أو الرابع بعد إعطائه الرسالة لي فنظر إليّ قبل أن أجلس وقال: متى تضع الرسالة في البريد، فاعتذرت وقلت يا سيدي كنت ناسياً فرجعت فوراً ووضعتها في البريد"

ثمّ إنّ الراوي لم يلتفت إلى آية ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ فنقل عنه: "ومنها إخباره لي بوفاته قبل سنة كاملة" أي إنّ الشيخ أخبرهم أنه سوف يموت بعد سنة من تاريخه!

وجاء عن الذهبي عند ترجمته للقزويني الذي وصفه بـ"الإمام القدوة العارف شيخ العراق أبو الحسن عليّ بن عمر بن محمّد القزويني البغدادي الحربي" قوله: "وحدّثني عليّ بن محمّد الطراح الوكيل قال: رأيت الملك أبا طاهر بن بويه قائماً بين يدي الشيخ أبي الحسن يومئ بالجلوس فيأبى، ثمّ

(١) القضاء الرباني، الشيخ محمود بعيون الرنكوسي.

سرد له ابن المجلي كرامات منها شهوده عرفة وهو ببغداد، ومنها ذهابه إلى مكة فطاف ورجع من ليلته"[١].

كذلك جاء في كتاب كرامات الأولياء للشيخ النبهاني ٢/ ١٤٧ أنّ الأرض كانت تطوى لعدي بن مسافر الشيخ الأمويّ المعروف، صاحب القبر الموجود في قضاء الشيخان في نينوى، حيث جاء عن الشيخ عمر قوله: "قام الشيخ وسار راجعاً وتبعته قليلاً وإذا نحن بالزاوية"[٢] وأعتقد أنّ في هذه الزاوية يكمن السرّ حيث يرد اسمها في قصّة طيّ جلال الدين السيوطي للأرض أيضاً!

ويقولون في تعريفهم لكلمة أبرار: "أبرار: لقب طبقة من طبقات الأولياء عند الصوفيّة يقولون إنّ عددهم سبعة، وهم بحسب زعمهم يطوفون العالم بجملته كلّ ليلة"[٣].

وتبعاً لهذا الفهم وجَدتُ الكثير من القصص التي يخالف الغالب منها العقل والنقل طريقها إلى كتب الفضائل. وهنالك في هذه القصص كرامات هي صور جديدة لمعجزات الأنبياء السابقين، والمفروض بك بصفتك مسلماً أن تصدّق ما ورد فيها ولا تعترض عليه ما دام صاحب الكرامة ليس من أئمّة آهل البيت، أمّا إذا وصل الأمر للأئمّة؛ فستجد هنالك ألف اعتراض واعتراض وقد يتهمونك في الأقل أنك تشبّه الأئمّة بالأنبياء أو تفضلهم عليهم أو إنك تغالي بهم.

ومن هذه الكرامات ما يخصّ (الصحابيّ أو التابعيّ) أبا مسلم الخولاني[٤] بأنه اشترط على بعض الناس أن لا يأخذوا معهم زاداً إذا ما أرادوا مصاحبته في طريق الحجّ: "فخرجوا من غوطة دمشق ليس معهم زاد

---

(١) سير أعلام النبلاء، محمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي.
(٢) معجزات الأنبياء كرامات للأولياء من هذه الأمّة،علي فرج العبدالله،ص ٦٩.
(٣) معجم المصطلحات والألقاب التاريخيّة مصطفى عبد الكريم الخطيب، ص١٤.
(٤) هناك اختلاف بين العلماء وأصحاب نظريات الصحبة بشأنه فيما إذا ما كان صحابيا أم تابعيا لأنه أسلم في زمن البعثة ولكنه لم ير النبيّ ﷺ.

ولا مزاد ولا علف لحيواناتهم فكان عند كلّ وقت يصلي ركعتين فتأتي سفرة تمتدّ بين أيديهم، وجفنة من ثريد، وقلتين من الماء والعلف. فلم يزل هذا حالهم منذ خرجوا من أهلهم حتى عادوا" وهذه القصّة تشبه قصّة نبيّ الله موسى عليه السلام الذي فجّرمن الحجر عيون ماء حينما استسقاه قومه. وقصّة نبيّ الله عيسى عليه السلام الذي أنزل للحواريّين مائدة من السماء، كما وردت في القرآن والإنجيل.

ومنها أنه يأمر الغزاة السائرين إلى قتال الروم حينما تعترضهم الأنهار والمياه بالسير خلفه على وجه الماء فيقطعون النهر الغمر، كما كان يفعل السيد المسيح.

ثمّ إنه أتى ذات مرّة إلى نهر دجلة وهو فائض... فلهز دابّته فخاضت الماء وتبعه الناس حتى قطعوا، ثمّ قال: "هل فقدتم شيئاً من متاعكم، فادعوا الله أن يردّه عليكم"

وهناك رواية مشابهة لهذه الرواية ولكنها عن الصحابيّ العلاء بن الحضرميّ وهو الذي أرسله النبيّ والياً على البحرين وأرسل معه أبا هريرة الدوسي مؤذناً، فالعلاء تبع المسلمين المرتدّين الذين هربوا بحراً في سفن لهم إلى دارين بأن أتى ساحل البحر وأمر جيشه بأن يقحموه خيولهم وبغالهم وجمالهم بأحمالها فكانوا يمشون على مثل الرمل ولا يكاد الماء يغمر خفاف الإبل، ولم يفقدوا سوى عليقة فرس لرجل من المسلمين عاد العلاء فجاء بها! والرواية موجودة في تاريخ الطبري وغيره. وهذه القصص تشبه قصّة موسى وقومه مع نهر النيل ولكنها أقوى منها حيث انشق البحر لموسى؛ أمّا العلاء فمشى مع جنده على الماء كما هي قصّة المسيح وتلامذته التي وردت في القرآن والتوراة والإنجيل.

ومنها أنّ الأسود العنسي مدّعي النبوّة أجّج للخولاني ناراً وألقاه بها، فلم تضرّه بل جعلها الله تعالى برداً وسلاماً عليه كما جعل الله النار برداً وسلاماً على إبراهيمَ عندما ألقاه النمرود فيها والقصّة مذكورة في القرآن.

بل إنّ الخولاني أمر تلميذه أحمد بن أبي الحواري أن يدخل التنوّر المسجور فجعله الله عليه برداً وسلاماً كذلك كرامة للخولاني![1].

ومنها في طبقات الشافعيّة ٢ / ٣٤٠ أنّ الله سخر الريح لشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام كما سخرها لنبيّه سليمان؛ إذ قال للريح في إحدى وقعات الإفرنج: خذيهم فأخذتهم! هنا أريد لفت الأنظار إلى أنّ رسول الله وصحابته الكرام خير خلق الله زلزلوا زلزالاً شديداً يوم الخندق فلِمَ لمْ يأمر النبيّ ﷺ الريح أن تأخذ الأحزاب؟

ومنها قصّة أبي بكر عبيد بن يسار الذي انكسر به وبأصحابه مركب في البحر فتعلقوا بلوح منه، فأنبت الله لهم شجرة على اللوح كانوا يمصّون أوراقها فيشبعون ويرتوون، ثمّ تنبت الأوراق من جديد بدل تلك التي استهلكوها إلى أن أنقذهم مركب للمسلمين.

ومن هذه الكرامات أنّ أبا عبيدة السرّيّ الدمشقيّ غزا سنة من السنين وفي أثناء الطريق مات مهره فسأل الله أن يحييها له على سبيل العارية حتى يرجع إلى قريته فإذا المهر قائم ينفض أذنيه[2].

ومثلها في كتاب (من عاش بعد الموت) لابن أبي الدنيا عن أنس بن مالك أنه عاد شابّاً من الأنصار مريضاً فمات، فأخبرت والدته بموته فقالت دعاء فكشف الميت الثوب عن وجهه، فما برحنا حتى أكلنا وأكل معنا. كما كان نبيّ الله عيسى يفعل.

ومنها في كتاب كرامات الأولياء للنبهاني ٢ / ١٤٧ أنّ الشيخ عدي بن مسافر كان يبرئ الأكمه والأبرص، تماماً كما كانت معجزة نبيّ الله عيسى عليه السلام

---

(١) ينظر كتاب (معجزات الأنبياء كرامات للأولياء من هذه الأمّة) لعلي فرج العبدالله.

(٢) طبقات الشافعيّة ٢/ ٣٣٨ والرسالة القشيريّة ص٢٢ ومختصر تاريخ دمشق ٢٢/ ٨٨ ومعجم البلدان ١/ ٤٢٠.

كما جاء عنهم قولهم المشهور "وأمّا الإخبار بالمغيّبات فقد حصل لأولياء هذه الأمّة كثير منه"[١].

وفي كتاب طبقات الشافعيّة، في ترجمة أحمد بن محمّد أبو العباس الملثم الذي مرّ عليكم ادّعاؤه الصعود إلى السماء في حديثنا عن صعود بعض الأنبياء، قالوا: "كان من أصحاب الكرامات والأحوال والمقامات العاليات ويحكى عنه عجائب وغرائب وكان مقيماً بمدينة قوص له بها رباط وعرف بالملثَم لأنه كان دائماً بلثام، وكان من المشايخ المعمرين بالغ فيه قوم حتى قالوا إنه من قوم يونس عليه السلام، وقال آخرون إنه صلى خلف الشافعي (رض) وإنه رأى القاهرة أخصاصاً قبل بنائها، ومن أخصّ الناس بصحبته تلميذه الشيخ الصالح عبد الغفار بن نوح صاحب كتاب الوحيد في علم التوحيد وقد حكى في كتابه هذا كثيراً من كراماته وذكر أنه كان عادته إذا أراد أن يسأل أبا العباس شيئاً أو اشتاق إليه حضر وإن كان غائباً ساعة مرور ذلك على خاطره، قال وسألني يوماً بعض الصالحين أن أسأله عمّا يقال إنه من قوم يونس ومن أنه رأى الشافعي قال فجاءني غلام عمّيّ وقال لي الشيخ أبو العباس في البيت وقد طلبك وكنت غسلت ثوبي ولا ثوب لي غيره فقمت واشتملت بشيء ورحت إليه فوجدته متوجّهاً فسلمت وجلست وسألته عمّا جرى بمكة، وكنت أعتقد أنه يحجّ في كلّ سنة فإنه كان زمان الحجّ يغيب أيّاماً يسيرة ويخبر بأخبارها، فلمّا سألته أخبرني بما جرى بمكة ثمّ تفكرت ما سأله ذلك الرجل الصالح فحين خطر لي التفت إليّ وقال لي: يا فتى ما أنا من قوم يونس أنا شريف حسينيّ، وأمّا الشافعيّ فمتى مات ما له من حين مات كثير نعم أنا صليت خلفه وكان جامع مصر سوقاً للدوابّ وكانت القاهرة أخصاصاً، فأردت أن أحقق عليه فقلت: صليت خلف الإمام الشافعيّ محمّد بن إدريس

(١) هذه الروايّة والقصص التي سبقتها موجودة كلها في كتاب (معجزات الأنبياء كرامات للأولياء من هذه الأمّة) لعلي فرج العبدالله.

فتبسّم وقال: في النوم يا فتى، في النوم يا فتى وهو يضحك، وكان يوم الجمعة فاشتغلنا بالحديث وكان حديثه يلذ بالمسامع فبينما نحن في الحديث والغلام يتوضأ فقال له الشيخ إلى أين يا مبارك فقال إلى الجامع فقال وحياتي صليت فخرج الغلام وجاء فوجد الناس خرجوا من الجامع، قال عبد الغافر فخرجت فسألت الناس فقالوا كان الشيخ أبو العباس في الجامع والناس تسلم عليه، قال عبد الغافر وفاتتني صلاة الجمعة ذلك اليوم، قال ولعلّ قوله صليت من صفات البدليّة فإنهم يكونون في مكان وشبههم في مكان آخر وقد تكون تلك الصفة الكشف الصوريّ الذي ترتفع فيه الجدران ويبقى الاستطراق فيصلي كيف كان ولا يحجبه الاستطراق

قال عبد الغافر وكنت عزمت على الحجاز وحصل عندي قلق زائد فأنا أمشي في الليل في زقاق مظلم وإذا يد على صدري فزاد ما عندي من القلق فنظرت فوجدته الشيخ أبا العباس فقال يا مبارك القافلة التي أردت الرواح فيها تؤخذ والمركب الذي يسافر فيه الحجاج يغرق فكان الأمر كذلك. قال وكان الشيخ أبو العباس لا يخلو عن عبادة يتلو القرآن نهاراً ويصلي ليلا قال وكان أبوه ملكاً بالمشرق

قال وقلت له يوماً يا سيّدي أنت تقول فلان يموت اليوم الفلاني وهذه المراكب تغرق وأمثال ذلك والأنبياء عليهم السلام لا يقولون ولا يظهرون إلا ما أمروا به مع كمالهم وقوّتهم، ونور الأولياء إنما هو رشح من نور النبوّة، فلمَ تقول أنت هذه الأقوال، فاستلقى على ظهره وجعل يضحك ويقول: وحياتي وحياتك يا فتى ما هو باختياري. وتوفي الشيخ أبو العباس يوم الثلاثاء رابع عشرين من شهر رجب سنة اثنتين وسبعين وستمئة وهو مدفون برباطه بمدينة قوص مقصود للبركة"[1].

والظاهر أنّ مثل هذه الكرامات فاشية بينهم، فقد نقل موقع صيد

(١) طبقات الشافعيّة، الترجمة تسلسل ١٠٥٨.

الفوائد[١] عن الصوفيّين من أتباع الطريقة النقشبنديّة كمّاً كبيراً من هذه الكرامات منها قولهم في حديثهم عن أحد شيوخهم: "وكانت الكعبة تطوف به تشريفاً له"[٢].

ومنها: وكان الشيخ عبيدالله أحرار ميزة عجيبة فكان عنده قوّة ينقل بها المرض من شخص لآخر"[٣].

ومن كراماته أيضاً أنّ زوجة أحد أصحاب هذا الشيخ قد مرضت، فالتمس من حضرته أن يدعو الله تعالى بتخفيف مرضها فلم يفعل، فألحّ عليه، فقال له: لا تبقى هذه المرأة أكثر من خمسة عشر يوماً، وبقدرة الله تعالى توفيت يوم الخامس عشر"[٤].

ومنها: وحكى الكوثري عن أبي الحسن الشاذلي أنه قال: "أطلعني الله على اللوح المحفوظ، فلولا التأدّب مع جدّي رسول الله لقلت هذا سعيد وهذا شقيّ"[٥].

ومنها: وكان الشيخ عبدالله الخاني يخبر بالأمور قبل وقوعها وكان لا يسأل أتباعه عن أحوالهم وإنما يخبرهم عنها[٦].

ومنها أنّ بهاء الدين نقشبند [مؤسّس الطريقة النقشبنديّة] كان يقول للرجل "مُت" فيموت ثمّ يقول له "قم حيّاً" فيحيا مرّة أخرى"[٧].

ومنها: وكان الشيخ أحمد الفاروقي يقول "كثيراً ما كان يُعرجُ بي فوق

---

(١) موقع صيد الفوائد، الرابط .http://www.saaid.net/feraq/sufyah/t/6.htm

(٢) نقله عن المواهب السرمديّة ١٨٥ الحدائق الورديّة ١٨٠ البهجة السنيّة ٨٠ والحاوي للفتاوي ١/ ٢٢٠ للسيوطي.

(٣) نقله عن جامع كرامات الأولياء ٢/ ٢٣٦،الأنوار القدسيّة ١٧٧.

(٤) عن المواهب السرمديّة ٢٤٩و٢٥١ جامع كرامات الأولياء ٢/ ١٢٩ الأنوار القدسيّة ٢١٦و٢١٧.

(٥) نقلها عن ارغام المريد شرح النظم العتيد لتوسل المريد برجال الطريقة النقشبنديّة ٣٩.

(٦) نقلها عن جامع كرامات الأولياء ١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٧) نقلها عن المواهب السرمديّة ١٣٣ والأنوار القدسيّة ١٣٧ وجامع كرامات الأولياء ١/ ١٤٦.

العرش وأرتفعُ فوقه بمقدار ما بين مركز الأرض وبينه، ورأيت مقام الإمام شاه نقشبند... قال "وأعلم أني كلما أريد العروج يتيسّر لي"[١].

ومنها قولهم: "يعتقد النقشبنديون عامّة والأحباش خاصّة أنّ المؤسّس الأوّل للطريقة النقشبنديّة هو أبو بكر الصديق. وكان يستعمل طريقة الذكر النقشبنديّة بحبس النفس ولا يتنفس إلاّ في الصباح، وكان الناس يشمّون رائحة اللحم المشويّ فأخبرهم النبيّ ﷺ أنّ هذه الرائحة كبد أبي بكر من كثرة ذكره لله. ويعتقدون أنّ من لم يسلك طريقته فهو على خطر من دينه"[٢].

وفي حديثه عن سنة أربع وثمانمئة، قال ابن العماد الحنبلي: "وفيها بركة السيّد الشريف المعتقد المعروف بالشريف بركة.. أنّ تيمور لمّا أخذ السلطان حسين صاحب بلخ سنة إحدى وسبعين وسبعمئة، ثمّ سار لحرب القان تقتمش ملك التتار.. قتل أكثر أصحاب تيمور وظهرت الهزيمة على عسكره وإذا بالسيّد هذا قد أقبل على فرسه، ثمّ نزل عن فرسه ووقف يدعو ويتضرّع، ثمّ أخذ من الأرض ملء كفه من الحصباء ورمى بها وجوه عسكر تغتمش خان وصرخ بأعلى صوته: (باغي قجتى) ومعناه باللغة التركيّة العدوّ هرب.. فانهزموا أقبح هزيمة وظفر تيمور بعساكر تغتمش"[٣].

ووجدت في أحد المواقع الالكترونيّة (مكرمة) من طراز خاصّ ومن النوع الثقيل أثبتها بحرفيّتها كما جاءت؛ لكي تُعرف نظرة الآخر المستهينة للكرامة وأهلها مع تحفظهم الشديد على حديثنا عن كرامات أهل البيت عليهم السلام، تقول الرواية، وهي التي بعنوان (رجل الله يسكن في بيت الخواطى) والخواطي؛ أي: الخاطئات، أي: (العاهرات) ـ أجلكم الله من ذكرهنّ ـ والمقالة بقلم

---

(١) نقله عن المواهب السرمديّة ١٨٤ الأنوار القدسيّة ١٨٢.

(٢) نقلها عن إرغام المريد للكوثري، ص٣٠ ومجلة منار الهدى ١٦/ ٢٠ ونور الهداية والعرفان في سر الرابطة وختم الخواجكان..

(٣) شذرات الذهب في اخبار من ذهب، أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، الجزء ٧، ص٤٣.

إبراهيم أحمد كامل جاء فيها: "الصوفيّة هم أهل الله وخاصّته، ترجى الرحمة بذكرهم ويستنزل الغيث بدعائهم. قال شيخ الصوفيّة "أبو القاسم الجنيد" (ت٣٩٠ هجريّة) في وصف طريق الصوفيّة: طريقنا هذا مضبوط بالكتاب والسنّة. ومن الغريب أن نجد أحد شعراء الصوفيّة يمتدح الحشيش الذي يسهل اصطياد الغلمان النافرين للواط بهم؛ فهو يقول:

فحشيشة الأفراح تشفع عندنا للعاشقين ببسطها للأنفس
و إذا هممت بصيد ظبيٍ نافرٍ فاجهد بأن يرعى حشيش القنبس

ولكنّ الأغرب أن يسكن أحد أولياء الله هؤلاء في خان الخواطى (بيت العاهرات) ذلك هو الشيخ "على وحيش" الذي يقول عنه الإمام "عبد الوهاب الشعراني" المعاصر له (ت **٩٧٣** هجريّة) في كتابه "لواقح الأنوار في طبقات الأخيار": كان رضي الله عنه من أعيان المجاذيب أرباب الأحوال وله كرامات وخوارق. كان الشيخ علي وحيش يقيم في "المحلة" ويسكن في خان بنات الخطا، في ذلك الوقت كان يسمح بممارسة الدعارة في بيوت معروفة. وكانت العاهرات يدفعنَ ضريبة تسمّى "ضمان المغاني" [أصبح اسمها في عهد محمّد علي ضريبة الخردة وفى عصرنا الراهن ضريبة الملاهي] فكنّ يبعنَ لحمهنّ الرخيص بموافقة الحاكم وتحت حمايته. لكن الشيخ علي وحيش كان يسكن في بيت العاهرات **لغرض نبيل وهو الشفاعة عند الله في الزناة الذين يأتون للحصول على المتعة الحرام**. فبعد أن يقضي الواحد منهم وطره ويحصل على متعته، وحين يهمّ بالخروج يقول له الشيخ: قف حتى أشفع فيك عند الله قبل أن تخرج، فيشفع فيه الشيخ ويتركه يذهب. وكان يحبس بعض المتردّدين على البيت اليوم واليومين ولا يمكنهم من الخروج حتى تجاب شفاعته فيهم. وقال الشيخ يوماً لبنات الخطا: اخرجوا من الخان لأنه سينهار عليكم! فما استمعنَ إليه إلا واحدة خرجت سالمة وماتت الباقيات مدفونات تحت أنقاض الخان الذي انهار عليهنّ كما حذرهنّ.

وكان الشيخ علي وحيش إذا رأى شيخ بلد أو غيره من صغار الحكام

يركب حمارة.. ينزله من عليها، ثمّ يقول له: أمسك رأسها لي حتى أفعل فيها، فإن أبى شيخ البلد أن يفعل ذلك تسمّر في الأرض لا يستطيع أن يمشي خطوة، وإن أطاعه شعر بخزي كبير والناس يمرّون عليه والشيخ يمارس الجنس مع حمارته وهو يمسك له رأسها. وقد عاد الإمام الشعراني إلى وصف الشيخ علي وحيش بقوله: وكان له أحوال غريبة وقد سأل الشيخ "محمّد بن عنان" عن الشيخ علي وحيش وأحواله الغريبة تلك فقال له: إنّ هؤلاء يخيّلون (يوهمون) للناس هذه الأفعال وليس لها حقيقة ولا نملك إلا أن نقول الله أعلم وهو محيط بأفعال عباده، ولكلّ عبد من عباده كتاب لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها.. وسبحان علام الغيوب فمن غيره يغفر الذنوب؟)[١].

ومن كلّ ما تقدّم من حديث عن الكرامات حسنها وقبيحها نستنتج أنّ إعطاء كرامة طيّ الأرض وكلّ الكرامات الأخرى إلى الإمام المهديّ ليس غلوّاً شيعيّاً، بل هو حقيقة ثابتة؛ لأنّ مجرد إعطائها للأولياء وحتى للصوفيّين بل وللخلعاء والماجنين مثل الشيخ (علي وحيش) وغيره ممّن مرّ ذكرهم في الروايات والقصص السابقة يعني أنّ إعطاءها للإمام المهديّ حامل المشروع التجديديّ الهادي أكثر أهمّيّة من إعطائها لكلّ هؤلاء، ولكلّ من ادّعيت لهم كذباً وزوراً، وحتى لمن كان يمتلكها حقاً.

ومن هذه القناعة الثابتة تجدنا نؤمن عن يقين بما ورد في رواياتنا عن إعطاء الله سبحانه للإمام المهديّ كرامة طيّ الأرض؛ لكي يتنقل بواسطتها في الأرض كلمح البصر بل هو أسرع حتى إنّ أهل مشرق الأرض وأهل مغربها يمكن أن يحلفوا بالله أنه كان عندهم في اللحظة نفسها، أو كما جاء عن الإمام عليّ عليه السلام: "تراه الأرض في كلّ زواياها في وقت واحد، ليل نهار"[٢] لكي يتابع بيسر عمليّة البناء الكونيّ الكبيرة التي هي أهمّ في كلّ المقاييس من مهامّ هؤلاء.

---

(١) موقع حلو الكلام http://himaparadise.jeeran.com/archive/2009/3/823845.html

(٢) المفاجأة، ص٥٠٨.

وعند مقارنة المهامّ المهدويّة مع مهامّ الآخرين ولاسيما منها تلك التي وردت في بعض الروايات الفضائليّة التي مرّت عليكم يتأكد أنّ من عدالة الله تعالى التي يتفق المسلمون جميعاً على حقيقة أن يتكرّم الله على المهديّ بهذه الكرامة لكي ينجز ما في ذمّته من مهامّ أوكلتها العناية الإلهيّة له ولدولته، دولة الاستخلاف الإلهيّ الأخير، وأنّ طيّ الأرض هو من ممهدات الانطلاق نحو الأكوان لتحقيق كونيّة الأطروحة المهدويّة.

وبهذه المقدّمات سنتحدّث في الجزء الثاني عن الأكوان وسكانها وعلاقتها بالمهدويّة وبعصر الظهور المقدّس.